

الاخ الفاضل الدكتور أحمد رمزي الحزم

مع أطيب المتمنيات

عبد الإله 97/1/14

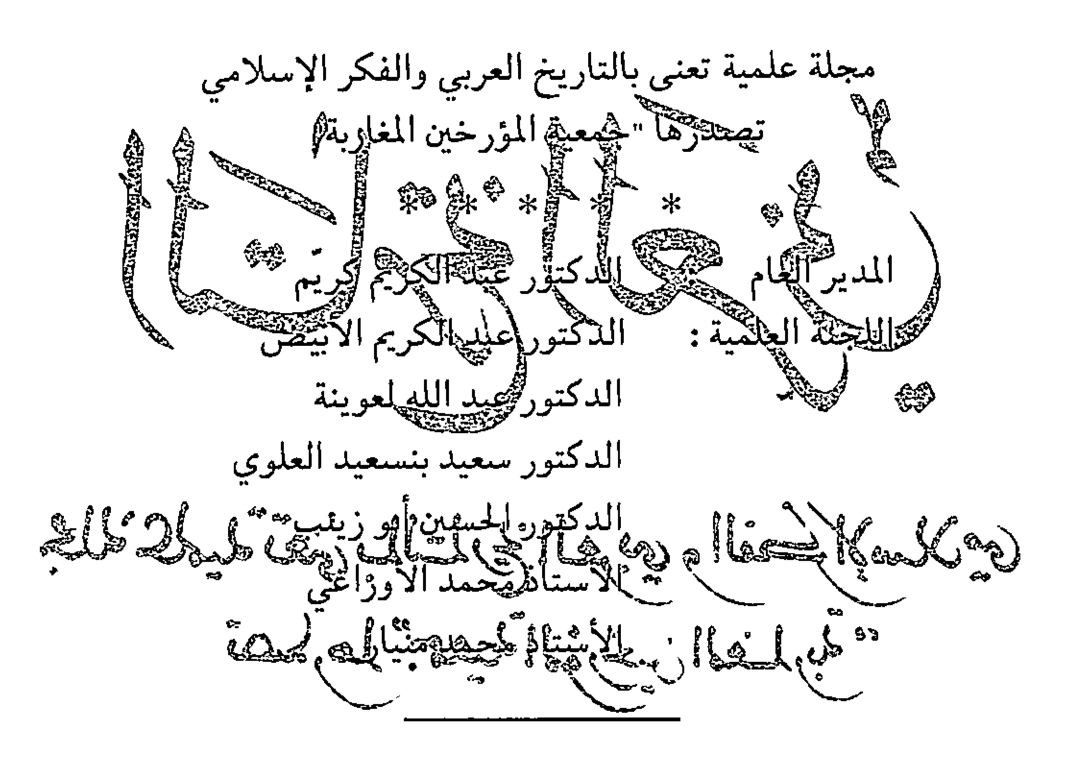


العدد الأول – رجب 1417 – نونبر 1996

التاريخ العربي

مجلة علمية تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي

تصدرها "جمعية المؤرخين المغاربة"



* * * *

---

* البحوث الواردة في المجلة تعبر عن أفكار أصحابها .

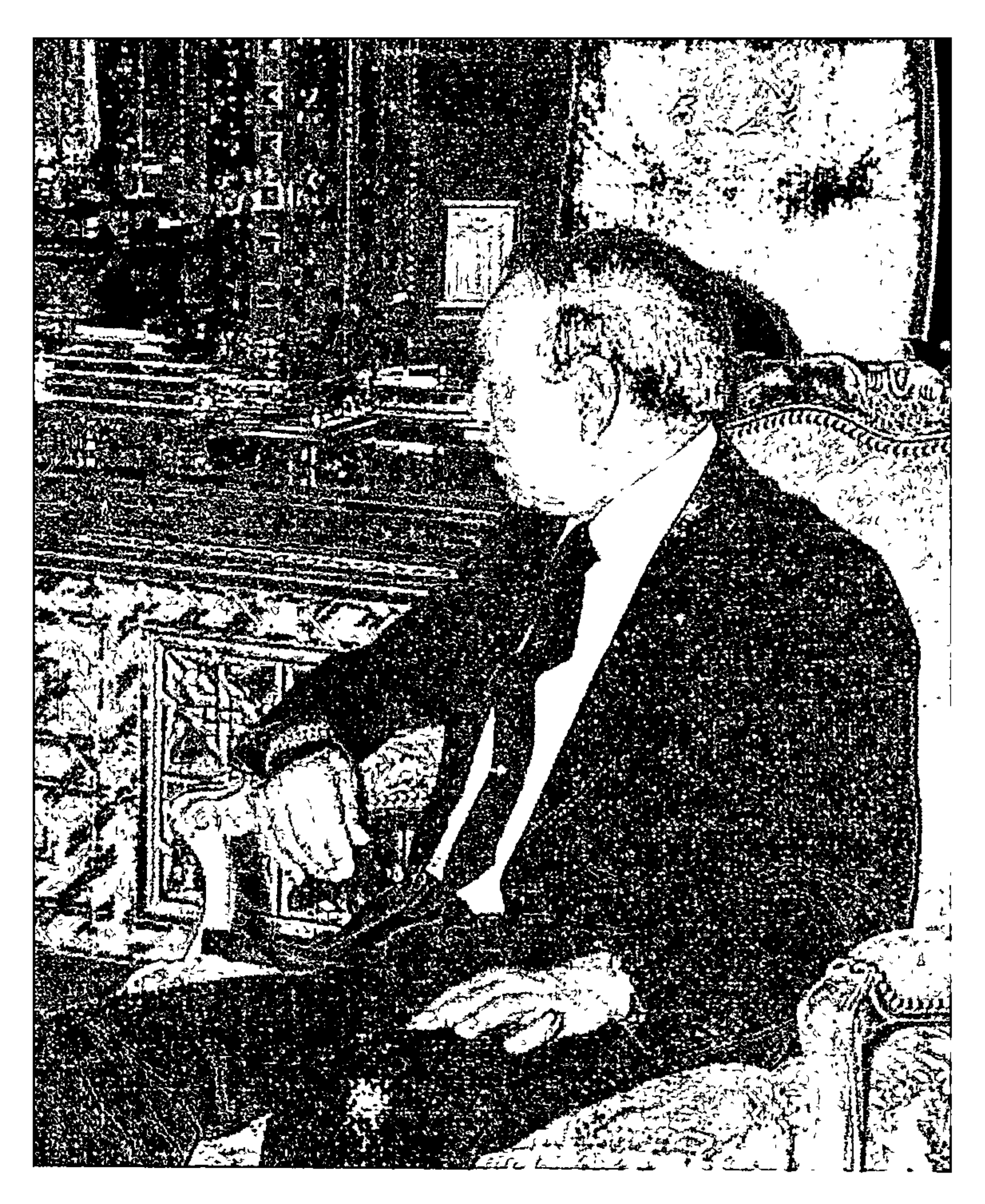
* ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية .

جمعية المؤرخين المغاربة : قصبة الأوداية - الرباط - المملكة المغربية

الهاتف : 73.29.54 - 72.35.70

الفاكس : 73.29.54

[illegible]



"التاريخ في حاجة مستمرة إلى مراجعته بالاستنباط وإغنائه بالمزيد من الدرس والتحليل، لأن هذه المراجعة تعني الوعي بالذات ولأن استرجاع الماضي لا يعني الجمود فيه وإنما هو نظرة استشرافية للاستفادة من حسناته في صنع الحاضر الحسن والمستقبل الأحسن"

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني



"يجب على الشباب أن يتتبعوا ويسألوا عن التاريخ ويراجعوه
حتى يعلموا ماذا مرّ بهذا الوطن، إنني أؤمن بأن من
لا يعرف ماضيه فهو حتماً لا يعرف حاضره"

صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

بسم الله الرحمن الرحيم

من فضل الله علينا
أن انتماءنا لأمتنا العربية الإسلامية متأصل في الأعماق،
وأن وجداننا شغوف بحب الأهل والعشيرة،
وأن لغتنا مصدر التحام وعنصر قوتنا،
وأن تاريخنا زاخر برصيد كريم بالأوفياء المخلصين،
مما يبعث على اطمئناننا ويعزز الثقة بالغد المشرق بحول الله.
من الأهداف المتوخاة لمجلة «التاريخ العربي»:
1) العناية بالتراث العربي - الإسلامي ودراسته والتعريف به.
2) توطيد أواصر الأخوة العربية الإسلامية واستخلاص العبر من الماضي للمساهمة في تقويم مسيرتها.
3) تأمين مصدر مشترك للأجيال القادمة يطلعها على تاريخ الأجداد ويقوي دعائم وحدتها.
4) إبراز الحقيقة التاريخية بموضوعية وبروح عربية إسلامية ومستوى علمي رفيع.
ومن حسن الطالع أن يتزامن إصدار العدد الأول لمجلة «التاريخ العربي» مع ذكريات خالدة:
- تحرير البطل صلاح الدين الأيوبي للقدس الشريف (2 أكتوبر)
- استقلال المملكة المغربية (18 نونبر)
- العيد الفضي لدولة الإمارات العربية المتحدة (2 دجنبر)
وجمعية المؤرخين المغاربة:
تتشرف باغتنام المناسبة السعيدة للتنويه:
. بالجهود المتواصلة للعاهلين الشقيقين، جلالة الملك الحسن الثاني وأخيه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في خدمة العروبة والإسلام وبأياديهما البيضاء على العلم والعلماء
. وبشغفهما بالتاريخ والدراسات التاريخية.
وتبارك الخطوات الرائدة للقائدين:
. الهادفة إلى جمع شملنا وتنقية أجوائنا والحريصة على توطيد دعائم نهضتنا في عالم يبني قواعد نظام جديد يقوم على التجمعات القوية بوحدتها السياسية والاقتصادية والحضارية.

الدكتور عبد الكريم كريم

بمناسبة عيد استقلال المملكة المغربية

جهاد محمد الخامس

من خلال أقوال شريكه في الكفاح

جلالة الملك الحسن الثاني

(لقد قضيت صباك تحت تأثير العهد الأول للحماية فكنت وأنت الطفل الصغير تسمع الآهات على الاستقلال الضائع والمجد الذاهب والحرية السليبة وكنت تتابع أخبار المقاومة المغربية المسلحة في الجبال والصحاري وكنت تشاهد ما عليه الأمة المغربية من التشبث بالخرافات والتعلق بالأساطير والخروج عن طريق الجادة والمحجة البيضاء فكنت تتألم وكنت تحزن) محمد الخامس : فكرة وعقيدة ، ص 245

(لقد كان أبي مقتنعا اقتناعا ينزل من نفسه منزلة الإيمان بأن التعليم له مركز الصدارة في قائمة احتياجاتنا ولذلك بذل كل جهد في استطاعته لكي يجعل السلطات التي بيدها مقاليد الحكم توفر التعليم الجماهيري الواسع لأمتنا) . الحسن الثاني : ملك المغرب : التحدي ، ص 29

(لقد امنت يا أبتاه بأنه لا يمكن أن يصلح آخر هاته الأمة إلا بما صلح به أولها فأخرجت المرأة من عهد الجهل إلى عهد النور والعلم وأعطيت بالأميرات فلذات كبدك أروع الأمثلة فتسابق المواطنون لتعليم بناتهم) .

محمد الخامس : فكرة وعقيدة ، ص 245

(لقد كان احتفال الملك والشعب بعيد العرش قبل الإستقلال في عهد والدنا محمد الخامس رضي الله عنه تعبيرا عن الفرحة باتحاد إرادة الملك وإرادة الشعب وتجسيما للإزدهار بتصميم العزائم على المضاء انتزاعا للحرية واستردادا للسيادة). ابعاث أمة، ج 20 - ص 2

(إن الأطر اللازمة لقيام حركة تحرير شعبي كبيرة لم تكن قد توفرت بعد ولذلك كان من الضروري أن تنبثق هذه الأطر تدريجيا من هيكل اجتماعي واقتصادي وثقافي لم يكن يسهل عليه تكوينها).

الحسن الثاني ملك المغرب : التحدي، ص 37

(وكانت التجارب قد أعطته الدليل على أنه من العبث انتزاع إصلاحات حقيقية قاطعة ما دام هيكل الحماية قائما).

الحسن الثاني ملك المغرب : التحدي ، ص 52

(إن الذين كانوا يظنون أن من الممكن الوصول إلى الإستقلال عن طريق الإصلاحات أقنعهم والدي بأن يتبنوا استراتيجية وتكتيكا جديدين وأن يعكسوا المقدمة المنطقية منادين : للوصول الى الإصلاح لابد من الاستقلال). الحسن الثاني ملك المغرب : التحدي ، ص 53

(لقد قضيت سبعة عشر عاما فوق العرش تحاول بكل ما في وسعك أن تأخذ لهذه الأمة ما يمكن أخذه من المستعمر الغاصب وكنت تقلب الرأي وتعد الخطط للتخلص من سيطرته وتهيء الإطارات بالداخل والخارج في انتظار يوم الخلاص لكي يحسن المغرب الجديد مواجهة مسؤولياته حتى إذا أشرفت الحرب الأخيرة على نهايتها ووجدت الفرصة مواتية للصدع بما قدرت اعلنتها في شجاعة المقاوم الباسل والبطل الصنديد المغوار فحصرت مطلبك في الحرية والإستقلال لوطنك ... وهكذا قدت منذ سنة 1944 أمتك في المطالبة بالاستقلال). محمد الخامس : فكرة وعقيدة، ص 246

(لماذا نحتفل بهذه الذكرى والحالة أن تاريخ المغرب منذ أن انقض عليه المستعمر مليء بذكريات معارك خلدت اسمه وأسماء الأبطال الذين خاضوا تلك المعارك ... فمثل هذه المعارك كانت تقض مضجع المستعمر وتهدد أمنه ولكن معركة يناير 1944 أظهرت له أنها تهدد وجوده وكيانه ... إن 11 يناير 1944 كانت ملتقى بين القوات الحية في هذه البلاد وبين ملكها) .

انبعاث أمة ، ج 17 - ص 1

(لم تكد تصل سنة 1947 حتى ربطت بزيارتك التاريخية بين أجزاء المملكة المغربية فحطمت الحدود المصطنعة وربطت الحاضر بالماضي فأكدت ارتباط هذا الجناح من وطن العروبة بباقي أطرافه ولفت بذلك الخطاب التاريخي انظار العالم إلى أن المغرب الذي لعب عبر التاريخ أروع الأدوار في بناء صرح المدنية متطلع الى أن يأخذ من جديد مقامه في المحافل الدولية ويساهم مرة أخرى في عظمة وازدهار عالم ما بعد الحرب ومنذ ذلك العهد والاستعمار يوالي مؤامراته عليك ويجند الصنائع والعملاء للنيل منك) .

محمد الخامس : فكرة وعقيدة ، ص 248

(إن الاستعمار وأذنابه كانوا يلقبون محمد الخامس (سلطان كرير سنترال) وكان طيب الله ثراه يفتخر بهذا اللقب ويقول : الآن احسست بأن المستعمر أدرك الخطورة حيث أنه جعلني ملكا على الشعب لا على القشور) .

انبعاث أمة ، ج 16 - ص 146

(انني لاذكر ونحن في يوم 14 غشت 1953 أنني في حديث مع والدي طيب الله ثراه بعد العشاء وكان في مدة تلك الأزمة يسهر الليل كثيرا حوالي الساعة بين الحادية عشرة والثانية عشرة . قال لي رحمة الله عليه : إنني سأخوض معركة وأنا أعزل فلا جيش لي . ولا شرطة ولا مالية

ولا وسائل علما مني أن العدو أقوى وعلما مني بأنني مثقل بأبناء وبنات وسوف أزج بكم ربما أنتم أبنائي وفلذات كبدي سوف أزج بكم في هذه المعركة ولا أدري ما سيكون المصير . ثم زاد وقال : فلا أريد أن تعذلني ولكن أريد أن تفهمني . فأجبته : ياسيدي افعل كأنك أعزب غير متزوج ولا أبناء لك) .

انبعاث أمة ، ج 18 - ص 289

(في هذا الموقف الرهيب اتذكر فترة تاريخية عشتها بجانبك حينما تكالب علينا الاستعمار مهددا لجلالتك متحديا لمهابتك يساومنا على أن نرضى بالدنية في وطننا ويراودنا على أن نرهن مصير الأمة في عبودية مستمرة مستعملا لذلك أنواع الوعيد ... ومع ذلك لم يهن لنا عزم ولا ضعفت لنا قناة ... إنك لا تزال أمامي يوم أن طوق القصر ... وما زلت أتذكر وقد نظرت إليك نظرة إشفاق وأراك تبتسم مرددا : لاتحزن إن الله معنا) .

محمد الخامس : فكرة وعقيدة ، ص 249

(وهجم الظالمون على القصر وأخرجنا من أهلنا وديارنا لا نعلم أين المصير وحلقت بنا الطائرة) .

محمد الخامس : فكرة وعقيدة ، ص 249

(إلى أين كنا ذاهبين ؟ لم نكن نعرف أي شيء ...
وابلغنا الكولونيل إن وجهتنا يمكن أن تكون كورسيكا ...
وفي أواخر يناير 1954 نقلنا الى مدغشقر)

الحسن الثاني - ملك المغرب : التحدي ، ص 90

(لماذا نحتفل بذكرى عشرين غشت ... لأنها كانت هي الشرارة الأولى التي أذنت بانهيار الاستعمار في جميع انحاء العالم وبالأخص في قارتنا الافريقية) .

انبعاث أمة ، ج 20 ، ص 120

(ان ثورة الملك والشعب لم تكن ثورة الملك وحده ولم تكن ثورة الشعب وحده بل كانت ثورتهما معا ويمكن أن نقول إن المغرب كله كان ثائرا).

انبعاث أمة، ج 31، ص 378

(إن ايمانك بالله لم يضعف قط ولم يصبك قنوط في المنفى لانك كنت واثقا بمن يعلم السر واخفى لقد كنت تراها أشبه بالهجرة من مكة إلى المدينة وكان لك في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هاجر وانتصر اسوة حسنة ... لقد كنا ونحن في المنفى السحيق نتابع بطولة الشعب الذي جند نفسه لفدائك وكنت لا تشك لحظة في عودتك الى أمتك ووطنك).

محمد الخامس: فكرة وعقيدة، ص 250

(وفي انتسيرابي كان علينا أن نعطي انطباعا بأننا قبلنا حياة المنفى والفناها فكنت اتظاهر بمتابعة دراساتي للحقوق بينما كنت في الحقيقة أتولى يوميا بنصح من الملك اعداد الأجوبة عن رسائل كانت تتزايد كل يوم ولم تكن أفئدتنا تفارق وطننا حيث كان العديد من المكافحين المخلصين يتعذبون ويموتون وكما كانت صلابة الملك السجين تغذي المكافحين وتشد من عزائمهم كان الاخلاص الذي يظهره الشعب بمثابة دليل يبرهن على أننا سنربح المعركة الأخيرة).

الحسن الثاني - ملك المغرب التحدي، ص 99

(بثباتك وصبرك وبتضحياتك بسلطانك وعرشك لقنت للمواطنين دروس التضحية والفداء ورسمت لهم طريق الحرية ... فتسابقوا للمقاومة والتضحية ... وبين عشية وضحاها عدت لهاته الأمة وأنت رمز فداها بل أنت مبتدأ التضحية ومنتهاها حاملا في يمناك اليمن والاستقلال وفي يسراك اليسر والاقبال).

محمد الخامس: فكرة وعقيدة، ص 250

(وكان يوم العودة هو يوم الاربعاء السادس عشر من نونبر 1955 يوم حملتنا الطائرة إلى الوطن وكان أبي يجاهد نفسه ليضبط مشاعره وبعد أن سمعني أقرأ آية من كتاب الله تقول (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) طفح وجهه بالابتسام) .

الحسن الثاني - ملك المغرب . التحدي ، ص 103

(ان الظروف التي عرفتها بلادنا قبل الاستقلال وبعده اقتضت منا أن نساهم بحظنا إلى جانب والدنا جلالة الملك محمد الخامس رضي الله عنه وأرضاه في معركة التحرير ودعم الاستقلال المستعاد فقد كتب الله لنا أن نشارك في عهد الحجر والحماية وعهد الحرية والانطلاق بالرأي الصادق الأمين والمساعدة في كل آونة وحين ... كما كتب لنا من قبل أن نقاسم الملك الالمعي الهمام والبطل المقدام طيب الله ثراه وأحسن مثواه أطوار السراء والضراء والتضحية والفداء) .

انبعاث أمة ، ج 16 ، ص 15

بمناسبة العيد الفضي

دولة الإمارات العربية المتحدة

من خلال أقوال صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

كفاح الأجداد وصمودهم :

(عاش الأجداد على هذه الأرض ... التي كانت قطعا وأراضي متفرقة عليها بشر متفرقون وغير متناسقين ولا متكاثفين ... وغير معروفين في العالم ، كان الخليج عموما مجهولا ... وظللنا فترة طويلة من الزمن لا يعرفنا أحد ... وكنا في أمس الحاجة الى لقمة العيش وإلى المال الذي نسير به أبسط احتياجات حياتنا) .

(زايد بن سلطان آل نهيان : مساقط ضوء على حياته وفكره)
دولة الإمارات العربية المتحدة - وزارة الإعلام والثقافة . دجسر 1993 : ص 8 - 23

الحفاظ على الوطن :

(إننا إذا ألقينا نظرة على تاريخ أسلافنا الذين حافظوا على هذا الوطن وحموا ترابه فإننا نكتشف أنهم قد قاموا بهذا العمل الجليل دون أن تكون لديهم إمكانات ... فقد صابروا وصمدوا وحفظوا هذا الوطن لكن بدون امكانات أو مؤهلات وعاشوا يصارعون الجفاف والجوع والحاجة والفقر وصبروا حتى أورثونا هذا الوطن ... فكانوا يكسبون من الغوص كسبا ضئيلا مدة ثلاثة شهور وينفقون ما كسبوه في هذه الشهور على بقية شهور السنة) .

المصدر السابق

الجلاء البريطاني عن الخليج العربي :

(كنا إمارات متفرقة ... متصارعة تختلف أحيانا وتتعاون أحيانا بالتسامح إلى أن جاء قرار بريطانيا بالإنسحاب من منطقة الخليج العربي التفتنا إلى اخواننا نلتمس منهم التعاون فمن أجابنا واعتقد ان هناك فائدة للإتحاد اتحدنا معه ومن كان رأيهم أن الاستقلال أكثر فائدة استقلوا) .

المصدر السابق

الإيمان بالله وبالغد المشرق :

(كانت أحلامي كثيرة وكنت أحلم بأرضنا تواكب حضارة العالم الحديث ولكنني لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا كبيرا ولم يكن بين يدي ما يحقق الأحلام ولكنني كنت واثقا أن الأحلام سوف تتحقق في أحد الأيام).

المصدر السابق

الخطوات الأولى في طريق الإتحاد :

(لقد عشنا الليالي الطويلة قبل خروج الإتحاد الى النور نعاني من الفرقة والتفكك ... لقد أدركنا منذ البداية أن الاتحاد هو السبيل لقوتنا وتقدمنا ... كما أدركنا ان ذلك لا يمكن أن يتم إلا في ظل قيام دولة اتحادية وطيدة الأركان ثابتة الدعائم تعي الماضي بكل عبره وتعيش الحاضر بكل مكتسباته وإشراقاته وتنطلق نحو مستقبل يواكب ركب الحضارة الإنسانية وتتخذ من الإسلام منهجا لسياستها الداخلية والخارجية لبناء الدولة وترسيخ دعائمها والوصول إلى الحياة التي ننشدها ونتطلع إليها إيمانا بقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) .

المصدر السابق

الرواد الأوائل للوحدة في الخليج العربي :

(يتهمني الناس بأنني وحدوي ، هذه تهمة لا أنفيها ، طبعا أنا وحدوي لكنني لا أفرض الوحدة على أحد ... إن تجربتنا الاتحادية كانت نابعة في المقام الأول من الرغبة في زيادة أواصر القربى ومن قناعة الجميع بأنهم أهل ولابد أن يجتمعوا تحت قيادة واحدة ... ان الاتحاد هو طريق القوة وطريق العزة والمنعة والخير المشترك ، والفرقة لا ينتج عنها إلا الضعف، والكيانات الهزيلة لا مكان لها في عالم اليوم ، فهذا حالها عبر التاريخ على امتداد عصوره) .

المصدر السابق

دولة الإمارات العربية المتحدة :

(إن دولة الامارات العربية المتحدة قبل كل شئ نموذج اتحادي خليجي وعربي قائم ومتطور وهي تضع نفسها في خدمة أي تنسيق بين أشقائها في منطقة الخليج العربي ، فكل حركة توحيد في المنطقة هي دعم لاتحاد الامارات ولتجربتنا الاتحادية وتأكيد بأن الخط الاتحادي الذي سرنا عليه هنا هو الخط الذي لا محيد عنه في النهاية لدول الخليج العربية كلها ، ووجودنا في حد ذاته هو دعوة مفتوحة ودائمة للوحدة الخليجية وتوسيعها...

لقد اعطانا الله الخير والثروة ووجهنا واخذ بيدنا لنعمل لأمتنا العمل الذي يجب أن يعمل ... إن ما تم تحقيقه من تقدم ونهضة في البلاد يستحق الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى الذي وفقنا في القيام بواجبنا وأداء رسالتنا لما فيه سعادة الوطن والمواطن ... لم يصبح هذا الاتحاد لأبنائه فقط

وإنما للعرب جميعا وأصبحنا بعون الله وبهذا الاتحاد عضوا فعالا في الأسرة العربية ... فعالا بدعم وفعالا برأي وفعالا بموقف ...

نحن نتطلع دائما الى اتحادنا كنقطة انطلاق نحو الوحدة الأشمل مؤكدين على قوة الروابط التي تجمعنا مع أشقائنا في باقي أجزاء الوطن العربي الكبير ...

إن خير اتحاد الإمارات العربية المتحدة امتد إلى الأمة العربية والإسلامية ليساهم في التخلص من التخلف ويزيد سرعة عجلة التنمية الوطنية) .

المصدر السابق

من المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية :

(إن سياسة دولة الإمارات العربية المتحدة بالنسبة للخليج تقوم على الإيمان الراسخ بأن هذه المنطقة يجب أن تكون منطقة سلام بعيدة عن الصراع العالمي ، وإن تحقيق هذه الغاية يتطلب زيادة التنسيق والتعاون المشترك بين دول المنطقة للوصول إلى صيغة واقعية وسليمة للتعاون المنشود في مختلف المجالات...

إن التعاون بين دول الخليج العربية واجب قومي والتعاون بين جميع الدول العربية الأخرى ضروري لاستقرار الأمن والسلام ... إننا ننبذ سياسة الاحلاف العسكرية والتكتلات الدولية وإن أهم ما يجب أن نحرص عليه هو تقوية العلاقات القائمة على حسن الجوار والاحترام المتبادل) .

الدكتور محمد رشيد الفيل : الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ص 240 - 241

مجلس التعاون الخليجي :

(إن القيمة الحقيقية لمجلس التعاون لتتجسد أساسا في كونه تتويجا لفترة طويلة من الجهود المتواصلة والمخلصة عبر السنوات الماضية التي بذلتها دول المنطقة لبلورة أوجه التعاون والتنسيق فيما بينها وتثبيتها وتعزيزها حتى أصبح وجود هذا المجلس أمرا طبيعيا ومنطقيا.

إن مجلس التعاون الخليجي ليس منظمة إقليمية مستقلة عن الوطن العربي بل إنه سيعزز التضامن العربي وسيزيد الدعم للجهود العربية ... فقوتنا هي للعرب وتكتلنا في سبيلهم) .

المصدر السابق ص 285

الدعوة إلى التضامن والتآزر العربي :

(إذا لم ينصر العربي أخاه العربي الذي تجمعه به رابطة الدم والمصير الواحد فمن سينصره ؟

إذا توحد العرب الا يكون ذلك عودة لمجد الأمة العربية السابق فينعم به أبناء هذا الجيل ... يجب أن نتابع السعي لتحقيق آمالنا الكبيرة في التضامن والتآزر ومناصرتنا لبعضنا بعضا) .

جريدة (الاتحاد) الاماراتية يوم 1995/12/4

الماضي مفتاح الحاضر :

(يجب على الشباب أن يتتبعوا ويسألوا عن التاريخ ويراجعوه ... حتى يعلموا ماذا مر بهذا الوطن .

إنني اومن بأن من لا يعرف ماضيه فهو حتما لا يعرف حاضره)

دولة الامارات العربية المتحدة : وزارة الاعلام والثقافة (دجبير 1993) ص 8-23 .

ماضاع حق وراءه طالب :

(ان ما وصلنا الى ما نحن فيه الآن جاء بعد عمل شاق وجهد لم يتوقف ليل نهار وصبر ومعاناة وواجهنا ظروفا صعبة وأطماعا كثيرة في الأرض وما عليها ، وبفضل الله وعونه واجهنا كل هذه المصاعب والاطماع ولم تبق الا قضية الجزر الثلاث وإن شاء الله سيرجع الحق) .

المصدر السابق

(إن ايران لا تريد أن تعطي الحق لاصحابه ... لقد اعتدوا علينا ... إذا لم تقبل إيران الذهاب إلى محكمة العدل الدولية فهذا دليل على أن الحق ليس بجانبها ... الحق معنا ... والجزر باقية حيث هي ... ولن يستطيع أحد أن ينقلها من مكانها وحقنا موجود) .

جريدة (الاتحاد) الاماراتية يوم 1995/12/4

(إن شعوب ودول المنطقة العربية تتطلع إلى الأمم المتحدة للقيام بدور أكبر لمعالجة المشاكل والظواهر التي نجمت عن الصراعات والحروب العديدة التي عانت منها خلال العقود الماضية وإيجاد الحلول لها من أجل تحقيق آمالها وتطلعاتها في تحقيق السلم والعدل والتنمية والاستقرار وفي هذا السياق فإن الاحتلال الإيراني لجزرنا الثلاث يسبب تهديدا مباشرا لأمن المنطقة بصفة عامة ودولة الامارات العربية المتحدة بصفة خاصة) .

(من كلمة لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان أمام الأمم المتحدة بمناسبة ذكراها الخمسين) .

المصدر السابق يوم 1995/10/24

تقديم

تسعى مجلة «التاريخ العربي» إلى أن تجعل من نفسها ندوة مفتوحة، يلتقي فيها الجاد من أقلام مفكري هذا الوطن وباحثيه، وتتوخى أن تكون ديوانا متجددا لتسجيل حاضر الأمة واستحضار ماضيها، ورحابا يتسع لعلوم الإنسان وإبداعه الفني.

وعلى الرغم مما يصحب كل بداية من وقوف دون المبتغى فإن المجلة في عددها الأول لتزخر بأبحاث التزم أصحابها بالصرامة العلمية في إعدادها، وعدم الترخص في شروط البحث الرصين. بحوث على كثرة موضوعاتها وتنوع القضايا التي تعالجها تلتف حول محاور تجمع بينها وتوحد مراميها.

لم يكن من شأن الانشغال ببعث القيم التاريخية للوطن العربي أن ينسي المجلة الاهتمام بوضعيته الراهنة، لصيانة رقعته، وتدبير موارده، ونشر ثقافة أهله. ومع التركيز على شؤون هذا الوطن الكبير فإن أبحاثا سايرت امتداده التاريخي إلى الأندلس.

للكتابة التاريخية أكثر من وظيفة، منها استخلاص العبرة من الماضي لحل المشاكل المستعصية على الحاضر، من هذا المنظور لم يكن القصد من مقال «رضيت أن أفتح القدس وأعمى» أن يقف الباحث عند إبراز جوانب من حياة صلاح الدين بوصفه سلطانا استصغر الدنيا بالإعراض عن مباهجها واسترخص حياته وبصره من أجل فتح القدس، وإنما سعى إلى أن يجعل من حياة صلاح الدين قدوة تنهض الهمم، وتنير الطريق لاسترداد حق المسلمين الذي أخذ يضيع في القدس الشريف.

ومن وظائف التاريخ تجريد الثوابت التي توحد أجزاء القطر، وأقطار الوطن، وكيان الأمة. ومن ثوابت استرجاع الأجزاء المقتطعة من القطر

الاحتكام الى سلطة القانون وشرعيته، وهو أسلوب حضاري يبرر توجه البحث إلى الكشف عن السند القانوني الذي يدعم أسانيد أخرى ، تاريخية وجغرافية وسياسية ، تثبت مجتمعة أحقية الإمارات العربية المتحدة في جزرها الثلاثة : أبو موسى ، وطنب الكبرى وطنب الصغرى.

ومن الأصول التي تزيد في تمتين الروابط الجامعة لأقطار الوطن العربي الصعود بأواصر القرابة إلى أقدم العصور التاريخية ، ولإبراز مظاهر هذه القرابة المتوغلة في الأزمنة الغابرة اعتمد الباحث منهجية التاريخ اللغوي ، (كما وصفت في موضعها من هذا العدد) وتوصل ، مما أثبت من التشابه اللفظي والدلالي بين كلمات تنتمي إلى لغات متغايرة ، إلى تشخيص وحدة ترابية واجتماعية ، كما أصل القرابة السلالية من خلال ما أثبته من التبادل التجاري المبكر بين غرب الوطن العربي وشرقه.

ومن عناصر الوحدة التي تقوي الروابط من خارجٍ لجوءُ دهاقنة الاستعمار الأروبيين إلى تزييف تاريخ الأمة العربية الإسلامية وتشويه حضارتها ، وهم في ذلك لا يفرقون بين زيد وعمرو ، وإذا جاء البحث في أثر الاستعمار علينا مسرداً لما قيل فينا فللإمعان في الكشف عن حقيقة واحدة لا تتبدل وهي أن للكبار حقا في ثروات الصغار ، وأن إثبات مشروعية هذا الحق بالتزييف والتزوير من واجب كبار المفكرين ، وضمان الانتفاع منه بالضغط السياسي والغزو العسكري مهمة القادة السياسيين . من الشواهد الحالية على ثبوت تلك الحقيقة التهافت الذي تظهره إسرائيل على الماء واستيلاؤها على مصادره الواقعة في البلاد العربية للحصول على المزيد منه.

إن تدبير الماء في الوطن العربي ليبدو ضرورة حيوية ، وذلك لكثرة ما يقدمه البحث في مستقبل الموارد المائية من عناصر تزيد باستمرار في

نقص مصادره وتهدد بعضها بالنضوب . ولتصور المشكل بوضوح يكفي استحضار موقع الوطن العربي في حزام جاف أو شبهه، وشح أمطاره ، والتسرب ، والتبخر ، والتملح ، والهدر ، والتلوث ، وتصاعد وتيرة الطلب، ووقوع بعض الموارد المائية خارج البلاد العربية . بإضافة هذه الأسباب ، وغيرها مما بقي في المقال ، إلى الكثير من المشاكل السياسية يتأكد مبدأ أن لا محيد عن وحدة الموقف العربي من مورد الماء .

يستشف من بحث التاريخ وأنماط حضوره في فكر الحسن الثاني مقدمة مفادها ؛ أن كل علم غايته العمل ، وغاية التاريخ ، بوصفه أحد الحقول المعرفية ، تمكين من يحسن الإصغاء إليه من تحصيل حكمة التدبير التي يسترشد بها لتعيين ما يجب عمله في كل باب . عملا بهذا الأصل كان التاريخ بأنماطه الثلاثة درسا دائم الحضور في فكر الحسن الثاني ، منه استخلاص صواب الفكرة ، وبه اجتناب عثرة الرأي ، وعليه بناء الدولة المؤسسة على مقومات المتحضر من الأمم ، والمنسجمة مع منظور شريعة الإسلام للفرد والمجتمع.

لقد نشّأ الإسلام الفرد تنشئة الجماعة ، وكفلها بحقوق الفرد على المجتمع وبواجباته نحو الله والجماعة والنفس ، وقيد كل ذلك بضوابط الاعتدال والتوازن . وإن إصلاح المجتمع ليترتب عن إعداد أفراده إعدادا صالحا ، وصلاح الفرد بإعداد أمه . وهكذا حفظ الإسلام للمرأة كرامتها وصان عفتها حتى تنهض بوظيفتها في إعداد الخلية الأولى في المجتمع ، وتتولى ، بجانب الأب ، مسؤولية تربية الولد روحيا وجسميا ، إذ العناية بهذين الجانبين من الشخصية تنشئ طفلا سويا متزنا ، وتثمر شبابا قوي العزيمة قادرا على تخطي المصاعب . لكن التربية ، كما ثبت في بحث المنهج التربوي ... لا تكتمل بغير العلم الذي بابه السؤال ، وحفازه الشك.

للوصول إلى اليقين بتخليص السليم من السقيم لجأ ابن سلام إلى الشك المنهجي. بعد أن سرد وحصر الأسباب الداعية إلى وضع الشعر وعزوه إلى غير قائله أقام معايير يلزم عن مراعاتها في الدرس الأدبي تخليص شعر الشاعر من الموضوع عليه المنسوب إليه، واقتراب الأحكام النقدية من الصدق. ومن أسباب الوضع في بحث «موقف ابن سلام من الشعر الموضوع» اختلاق الشاهد من الشعر لدعم رأي في اللغة.

إن فرع اللغويات التاريخية لم يستطع أن يواكب التطور الهائل الذي عرفته سائر علوم اللغة العربية، ويرجع السبب في ذلك إلى اهتمام مفكرين بالتأريخ للحياة الثقافية والاجتماعية للغويين العرب بدل العناية برصد أفكارهم النحوية بدءا من نشأتها إلى حين استقرارها على إحدى الصور المحتملة. إن هجرة الأنظار والتحاليل اللغوية وانتقال الألفاظ المعجمية من معنى متروك إلى غيره المستعمل، وتطارد آراء النحاة على اختلاف ألسنتهم أو عصور تفكيرهم ليعتبر من صميم البحث في اللغة تاريخها الذي لا ينبغي إهماله.

امتداد الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا خلف بالأندلس إرثا ثقافيا وعمرانيا، وترك طائفة من المسلمين كتموا دينهم خوفا من الإحراق أحياء. وقد ميزوا أنفسهم باسم المورسكيين، واختصوا بلسانهم المعروف باسم العجمية، وهي لغة يأتي بعد قليل التعريف بنمطها في مقال خاص بها. كلما ثار المورسكيون ضد الظلم وجهروا بدينهم الإسلام أسكتهم النصارى من الإسبان بالإحراق، والطرد الجماعي إلى الشواطئ المغربية. ومع ذلك لم تقو ملة الكفر على اقتلاع جذور الإسلام الضاربة في عمق الأرض الأندلسية، يشهد على ذلك التزايد المستمر حاليا في عدد الجمعيات والمنظمات والمراكز الإسلامية بالأندلس.

وعلى النقيض مما جاء في بحث «الإسلام في إسبانيا» فإن الدولة الإسلامية على مر عصورها بالأندلس هيأت للنصارى واليهود ولغيرهم كل أسباب الاطمئنان على الأنفس والأموال، فازداد عدد الصقالبة ونالوا الحظوة والنفوذ، إذ ارتقوا إلى أعلى المراكز في هرم الدولة، وعاشروا الأعيان والأمراء في القصور. وكذلك كان شأن اليهود إذ تولى العديد منهم المهام الجسام في جهاز الدولة، وأصبح بعضهم يحكم بواسطة ولاة الأمور الشرعيين، وجلهم يستبيح أموال الرعية من المسلمين. وإن الحديث ليطول بذكر الجزء اليسير من مظاهر حرية الذميين ومختلف مكونات المجتمع الأندلسي الذين تظاهروا على المسلمين إبان محنهم للتعجيل بنكبتهم.

كشف بحث الأعجمية الموركسية عن كون هذه اللغة تولدت بفعل التداخل اللغوي بين الإسبانية والعربية، تداخل يظهر في مختلف المستويات اللغوية، من أصوات ومعجم وتركيب، ويبرز أكثر فيما خلفه أهلها من كتابات إسبانية اللغة عربية الخط. وقد طبعت الأعجمية الموركسيين بشخصية متميزة، تدين بالإسلام، وتقوي في النفوس أصول الشريعة عن طريق ترجمة القرآن الكريم والحديث الشريف إلى لغتهم الأعجمية، فعمت بها الفائدة وحفظ الكثير من التراث الإسلامي بالأندلس، كما تشهد الوثائق.

مجلة التاريخ العربي في عددها الأول هذا لم تغفل التعريف بالحركة المعاكسة، فقدمت، من خلال ندوة العدد، لمعاً تعرف بمنطقة الخليج العربي عبر العصور. وكان السند ما تركه الرحالة والمبعوثون من أوربا والغرب الإسلامي إلى منطقة الخليج من وثائق وكتابات تصور بدقة وأمانة أوضاع هذه المنطقة اقتصاديا واجتماعيا، وتشخص آثار الوجود البرتغالي

والبريطاني والأوربي بالخليج ، أو تكشف بصفة عامة عن مخلفات الأطماع الغربية المرتبطة بالنفط . وقبل أن تختم المجلة بديوانها عرفت بندوات ومؤلفات تشد اهتمام القارئ والله الموفق.

اللجنة العلمية

رضيت أن أفتح القدس وأعمى

(صلاح الدين الأيوبي)

الدكتور عبد الكريم كريم
كلية الآداب - الرباط

أولى صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام عناية خاصة جعلتها تستعيد مكانتها المتميزة ودورها الطلائعي في تاريخنا العربي والإسلامي : فقد اتخذ دمشق عاصمته الأولى وجعل بلاد الشام منطلقا لتحركاته الهادفة إلى توحيد الصف الداخلي من الفرات الى النيل ، وعندما واتته الفرصة المناسبة واجه الغزاة المحتلين في معركة حطين الفاصلة التي كان من نتائجها فتح القدس وتحرير الأرض وعتق الإنسان والحفاظ على التراث والوجود والكيان .

× × ×

كانت بلاد الشام عام 1175/570 قسمين : إسلامي وفرنجي :

الشام الفرنجي : المنطقة الساحلية من انطاكية شمالا حتى الداروم والعقبة جنوبا وقد مضى على احتلالها نحو الثمانين عاما .

الشام الاسلامي : مجموع البلاد الداخلية (فكانت مقدمة لملك الشام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا) (1) .

---

1 - أبو شامة المقدسي : كتاب الروضتين ج 2 ص 170 .

وحسب الرسالة التي أرسلها صلاح الدين من مصر الى الخليفة في بغداد فإن أوضاع الشام الإسلامي بعد وفاة نور الدين عام 569 قد اضطربت (وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء وإن كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمع إليه طالب وساءت السيرة وخبثت السريرة) (2) .

وهذه الصورة عكسها الرحالة المغربي المعاصر ابن جبير (وهذه البلاد لسلاطين شتى كملوك الطوائف بالأندلس ... فلا تسمع إلا القابا هائلة وصفات لدى التحصيل غير طائلة ... ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق أو اتصف بصفة هو بها خليق) (3) .

رسم صلاح الدين في نفس رسالته الى بغداد الخطوط العريضة للسياسة التي يسعى إلى تحقيقها في بلاد الشام (إن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر ان لم نجرد العزم لقلعه ، والا نبتت عروقه واتسعت على المسلمين خروقه ... وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده .. واستنقذنا أسيرا من المسجد الأقصى الذي أسرى الله إليه بعبده) . (4)

وفي أواخر ربيع الأول لعام 570 دخل صلاح الدين دمشق (فخرج كل من بها من العسكر ونزل بدار والده ... وأكثر الشعراء في أخذ دمشق ... وقال القاضي الفاضل : ملكنا دمشق عناية لا عنوة) . (5) .

فرضت ظروف الاحتلال للجزء الغربي من بلاد الشام ظهور القائد

---

2 - ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . ج 2 ص 25 .

3 - رحلة ابن جبير : ص 167 .

4 - مفرج الكروب : ج 2 ص 25 .

5 - أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب . ص 85 .

المحارب الـذي يجعل الحـرب المحور الأساسـي للحيـاة في جميع مظاهـرها ويسخر كل الإمكانات البشرية والمادية والمـعنوية لتوحيد الصف الداخلي استعدادا للمعركة الفاصلة ضد المحتلين :

- في تكوين الإنـسـان الواعي المؤمن بقضيـته المستعد للتـضحية في سبيلها (في عسكري عشرة آلاف .. لقلب كل واحد صلاح الدين) . (6) .

- في جعل المجـتمع معسكرا جمـيع أفراده جنود على أهبـة الاستعداد الدائم (كنت قـد جمعت له كتابا في الجهـاد بدمشق مدة مقامي فيـها بجمع أحكامه وآدابه فقدمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته) (7) .

- في إقـامة التحـصينات الـعسكريـة للدفاع وحـماية الطـرق وإقرار الطـمأنيـنة (كـانت الحصـون في غايـة الوثـاقة والحسـن بباب حـديد عـلى سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها) . (8)

-في الحرص علـى أن تستمر لبـلاد الشام أهميتهـا الستراتيجـية في تجارة التـوابل الدولـية بـاعتبـار عائداتـها كمـورد أساسي لـلإنفـاق على المجـهود الحربي (استـفرغنـا عليهـا بيوت المال وأنـفقنا فـيها أعمـار الرجال وقرعـنا الحديد بالحديد الى أن ضجت النصال) (9) .

قام صـلاح الدين فـي الفـترة (570-582) بمسـيرات جهـادية نـصب خلالها خيمته على صهوة جواده :

- لتوحيد الصف الداخلي : ومن أبرزها :

في عام 570 التي فتح خلالها حمص وحماه وبعلبك

---

6 - شفاء القلوب . ص 152.

7 - ابن شداد : النوادر السلطانية . ص 86 .

8 - ابن جبير . ص 76 .

9 - القلقشـدي : صبح الاعشى . ج 7 ص 340 .

ومسيرة عامي (578-579) لفتح بلاد الخابور ومدينة حلب :

(رأيت السلطان صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه بين يديه وقوسه وتركشه معلق في عمود الخيمة . فلما رأيته وقع في خاطري أنه منصور لأني قد فارقت أصحابي وهم على طنافس الحرير والحبول تعمل وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع من المحرمات فأديت الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العسكر بصوت الأذان وفي كل خيمة إمام) (10)

- لمواجهة الخصوم في معارك حربية :

انهزم في بعضها : (وقعة الرملة) في عسقلان عام 573 (وتمت الهزيمة على المسلمين وكانوا زيادة على عشرين ألفا ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد) (11)

وانتصر في الأخرى (خرج السلطان وشن الغارات على بلاد الفرنج فطلع عليه عدة من ملوكهم فنصر الله المسلمين على مرج العيون في ربيع الأول 575 (12)

ومن مناوشاته : غاراته عام 578 ضد طبريه وبيسان وجنين والغور .

وضد الكرك ونابلس عامي 579 و 580 .

كما قام بمسيرات لتفقد مناطق بلاد الشام منها رحلته عام 582 .

من المعاناة التي تحملها صلاح الدين في سبيل توحيد بلاد الشام :

---

10 - ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج 8 ص 333

11 - شفاء القلوب . ص 93 .

12 - شفاء القلوب . ص 25

- (لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا لأمر يريده الله) (13)

- (إن السلطان وصل قبل العصر وأصحابه في تعب وعطش فألقوا أنفسهم على الأرض وليس فيهم حركة) (14).

- (قطع السلطان الفرات ... فمرض مرضا شديدا .. وارجف بموته) . (15).

اما مدى تجاوب العامة مع جهوده ، فعند فتحه حلب :

- (وفي زمان بني أيوب غدت حلب   من أرض مصر وعادت مصر من حلب) (16)

- (وفتحكم حلبا بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب) (17)

- عند حصاره حارم حاول حاكمها الاستنجاد (بالفرنج فوثب عليه أهل القلعة وسلموها الى السلطان) (18) .

- في مكة المكرمة كان الحجاج كلما سمعوا (دعاء الخطيب لصلاح الدين الأيوبي ارتفعت الأصوات بالتأمين ... لما وهبه الله لهذا السلطان العالم من الثناء الجميل وألقى عليه من محبة الناس) . (19)

وعندما أصبحت الظروف مساعدة واجه صلاح الدين خصومه في معركة حطين : (التقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي يوم الخميس ثاني عشرين ربيع الآخر وحال الليل بين العسكرين فباتا على مصاف الى

---

13 - شفاء القلوب . ص 94 .

14 - شفاء القلوب . ص 91 .

15 - شفاء القلوب . ص 116 .

16 - المصدر السابق . ص 106 - البيت للشاعر ابن سناء الملك

17 - المصدر نفسه . ص 106 - البيت للشاعر القاضي محيي الدين بن الزكي .

18 - شفاء القلوب . ص 108 .

19 - ابن جبير : ص 68 .

يوم الجمعة وكان السلطان يقصد لقاء العدو يوم الجمعة تبركا بأدعية المسلمين فتصادموا والتحم القتال وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا - أرض بالقرب من طبرية - .. فلما كان يوم السبت قاتلوا إلى الظهر ثم صعدوا الى تل حطين - قرية بين أرسوف وقيسارية - ... فهلكوا وتساقطوا واحتاط المسلمون بالفرنج من كل جانب ... فاستسلموا ... وجيء بالملوك الأسرى الى السلطان ... فلما رآهم نزل وسجد شكرا) (20)

وبالنسبة لفتح بيت المقدس (لما فتح الأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد في قصد القدس الشريف ... ونزل عليه يوم الأحد خامس عشر رجب وكان المنجمون قد قالوا له : (تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة فقال : رضيت أن أفتحه وأعمى) (21) .

بعد حصار صلاح الدين لمدينة القدس (استسلم من بها يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج وهذا من الاتفاق العجيب ... وكان فتحا عظيما .. ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد) (22) .

ومما جاء في خطبة الجمعة لابن الزكي :

(يأيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدوحة العليا لما يسره عليكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام وتطهير هذا البيت الذي أذن أن يرفع ويذكر فيه اسمه ... فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر

---

20 - شفاء القلوب ص 121

21 - المصدر السابق . ص 129 .

22 - المصدر السابق .

الرسل ومهبط الوحي ... وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعث الله منه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ... وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه) (23) .

× × ×

من مدينة القدس قصد صلاح الدين دمشق التي وافاه الأجل بها (يوم الأربعاء سابع عشرين صفر بعد صلاة الصبح) (24) عام 589 هـ / 1193 م.

كتب القاضي الفاضل على قبر البطل صلاح الدين :

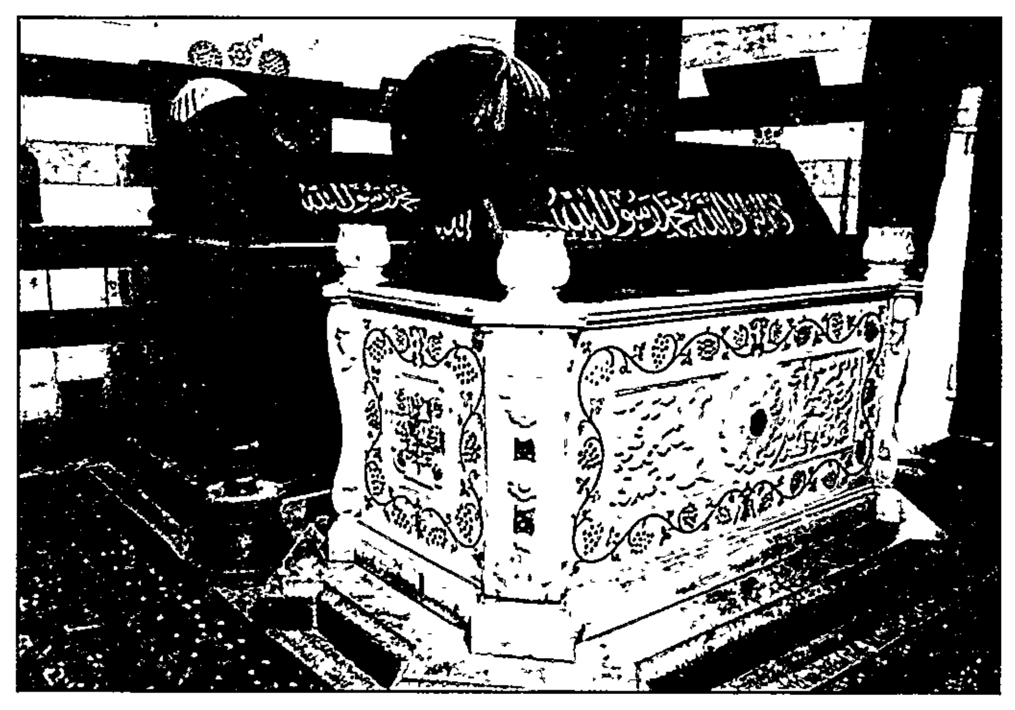
(اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح) (25)

---

23 - المصدر السابق . ص 130

24 - المصدر السابق . ص 181 .

25 - المصدر السابق . ص 182 .



صورة قبر صلاح الدين بدمشق

قف باحترام أمام مرقد بطل الإسلام العظيم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب شادي .

ولد رحمه الله في قلعة تكريت سنة 532.

استتب له الملك والسلطان على مصر والشام نحو العشرين سنة إلى أن توفي بدمشق سنة 589 ودفن بالقلعة ثم نقل إلى هذه البقعة التي تفتخر بضم تخاليده رحمه الله وأجزل ثوابه وإلى جانبه ضريح وزيره عماد الدين) .

الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر العربية الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة

المستشار عبد الوهاب عبدول
قاضي بالمحكمة الاتحادية العليا - أبو ظبي

مقـــدمـــة :

في الساعة الثانية والنصف من صباح يوم 1971/11/30 اجتاحت القوات البحرية الإيرانية - قبل ساعات فقط من إعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة وإنهاء معاهدة الحماية البريطانية لمشيخات ساحل عمان ، الحدود البحرية الدولية لامارتي الشارقة ورأس الخيمة اثر هجوم مسلح غازية ثلاث جزر عربية في الخليج العربي هي : - أبو موسى ، طنب الكبرى وطنب الصغرى ومعلنة إحتلالها (استرجاعها الى الوطن الأم بعد أن اقتطعتها بريطانيا قبل ثمانين عاما كما جاء في الخطاب السياسي الإيراني) ،

وقد أثار الإحتلال الإيراني للجزر الثلاث ردود فعل عربية محلية واقليمية على المستويين الرسمي والشعبي تمثلت في إصدار العديد من بيانات الشجب والاستنكار ، واندلاع المظاهرات في معظم عواصم العالم العربي ، فضلا عن تحرك دبلوماسي تمثل في تقديم شكوى الى مجلس الأمن الدولي والجامعة العربية .

ولحد الآن ، ورغم مرور أكثر من ثلاثة وعشرين عاما على احتلالها ، فلا زال ملف هذه المشكلة مفتوحا ودون حل ، وقد أثبتت الأحداث أن مثل

هذه المشاكل تكون دائما مصدر تهديد خطير للأمن والسلم الدوليين . فالإدعاءات الإيرانية في شط العرب أدت الى حرب ضروس بين العراق وإيران استمرت ثمانية أعوام (حرب الخليج الأولى) والادعاءات العراقية في الكويت أدت الى اجتياح العراق للكويت واحتلالها وما ترتب على ذلك من نتائج وخيمة أبرزها اندلاع حرب دولية في الخليج العربي (حرب الخليج الثانية) .

ورغم أن الحكومة الإيرانية قدمت عدة تبريرات يستند بعضها على التمسك بفكرة الحق التاريخي ، ويستند بعضها الآخر على مقولة الاعتداد بالمصالح ذات الطبيعة السياسية سعيا منها لإضفاء المشروعية على احتلالها ، الا أن تبريراتها ظلت عاجزة عن أن تقدم أساسا صالحا يمكن الإرتكاز عليه لإضفاء المشروعية على احتلالها .

وبالمقابل فإن دولة الإمارات تؤسس حقها في استرجاع جزرها المحتلة على أسانيد تاريخية وسياسية وجغرافية وقانونية تقطع جميعها بعروبة الجزر وتبعيتها الواقعية والقانونية لها . ولما كان تناول كافة هذه الأسانيد بالشرح والتحليل والتعقيب يقتضي من الباحث فيها معرفة تامة بأحداث التاريخ ووقائعه وخفايا السياسة ومجاهلها ، ومعطيات الجغرافية وحقائقها ، وفقه القانون وحكمه وهو ما لا ندعيه ومن ثم فإن الحديث في هذه الورقة سيقتصر على شرح موجز - بقدر المعلومات المتواضعة لمعد هذه الورقة - عن الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة لما لهذه الأسانيد من أهمية عملية في النزاع القائم بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة حول الجزر الثلاث .

بيد أنه وقبل الولوج في بيان الأسانيد القانونية ، فإنه من المستحسن

التعرض ولو بشئ من الإيجاز للموقع الجغرافي للجزر العربية الثلاث وأهميتها الاستراتيجية ، وذلك بغية الوصول الى فهم أفضل لطبيعة النزاع من جانبه الاستراتيجي .

I - الموقع الجغرافي للجزر العربية الثلاث

1 - جزيرة أبو موسى :

وهي إحدى الجزر التابعة لإمارة الشارقة ، (امارة الشارقة إحدى الإمارات الأعضاء في الاتحاد) . تقع جزيرة أبو موسى على بعد (94) ميلا من مدخل الخليج العربي (مضيق هرمز) قبالة ساحل إمارة الشارقة ، وتبعد عن مدينة الشارقة على الساحل الغربي للخليج العربي بحوالي (45) ميلا تقريبا و (50) ميلا تقريبا عن الساحل الشرقي للخليج .

والجزيرة ذات شكل طولي تبلغ مساحتها حوالي (35) كيلومترا مربعا. يتكون سطح الجزيرة من سهول منخفضة خالية من الأشجار عدا بعض المساحات القليلة التي تتواجد قرب آبار المياه العذبة . ويوجد على أرض الجزيرة مرتفع ذو صخور بركانية يزيد ارتفاعه عن (500) قدم .

تمتاز الجزيرة باعتدال مناخها صيفا ودفئها شتاء ، حيث تهطل عليها الأمطار في فصل الشتاء فتنبت فيها الأعشاب الصالحة للرعي . تحتوي أراضي الجزيرة على معادن كثيرة أهمها البترول واكسيد الحديد الأحمر وكبريتوز الحديد.

كما تمتاز الجزيرة بعمق المياه المحيطة بها ليتيح فرصة جيدة لصيادي الأسماك من الاصطياد بها ، حيث يبيعون ما يصطادونه ، إما للسفن

العابرة للجزيرة أو في أسواق الشارقة ودبي وأبو ظبي .

يقطن الجزيرة حوالي ألف وسبعمائة نسمة جميعهم من العرب الأصليين الذين ينتمون الى القبائل العربية في الساحل الغربي ، ويعمل معظمهم في مجال الصيد والنقل البحريين ، والى جانب سكانها الأصليين يسكن الجزيرة بعض أبناء الدول العربية الذين يعملون في مجال التدريس والصحة ، وبعض الأسيويين الذين يؤدون أعمال خدمية ، وفي السنوات الثلاث الأخيرة شجعت إيران موظفيها في الجزيرة على استقدام عائلاتهم للسكن والإقامة فيهما .

2 - جزيرة طنب الكبرى :

وهي إحدى الجزر التابعة لإمارة رأس الخيمة ، وتقع هذه الجزيرة على مدخل مضيق هرمز الى الشمال من جزيرة أبو موسى و وتبعد عنها حوالي (50) كيلومترا ، وتبعد عن رأس الخيمة بمسافة (75) كيلومترا وعن الساحل الشرقي للخليج مسافة (50) كيلو مترا ، تبلغ مساحتها حوالي (20) كيلومترا مربعا .

تمتاز الجزيرة بسطحها المنبسط ، وتوفر المياه العذبة والمراعي فيها .

وقبل احتلالها كان يسكنها حوالي سبعمائة شخص من العرب الذين ينحدرون من قبائل تميم وحريز ، وقد قامت إيران بتهجيرهم قسرا الى رأس الخيمة .

تتوفر الجزيرة على معدن النفط ، وتوجد فيها بعض الأجهزة الخدمية كالمدارس والعيادات ومركزا للشرطة وفنارا لارشاد السفن العابرة للخليج أقيم عليها عام 1912 بموافقة حاكم رأس الخيمة آنذاك الشيخ سالم بن

سلطان القاسمي .

3 - جزيرة طنب الصغرى :

وهي إحدى الجزر التابعة لامارة رأس الخيمة أيضا ، تقع هذه الجزيرة عند مضيق هرمز على بعد (10) كيلومترات غرب جزيرة طنب الكبرى ، تقدر مساحتها باثني عشر كيلو مترا مربعا .

تبعد جزيرة طنب الصغرى عند الساحل الشرقي للخليج العربي حوالي (45) كيلو مترا ، وعن الساحل الغربي حوالي (81) كيلومترا . تتكون أراضيها من تلال صخرية داكنة اللون تقع في أطرافها الشمالية .

والجزيرة مجدبة وغير مأهولة بالسكان نظرا لعدم توفر المياه العذبة فيها ، يلجأ اليها الصيادون عند اشتداد الرياح وتشير التقارير الأولية لبعثات التنقيب عن النفط الى وجود كميات كبيرة من هذا المعدن فيها .

II - الأهمية الاستراتيجية للجزر العربية الثلاث

تستقي الجزر العربية الثلاث أهميتها الاستراتيجية من الأهمية الاستراتيجية للخليج ذاته . فعبر بوابة هذا الخليج (مضيق هرمز) يمر 86 % من صادرات نفط الشرق الأوسط الى العالم الصناعي ، ومن دوله تستورد الولايات المتحدة الأمريكية ما يزيد على 60 % من حاجتها من النفط ، واليابان 90 % من احتياجاتها النفطية ، كما تستورد أوروبا الغربية ما يعادل 60 % من احتياجاتها البترولية . وتختزن دوله في باطن أراضيها أكبر مخزون نفطي في العالم .

وعبر هذه البوابة تصل الى دول الخليج أكثر من 45 % من صادرات

الدول الصناعية ، فضلا عما يمثله موقع الخليج الجغرافي كمنطقة التقاء لطرق المواصلات البحرية بين آسيا وافريقيا وأوروبا .

ووسط هذه المعطيات تأتي الأهمية الإستراتيجية للجزر الثلاث . فبحكم موقعها الجغرافي في الخليج تتحكم هذه الجزر في الممرات الملاحية الدولية في الخليج العربي المحددة من طرف المنظمة البحرية الإستشارية بين الحكومات (الامكو) فقد حددت هذه المنظمة الممرات الملاحية في الخليج العربي في ثلاث مناطق هي : 1 - منطقة مضيق هرمز ، 2 - منطقة جزر الطنب فارور 3 - منطقة رأس تنورة .

تقع المنطقة الثانية في الجهة الجنوبية للخليج العربي باتجاه غرب مضيق هرمز ، وتمتاز بكثرة جزرها وأهمها جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى وصري وفارور ، إضافة الى عمق مياهها وكثافة حركة الملاحة فيها وازدحامها ، ولذلك فقد رسمت (الامكو) خطين لمرور السفن فيها يقع الخط الأول في الشرق ويتجه نحو الخليج العربي ، بينما يقع الخط الثاني في الغرب ويتجه خارج الخليج العربي ، وقد أنشأت (الامكو) ممرات ملاحية في الخطين المشار إليهما .

وبسبب كثافة حركة الملاحة في المنطقة الواقعة بين مدخل مضيق هرمز وحتى جزيرة فارور ، فإن الملاحة فيها تخضع للقواعد التي وضعتها منظمة (الامكو) ، وبموجب هذه القواعد فهناك مسار للسفن الداخلة إلى الخليج ويحاذي هذه المسار الساحل الإيراني ، ومسار آخر للسفن الخارجة من الخليج ويحاذي الساحل العربي ، ويبعد هذا المسار الخارج من الخليج شمالا عن جزيرة طنب الكبرى مسافة (6) أميال وعبر جزيرة طنب الصغرى مسافة (5.25) ميل بحري كما يبعد جنوبا عبر جزيرة أبو موسى

مسافة (13) ميلا بحريا ويلاحظ أن جزيرتي طنب الكبرى وطنب الصغرى تشرفان على المسارين البحريين الداخل الى الخليج والخارج منه إذ تقعان في منتصف المسافة الفاصلة بين المسارين ، بينما يشرف الجزء الشمالي من جزيرة أبو موسى على الجهة الجنوبية للمسار البحري الخارج من الخليج ، ولذا فإن معظم القوات الإيرانية التي تحتل الجزيرة اتخذت مواقعها في شمال الجزيرة وذلك لما يمثله هذا الجزء من أهمية استراتيجية كنقطة اشراف ومراقبة على خطوط الملاحة الدولية في الخليج .

فالجزر العربية الثلاث إذن في موقعها هذا أشبه بالصمام الذي يتحكم في الشريان المائي والملاحي الذي يمثله الخليج العربي المرتبط ببحر العرب والمحيط الهندي من جهة الشرق والبحر الأحمر من جهة الغرب .

وبحكم موقعها الجغرافي أيضا فإن الجزر العربية الثلاث صالحة للاستخدامات العسكرية ، وهذا ما فعلته إيران مؤخرا في جزيرة أبو موسى حيث عززت قواتها العسكرية في الجزيرة وزادت اعداد العسكريين فيها من 120 الى 500 عسكري ونصبت قواعد لصواريخ سيلك وروم وأنشأت مطارا عسكريا .

وفي إطار الأهمية الاستراتيجية للجزر ، فإن الجزر الثلاث تتوفر على بعض المعادن والثروات الطبيعية كالبترول وأوكسيد الحديد الأحمر ومصائد الاسماك واللؤلؤ الطبيعي .

III - الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة

دون ما بحث عن الدوافع التي حدت بإيران على المطالبة بالجزر

العربية الثلاث ، ومن ثم احتلالها بالقوة العسكرية في الثلاثين من نوفمبر عام 1971 ، فإن الذي لا خلاف عليها أن عروبة الجزر الثلاث وتبعيتها لقواسم عمان (الشارقة ورأس الخيمة) لم تكن محل إنكار أو اعتراض من جانب الحكومات الفارسية المتعاقبة .

وأول مطالبة فارسية بملكيتها وتبعيتها لفارس جرت في عام 1887 م على أساس أنها من ملحقات إمارة لنجه التي أصبحت منذ هذا التاريخ جزءا من أراضي التاج الفارسي * ، ثم تبعتها مطالبات أخرى لاحقة خلال الأعوام : 1904-1925-1928-1934-1951-1961- 1964 - اقترنت بأفعال عدائية تمثلت في إنزال العلم العربي من الجزر ورفع العلم الفارسي بدلا منه ، وتفتيشها بين الحين والآخر ، واحتجاز مراكب وسفن تابعة لأهالي الإمارات وإجراء المناورات البحرية داخل الجزر وفي مياهها الإقليمية ، وإرسال موظفين إيرانيين إليها لإجراء تعداد سكاني لها ، وإرسال طائرات إيرانية إليها لالتقاط صور لها ... الخ ، وانتهت هذه الأعمال باحتلالها عسكريا عام 1971 ** .. وكانت هذه الانتهاكات تواجه

---

* «لنجة» : إمارة عربية ظهرت على الساحل الشرقي للخليج العربي ضمن إمارات عربية أخرى ، وقد آل أمر الحكم فيها إلى أسرة القواسم منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى سقوطها عام 1887 م . عرف حكامها القواسم ب «قواسم الساحل الشرقي» تمييزا لهم عن أبناء عمومتهم قواسم عمان «الشارقة ورأس الخيمة» .

من أشهر حكام هذه الإمارة القاسمية الشيخ قضيب بن راشد بن مطر القاسمي وابنه الشيخ محمد بن قضيب ، والشيخ سعيد بن قضيب والشيخ خليفة بن سعيد القاسمي وابنه الشيخ علي بن خليفة القاسمي والشيخ محمد خليفة القاسمي .

تولى حكم هذه الإمارة في الفترة (1874-1886) أحد أعيان الأسرة القاسمية ويدعى يوسف بن محمد الذي عين وصيا على الشيخ علي بن خليفة فخان الثقة التي أولتها له الأسرة القاسمية إذ قام باغتيال الشيخ علي غدرا وغيلة ، وحكم الإمارة وفي عهده بدأ التدخل الفارسي في الشؤون الداخلية للنجه ، فكان ذلك بداية النهاية لهذه الإمارة ، وهذا ما دعا الحكومة الفارسية الى القول بأن يوسف بن محمد مؤسس السيادة الفارسية على لنجة وأحد رعاياها .

** الواقع أن أطماع ايران في جزر الخليج العربي لها جذور ضاربة في أعماق التاريخ بيد أنها ظهرت بشكل واضح في عهد الدولة الصفوية وبالتحديد في زمن ناصر الدين شاه الصفوي الذي اتخذ سياسة توسعية نشيطة في الخليج العربي ثم امتدت هذه السياسة التوسعية لتطال الجزر التي كانت تحت السيادة العربية ، فاحتلت جزر الجسم وهنسجان وفارور وقيس وصري ... الخ ، وكانت آخر ثلاث جزر عربية احتلتها إيران عام 1971 هي جزيرة أبو موسى طنب الكبرى وطنب الصغرى في عهد الأسرة البهلوية .

باحتجاجات شديدة من جانب حاكمي الشارقة ورأس الخيمة .

ومنذ إحتلالها ودولة الإمارات العربية المتحدة تسعى جاهدة نحو استرجاعها بكافة الطرق والوسائل السلمية ، وهي في سعيها هذا تنطلق من ثوابت أربعة أساسية هي :

أولا : أن الجزر الثلاث عربية الموقع والتاريخ والثقافة .

ثانيا : انها جزء لا يتجزأ من تراب دولة الامارات العربية المتحدة .

ثالثا : انها محتلة عسكريا من طرف إيران .

رابعا : إن على دولة الامارات واجب استرجاعها بكافة الطرق والوسائل السلمية .

تؤسس دولة الامارات العربية المتحدة حقها في استرجاع جزرها على أسانيد تاريخية وسياسية ، وجغرافيه وقانونية وتقدم الأسانيد القانونية على المحاور التالية :

1 - أسانيد قانونية مبنية على القيمة الاستدلالية للوثائق .

2 - أسانيد قانونية مبنية على القوة الإلزامية لقواعد ومبادئ القانون الدولي

3 - أسانيد قانونية مبنية على الوقائع التاريخية .

4 - أسانيد قانونية مبنية على الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة الاقليمية .

أولا الأسانيد القانونية المبنية على القيمة الاستدلالية للوثائق .

تتوزع الوثائق الى ثلاثة أقسام :

أ - الرسائل : وهي ثلاثة أنواع :

1 - رسائل متبادلة بين قواسم عمان (الشارقة ورأس الخيمة) وقواسم

الساحل الشرقي للخليج (قواسم لنجه) ، وتتضمن هذه الرسائل اعترافات واضحة وصريحة من حكام لنجه بتبعية الجزر الثلاث لقواسم عمان . وتكمن القيمة القانونية لهذه الاعترافات في أنها مبرأة من شائبة الاكراه إذ أنها صدرت من أشخاص ينتمون الى أسرة واحدة في إطار توزيع عائلي للممتلكات دون ما ضغط أو تدخل من جانب السلطات الفارسية أو البريطانية.

وفي هذا الصدد فإن إيران - في إطار تمسكها بفكرة الحق التاريخي كأساس لادعاءاتها بالجزر - تلوح برسائل حاكم لنجه السيد يوسف بن محمد التي بعثها الى الحكومة الفارسية يقر فيها بتبعية الجزر الثلاث لفارس وبذهابه إليها لجباية الضرائب والرسوم من سكانها باعتبارهم من رعايا فارس ، بالإضافة الى رسائل أخرى من حكام عرب آخرين - خلاف حاكم لنجه - يقرون فيها بتبعية الجزر الثلاث لقواسم لنجه والحقيقة إن رسائل يوسف بن محمد لا تقوى لأن تكون أساسا صالحا للإدعاء لما يشوبها من تناقض ولما يعتريها من ضعف ووهن ، ولما أحاط بإصدارها من ظروف سياسية .

أما رسائل بقية الحكام فإنها من الناحية القانونية لا تعدو أن تكون شهادات سماعية لا تصلح لأن تكون دليلا للإثبات أو للاحتجاج .

2 - رسائل متبادلة بين الحكومة البريطانية باعتبارها الدولة الحامية والحكومة الفارسية .

وهي عبارة عن كم وفير من الخطابات والتقارير والمذكرات المتبادلة بين الحكومة البريطانية ممثله في حكومة الهند والمقيم البريطاني في الخليج، والحكومة الفارسية بخصوص النزاع على عائدية الجزر ، وتتميز هذه

الرسائل بصياغاتها الدبلوماسية وبتناولها النزاع من جوانبه القانونية والسياسية والتاريخية ، وهي إن كانت تعبر عن وجهة نظر بريطانيا باعتبارها الدولة الحامية وصاحبة المصلحة في الخليج والحكومة الفارسية باعتبارها الجهة المدعية ، إلا أنها تلقي الضوء على أسس عائدية الجزر لدولة الإمارات ، وضعف أساس الإدعاء الفارسي ، وتغطي هذه الرسائل الفترة بين أواسط القرن التاسع عشر وحتى نهاية ستينيات هذا القرن .

2 - رسائل متبادلة بين حكام الشارقة ورأس الخيمة والسلطات البريطانية في الخليج .

ويشمل هذا النوع من الوثائق الرسائل والخطابات المتبادلة بين حكام الشارقة ورأس الخيمة والسلطات البريطانية في الخليج . وتدور مواضيعها حول الإحتجاجات التي كان يبعثها حكام الإمارتين الى السلطات البريطانية عندما كانت السلطات الإيرانية تقدم على انتهاك سيادتهم على الجزر الثلاث ، ومن أشهرها رسالة الشيخ صقر بن خالد القاسمي المؤرخة 1887/10/16 إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج احتجاجا على احتلال السلطات الفارسية لجزيرة صري التابعة للشارقة .

كما تتضمن هذه الرسائل إستئذان السلطات البريطانية من حكام الإمارتين في إنشاء بعض التجهيزات في الجزر ، أو الإذن بزيارتها ، أو بإجراء مناورات عسكرية فيها .

وتأتي أهمية هذه الرسائل في أنها تكشف عن مظاهر الممارسة الفعلية للسيادة العربية على الجزر الثلاث منذ بزوغ فجر النزاع .

ب - الخرائط : في مجال القيمة الإستدلالية للخرائط يفرق عادة بين أنواع ثلاثة من الخرائط ، فهناك الخرائط الملحقة بمعاهدات الحدود

والنصوص عليها في صلب المعاهدة على أنها جزء لا يتجزأ منها ، وبالتالي فهي ملزمة لأطراف المعاهدة إلزام نصوصها .

وهناك الخرائط الملحقة بمعاهدات الحدود لكن غير منصوص عليها في صلب المعاهدة على اعتبارها جزءا لا يتجزأ منها . وتتمتع هذه الخرائط بقيمة قانونية وقوة إلزامية أقل وأدنى من قيمة وإلزامية معاهدات الحدود ذاتها ، ولهذا ففي حالة حدوث تعارض بين معاهدات الحدود وهذا النوع من الخرائط فإن الفضلية والغلبة تكون لمعاهدة الحدود .

وأخيرا هناك الخرائط التي تصدرها الدول أو إحدى التوزيعات التابعة لها من حين لآخر لأغراض مختلفة . وما لم تكن الدولة مصدرة الخريطة قد قصدت من إصدارها اتخاذ موقف معين في قضية أو نزاع ما فإن هذه الخرائط لا تتمتع بقيمة قانونية أو قوة إلزامية في حد ذاتها ، فهي غير ملزمة للدولة التي أصدرتها ومن باب أولى للدول الأخرى التي تعنيها المعلومات المبنية عليها .غير أن تواتر الدولة على اصدار مثل هذا النوع من الخرائط قد يستشف منها (أحيانا) موقف الحكومة المصدرة تجاه مسألة حدودها ، لأن هذه الخرائط غالبا ما تمثل وقت إصدارها مفهوم تلك الدولة لحدود سيادتها خاصة إذا ما تأيدت هذه الخرائط بوقائع وأدلة أخرى .

ومن المؤكد تاريخيا أن السلطات البريطانية لم تبرم معاهدة لترسيم الحدود البحرية بين إمارات الساحل المتصالح سابقا (دولة الإمارات العربية المتحدة حاليا) وبين إيران ، لكن بعض المؤسسات التابعة لسلطات الحماية أصدرت لأغراض ملاحية أو تجارية خرائط بينت عليها تبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات .

وحتى عام 1780 كانت خرائط دولية كثيرة تشير إلى عروبة الجزر

بل إن الخرائط الصادرة بعد ذلك التاريخ وهي كثيرة أشارت بوضوح في العديد منها إلى تبعية الجزر الثلاث للإمارات . وأبرز مثال على ذلك خريطة أصدرتها شركة خرائط إيرانية عام 1955 أوضحت فيها أن الجزر الثلاث ليست جزءا من إيران بل من أراضي دولة الإمارات .

وفي هذا الصدد تتمسك الحكومة الإيرانية بخريطة أصدرتها البحرية البريطانية في الطبعة الأولى من كتاب «مرشد الخليج (الفارسي) الصادر عام 1875 ظهرت فيهما الجزر الثلاث بذات اللون الذي أعطته هذه الخريطة للأراضي الفارسية .

ورغم أن الطبعات اللاحقة لهذا الكتاب أظهرت الجزر الثلاث بذات اللون الذي ظهرت به أراضي دولة الإمارات ، ورغم اعتراف بريطانيا أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون دليلا للملاحة في الخليج لا لترسيم حدود دولية روغم أن السلوك اللاحق لبريطانيا ناقض ما ورد في الخريطة المذكورة ، إلا أن الحكومة الإيرانية لازالت تتمسك بها كأساس للمطالبة بتبعية الجزر الثلاث لها .

ج - مذكرة التفاهم : بعد سلسلة من التهديدات الإيرانية الواضحة والصريحة باحتلال الجزر الثلاث بالقوة ، وتحت ضغوط بريطانية وعربية ، وتحت ظل وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها إمارة الشارقة آنذاك أبرم حاكمها الشيخ خالد بن محمد القاسمي مذكرة تفاهم مؤقتة مع الحكومة الإيرانية سمحت بمقتضاها بتواجد قوات إيرانية على أجزاء من جزيرة أبو موسى ، وبتحليل بنود المذكرة يتضح أنها ميزت بين الوجودين العربي والإيراني على الجزيرة ، فهي تصف الوضع الإيراني بأنه وضع احتلال عسكري (They will occupy area) وأن القوات الإيرانية

تضع يدها على أراضي محتلة .Area occupied by Iranian troops

أما وصف المذكرة للتواجد الاماراتي فهو وصف سلمي إذ تقول :

(Shrjah will have full jusrisdiction over the remainder of the Island)

وتكمن القيمة الاستدلالية لهذه المذكرة أن بنودها - عند تفسيرها على ضوء الظروف التي تم توقيع المذكرة فيها ، وعلى ضوء مبدإ حسن النية المفترض في تفسير الاتفاقيات - تقطع بأن التواجد الإيراني على الجزيرة انما هو عرض على أصل : فالأصل أن السيادة للإمارات والعرض أن الطارئ هو التواجد الإيراني على الجزء الشمالي من الجزيرة .

ثانيا : الأسانيد القانونية المبنية على القوة الإلزامية لقواعد ومبادئ القانون الدولي

توفر قواعد القانون الدولي ومبادئة المتعلقة بأسس تسوية نزاعات الحدود غطاءا قانونيا يسند حق دولة الامارات العربية المتحدة في استرجاع جزرها المحتلة . ولعل أهم هذه المبادئ :

أ - مبدأ عدم الاعتداد بالأوضاع الإقليمية الناجمة عن استخدام القوة .

يجد هذا المبدأ جذوره في العديد من الاتفاقيات الدولية التي حظرت استخدام القوة في العلاقات الدولية أو التهديد بها .

ومؤدى هذا المبدإ أن أي مكسب إقليمي يكون ناتجا عن استخدام القوة يعتبر باطلا وغير شرعي ، وبالتالي فلم يعد الفتح سببا مشروعا لاكتساب السيادة على الإقليم ، فالباطل لا يكسب حقا .

وبصدور ميثاق الأمم المتحدة ارتقى هذا المبدأ الى مصاف القواعد

القانونية الدولية الأخرى ، إذ يترتب تلقائيا على المادة (4/2) من الميثاق عدم جواز الاعتراف بالتغيرات الاقليمية الناتجة عن استخدام القوة .

والثابت أن إيران بسطت سيادتها وسيطرتها على الجزر باستخدام القوة العسكرية ، ومن ثم فإن تواجدها على الجزر الثلاث إنما هو تواجد احتلالي غير مشروع .

ب - مبدأ تسوية المنازعات الدولية بالوسائل السلمية .

منذ أن بدأ المجتمع الدولي الاتجاه نحو نبذ القوة كوسيلة لتسوية المنازعات الدولية وهو يفتح السبل ويمهد الطرق أمام الدول لحل منازعاتها على نحو لا تضطر معه لاستخدام القوة ، ولا يتعرض معه الأمن والسلم الدوليين للخطر . فقد جاءت الاتفاقات الكبرى التي أبرمت منذ مؤتمرات لاهاي (1899 و 1907) لتبين طرق ووسائل التسوية السلمية لحل المنازعات الدولية ، وقد تم التأكيد على الوسائل السلمية لتسوية المنازعات الدولية في المادة (1/33) من ميثاق الأمم المتحدة . وطبقا لهذه المادة فإن وسائل التسوية السلمية يمكن تقسيمها الى نوعين :

طرق ووسائل دبلوماسية كالمفاوضات والمساعي الحميدة والوساطة والتحقيق والتوفيق ، وطرق ووسائل قضائية كالتحكيم ومحكمة العدل الدولية .

وفي النزاع الحاصل كان مسار دولة الامارات مسارا سلميا يتناسب مع قدراتها واحترامها للقانون الدولي ، فسعت أولا الى طرق وسائل التسوية الدبلوماسية ، لكن التعنت الإيراني أفشل كل سعي دبلوماسي ثم جاءت دعوة دولة الامارات العربية المتحدة على لسان رئيسها صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بعرض النزاع على محكمة العدل

الدولية ، وجاء الرفض الايراني أيضا لهذا الحل لتخوفها من ضعف موقفها القانوني وصعوبة إثبات ملكيتها للجزر الثلاث .

ليس أمام الامارات إلا السعي نحو عرض الأمر على مجلس الأمن الدولي لفرض استصدار توصية برفع النزاع الى محكمة العدل الدولية ، حيث انه لا مجال لحل النزاع سلميا إلا عن هذا الطريق .

ج - مبدأ ثبات الحدود الدولية واستقرارها

يقصد بمبدأ ثبات الحدود استقرار خطوط الحدود الدولية للدول وثباتها طبقا لسند الحصة الذي تستند عليه كل منها واعتبارها بالتالي خطوطا ثابتة لا يجوز تعديلها من جانب واحد .

ومتى تم تعيين الحدود على أساس سند حق صحيح ومشروع فانها أي الحدود تنتج آثارا قانونية ذات طبيعة دائمة وملزمة ليس فقط في مواجهة الأطراف المعينة مباشرة ، وإنما أيضا في مواجهة الكافة .

ومن الثابت تاريخيا أن الجزر الثلاث كانت خاضعة لسيادة قواسم عمان قبل مجيء بريطانيا الى المنطقة واستمر خضوعها لهم حتى انسحاب بريطانيا وإعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة التي خلفت مشيخات إمارات الساحل المتصالح فيما أبرمت من اتفاقات وخصوصا اتفاقات الحدود .

ولو سلمنا جدلا بزعم إيران من أن الجزر الثلاث كانت تابعة لها وأن بريطانيا ادخلتها ضمن حدود دولة الامارات ، فإن احتلال إيران لها يعد إخلالا بمبدأ ثبات الحدود الدولية الموروثة عن الاستعمار .

كما لا يجدي إيران نفعا ما ترده في أن التواجد العربي على الجزر الثلاث قبل مجيء الاستعمار البريطاني كان تواجدا إحتلاليا ، فإنه -

وحتى لو سلمنا بهذا الزعم - بيد المقرر ان الاحتلال كان سببا مشروعا لاكتساب الأقاليم في ظل القانون الدولي التقليدي وبالتالي فإن هذا الاحتلال يكون سند الحق لدولة الامارات .

ثالثا : الأسانيد القانونية المبنية على الوقائع التاريخية

كثيرة هي الوقائع التاريخية التي تؤيد عروبة الجزر الثلاث ، وتؤكد تبعيتها لدولة الإمارات العربية المتحدة ، ومن الصعب استعراض كل تلك الوقائع أو حتى ايراد جرد لها ، ولذلك فسوف يقتصر الكلام هنا عن الوقائع التاريخية التي كشفت عن رغبة إيران في شراء الجزر الثلاث أو استئجارها من أصحابها الحقيقيين .

1 - خلال المفاوضات التي جرت بتاريخ 18 أبريل 1930 بين الحكومة الفارسية ممثلة في وزير البلاط الفارسي السيد تيمور تاش والحكومة البريطانية ممثلة في السيد آر . كلايف الوزير البريطاني المفوض في طهران طرحت الحكومة الفارسية عرضا لشراء جزيرة طنب الكبرى من حاكم رأس الخيمة .

2 - في 1930/10/2 عرض وزير البلاط الفارسي مرة أخرى مسألة استئجار الجزر الثلاث بعقد طويل الأجل (50 سنة) . وتم تأييد هذا العرض بحضور وزير الخارجية الفارسي ، إذ قال وزير البلاط « ... إذا قام الشيخ - يعني حاكم رأس الخيمة - بتأجير الجزيرة لمدة خمسين سنة ، فإن الحكومة الفارسية ستدفع له إيجارا معادلا للإيجار الذي تدفع بريطانيا لإيران مقابل استئجارها جزيرة هنجام .

3 - في أغسطس 1929 صرح وزير البلاط الفارسي أن إيران

ستتخلى عن مطالبتها بجزيرة أبو موسى إذ قبلت الحكومة البريطانية الإعتراف بملكية إيران لجزر الطنب .

4 - أظهرت مناقشات وزير البلاط الفارسي مع المفوض البريطاني في طهران بتاريخ 1929/8/27 رغبة الحكومة الفارسية بضم الجزر اليها مقابل تعويض تدفعه الى الحكام العرب التابعة لهم هذه الجزيرة .

5 - في عام 1968 بعث شاه إيران محمد رضا بهلوي الجنرال نصيري أحد كبار ضباط استخباراته الى حاكم رأس الخيمة سمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عارضا عليه إستئجار أو شراء جزيرتي طنب الكبرى وطنب الصغرى.

خلال الجولات الحكومية التي قام بها السيد وليم لوس المبعوث البريطاني الى دول الخليج منذ بداية عام 1971 وحتى إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة ، قدم المبعوث البريطاني مشروع تسوية - مقترح من إيران -لحكومة رأس الخيمة يتضمن تأجير جزيرتي طنب الكبرى وطنب الصغرى مقابل مبلغ مليون جنيه استرليني سنويا ولمدة تسع سنوات يدفع على أقساط ، إضافة الى 49 % من عوائد البترول الذي يستخرج من طنب الكبرى .

وتظهر القيمة القانونية لهذه الوقائع في أنها تمثل إقرارا ضمنيا من إيران بتبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات . ومن المعروف في فقه القانون أن الإقرار إما أن يكون صريحا أو ضمنيا ، ويستدل على الاقرار الضمني من أي سلوك أو تصرف يأتيه أحد الخصوم يسلم بمقتضاه بما يدعيه خصمه من حق أو إدعاء .

رابعا : الأسانيد القانونية المبنية على الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة الإقليمية .

تعني السيادة الإقليمية السلطة أو الاختصاصات التي تمارسها الدولة على وجه الشمول في الحيز المكاني أو الجغرافي الذي يمثل إقليمها .

وثمة تلازم حتمي بين الملكية الإقليمية والسيادة الإقليمية ، إذ لا يمكن للسيادة ذاتها أن تخول الدولة ممارسة حقوقها السيادية على الإقليم ما لم تكن ملكية الإقليم ثابته لها ، وكنتيجة لهذه الملكية تباشر الدولة بنفسها ممارسة مظاهر سيادتها على الإقليم وعلى جميع الأشخاص المقيمين عليه والأملاك والأشياء المتواجدة فيه وعلى هذا النحو فإن السيادة الإقليمية تتميز بصفتين أساسيتين هما : الشمول في مضمون هذه السيادة والإستئثار في ممارستها ، وتشير وقائع التاريخ الى أن إمارتي الشارقة ورأس الخيمة تولتا تنظيم كافة مظاهر الحياة الإنسانية في الجزر الثلاث ، وباشرتا الأعمال الحكومية فيها بشكل شامل ، فضلا عن مباشرتهما لجميع مظاهر السلطة على الجزر على وجه الشمول والإستئثار.

وتجلت ممارسة مظاهر السيادة الإقليمية في النواحي السياسية والإدارية .

أ - الناحية السياسية :

- إستيفاء الرسوم وفرض الضرائب ورسوم عبور السفن .

- التعاقد ومنح الإمتيازات (امتياز الأكسيد الأحمر ، ، الاذن بالتنقيب عن النفط) .

- الإذن بزيارة الجزر وإقامة المنشآت عليها (إنشاء فنار في طنب الكبرى ، الإذن بزيارة الجزر لإجراء المسح الجيولوجي بحثا عن المعادن ... الخ) .

ب - الناحية الإدارية

- مرفق الأمن (تولي مسؤولية حماية الأمن والنظام والسكينة والتحري عن الجرائم ومتابعة مقترفيها ... الخ .)

- مرفق التعليم (إنشاء المدارس والإشراف عليها ...)

- مرفق الصحة (توفير الرعاية الصحية لأبناء الجزر ...)

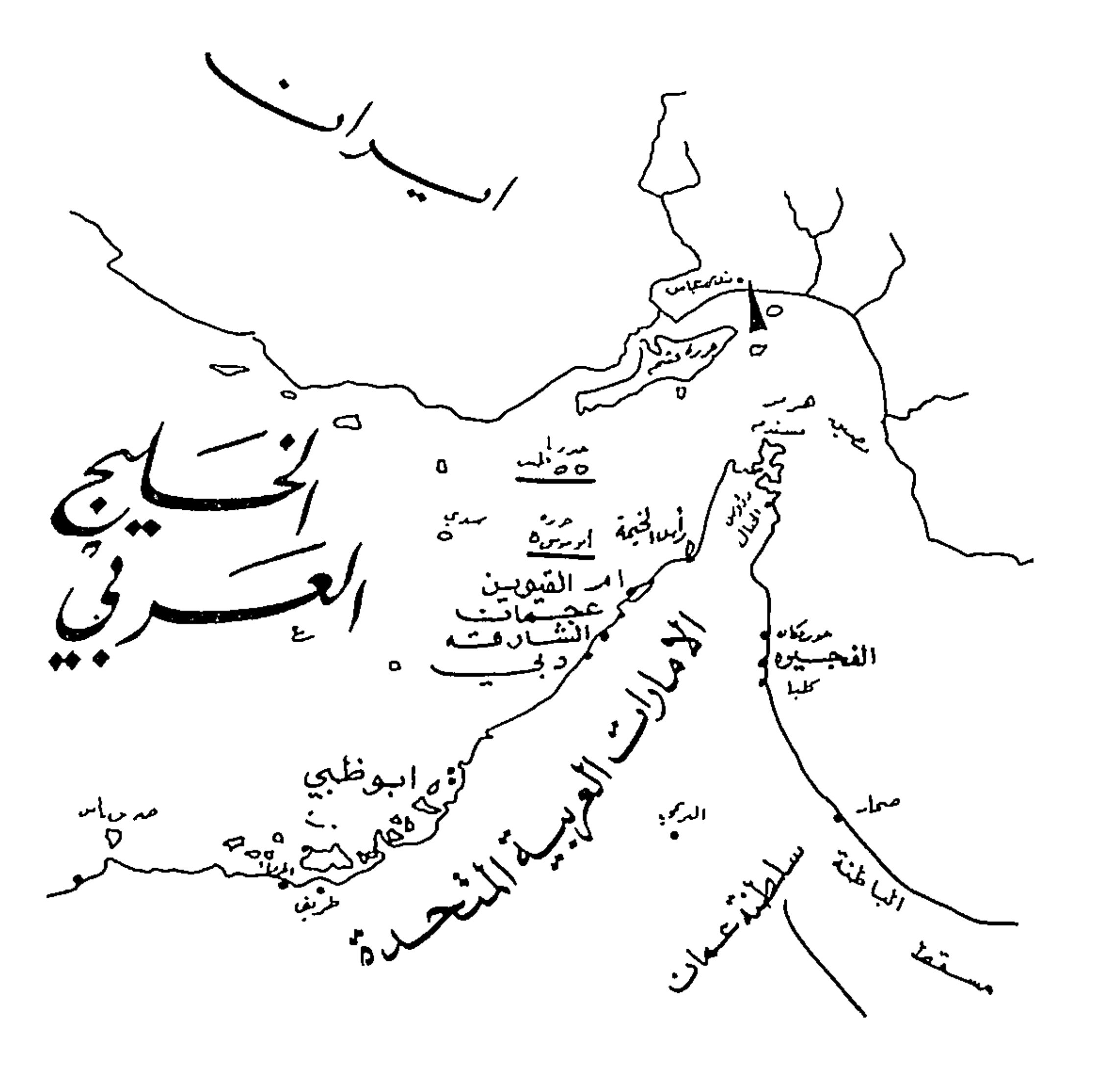
- مرفق القضاء (الفصل في النزاعات والخصومات وإثبات العقود والتصرفات القانونية وغيرها) .

كلمة أخيرة :

إن القضاء هو القادر على وزن هذه الأسانيد وإنزالها منزلتها الصحيحة وتقدير قوتها في الإثبات ، ومن هنا تأتي أهمية دعوة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بعرض النزاع على القضاء الدولي ممثل في محكمة العدل الدولية أو هيئة تحكيم دولية .

فهل تدرك إيران أن حل النزاع سلما أجدى وأنفع لها من الإصرار على احتلال الجزر ؟

إن القبول بحكم القانون سيؤدي الى توسيع دائرة العلاقات بين إيران ودولة الإمارات ويخفف من حدة المشاكل بينهما . فهل تعي إيران ذلك ؟



ايران
الخليج العربي
الامارات العربية المتحدة
سلطنة عمان
ابوظبي
دبي
الشارقة
عجمان
ام القيوين
رأس الخيمة
الفجيرة
كلبا
الباطنة
مسقط
صحار

بسم الله تعالى

عدد ١٩٢٨

سري



دام بقاه

حاكم رأس الخيمة المحترم

من جانب صاحب السعادة وكيل الدولة البريطانية المعظمة في عمان المتصالح الى حضرة الاجل الاكرم حميد المكارم الشيم المحب الشيخ سلطان بن سالم

بعد التحية والاحترام والسؤال عن صحتكم دمتم بكمال السرور وعنا من فضل الله كما تودون

اخبر حضرتكم على ان حضرة الكمندار بينز مهندس المغرة في ابوموسى يريد الوصول

الى جزيرة طنب في النصف الاخير من الشهر الحالي لمدة اربعة او خمسة ايام

وذلك لفحص معدن المغرة الذي يريد التفاهم مع حضرتكم في خصوصه -

ارجو من حضرتكم ان تتفضلوا بالاذن له ليتسنى له زيارة جزيرة

طنب وكذلك تكتبون الى وكيلكم في جزيرة طنب عن ذلك . هذا

وتفضلوا بقبول فائق احترامي ودمتم - ١٢ ذي الحجه ١٣٤٦ الموافق ٢ جون ١٩٢٨

من الخليج العربي
الى المحيط الأطلسي

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الخليج عريق في العروبة وقد استعمل الجغرافي اليوناني (سترابون Strabon المتوفى بين 21 و 25 ميلادية) كلمة (الخليج العربي) في وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب (1).

ويرجع اطلاق المؤرخين اسم (الخليج الفارسي) إلى القائد اليوناني (نيركس) بعدما عاد من الهند مبعوثا من سيده (الاسكندر الأكبر) حيث لم يمر الا من الساحل الشرقي فظن أن المنطقة كلها فارسية . (2)

وتتجلى عروبة المنطقة أيضا منذ أعرق العصور في الإسم الذي تحمله مقاطعة خوز ستان الإيرانية التي كانت تسمى من قبل الفرس الى السنوات الأخيرة «عربستان» أي بلاد العرب ولاتزال تقطنها الى الآن قبائل عربية مختلفة كبنى تميم الذين ينتسب إليهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعربستان هذه هي التي كانت تسمى «الأهواز» والأهواز كما جاء في معجم البلدان جمع هوز واصله حوز لأنه ليس في كلام الفرس (حاء) حيث يقولون (مهمد) لمحمد ولذلك ترى أن كلمة الأهواز اسم عربي أطلق على هذا الإقليم في العصر الإسلامي وتسمى بهذا الإسم

---

1 - ودرح على دلك المؤرخ الروماني بلين الصغير (Plıne le jeune) المتوفى (عام 114 م) حيث سمى الخليج باسمه الصحيح وهو الخليج العربي .

2 - وقد ندد الرائد الدنماركي كارستن نيبور عام (1762 م / 1286 هـ) بهذا الرعم الذي ردده جغرافيون صوروا جزءا من بلاد العرب كأنه حاضع - كما يقول نيبور - لحكم ملوك الفرس كما أبرز هذه الحقيقة الرحالة الانجليزي (هوردوبك أوين) في القرن العشرين رغم تواطؤ الكثير من الجغرافيين المعاصرين على الغض من عروبة الخليج .

في المغرب الأقصى ناحية مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ولعل لهذه التسمية صلة بما يحكيه بعض المؤرخين حول أسباب إطلاق اسم سوس على أقصى جنوب المغرب في الأطلس الصغير فيروي المؤرخ الروماني سالوست (Salluste) المتوفى في (عام 35 ق م) (في الكتاب الذي صنفه حول «حرب يوغورتا» ملك نوميديا من أسرة أمراء البربر والمولود عام (154 ق . م) ان الفرس الذين حاولوا الاغارة على شبه الجزيرة الايبيرية أي (إسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Heraclus) 575 - 641 م وهو هيركول اللاتيني الذي سميت به (أساطين هرقل) أي (مضيق جبل طارق) شمالي المغرب الأقصى قد تحولت أشرعة مراكبهم بشدة الريح الى المحيط الأطلنطيقي فوصلوا إلى جنوب المغرب حيث اتصلوا بالجيتول (Gétules) (وهم أهل جزولة الحالية على ما يظهر) فتصاهروا معهم وسميت سوس (وكذلك كل من مدينتي سوسة التونسية والليبية وهما متشابهتان) اقتباسا من كلمة سوسانة (Susiane) (أو أرض عيلام (Elam) الواقعة بمنطقة الأهواز على ان الفرس قد اشتهروا قديما بالنوميديين ومعناه الرمل بلغتهم وقد أطلق هذا الإسم على أهل نوميديا وهي إقليم إفريقي يقع بين منطقة قرطاج التي أسسها الفينيقيون كعاصمة لمستعمرتهم عام (814 ق م) وبلاد موريطانيا وقد خضعت هذه المنطقة بعد ثورة (يوغورطا) إلى الحكم الروماني وسنرى كيف أن هذه العناصر تشكل حلقات في الشبكة الواسعة التي حبكها الفينيقيون منذ أعرق العصور بين الشمال الافريقي والخليج العربي نعم كان للعرب الكنعانيين أي الفينيقيين جولات في الخليج العربي فهم الذين أسسوا مدينة تير (Tyr) (صور الحالية في لبنان) في الألف الثالثة قبل الميلاد وكانت عاصمة تشرف على القوافل التي تنقل الى الغرب ما ينتجه الشرق الأسيوي عبر (بحر القلزم)

والفينيقيون هم الذين أسسوا قرطاج (واسمها محرف عن قرية (حداش) أي القرية الحديثة لأنها أسست بعد كل من مدينة أوتيك (Utique) التونسية (أي العتيقة) ومدينة ليكس أو ليكسوس) المغربية حوالي (1101 ق م) وقد سقطت مدينة (تير) تحت الحكم الروماني عام (64 ق م) وأشرف عليها وعلى قصر فرعون أي وليلي القديمة (Volubilis) بالمغرب الأقصى الأمبراطور الروماني سبتيم سيفير (Septime Sèvère) (146 - 211 ق م).

ويرى بعض المؤرخين أن الفينيقيين كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج قبل أن ينتقلوا إلى الساحل السوري وأنهم سموا مدينة «صور» على شاطئ البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الأولى على شاطئ الخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها في المنطقتين تضفي على هذه الرواية سمة من الحقيقة لا سيما وأن مؤرخين محدثين قد أكدوا ذلك ومن جملتهم الأستاذ (جان كاك بيريبي) في كتابه (الخليج الفارسي) والأستاذ أمين الريحاني الذي أبرز بالإضافة الى ما ذكر تشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية في كتابه «ملوك العرب».

وبذلك يكون الفينيقيون قد هاجروا من الخليج الى البحر المتوسط منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخ رولنسون.

وعندما وسع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط وأسسوا ليكس وأوتيك ومالقة وقادس (بالأندلس) وهيبو (عنابة وبنزرت) أصبحت اللغة البونيقية (langue Punique) المستمدة من الكنعانية العربية مع تطعيمات محلية لغة أشبه بعامية افريقيا الشمالية في العصر الحاضر.

وقد عثر في البرازيل على حجارة مكتوبة بالعربية البونية تحمل تاريخ (125 ق م) نتج عن مقارنتها باللهجة الدارجة اليوم في المغرب

العربي أن هذه اللهجات ليست سوى امتداد أصيل للغة بني كنعان العربية العريقة التي استعملت قبل الاسلام في كل من الخليج العربي والمغرب وبذلك تأكد أن لغة الضاد قد مهدت السبيل للإسلام في المغرب العربي والخليج قبل البعثة المحمدية بأزيد من ألف عام وقد اعتبر الرحالة المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزان المعروف عند الغربيين بليون الافريقي (Léon l'Africain) ان الفينيقيين عنصر هام في سكان افريقيا الأقدمين حيث انتقل فوج منهم صحبة مصريين الى افريقيا الشمالية عام (1215 ق م) عندما اجلاهم الاسرائيليون عن فلسطين ثم تتابعت الجاليات أيام نبي الله داود عليه السلام عام (1055 ق م) والواقع أن العرب كانوا يملأون - بالإضافة إلى الشمال الإفريقي - هضاب وبطاح جنوب إفريقيا حيث كشف الدكتور استانلي تيمبور على مقربة من نهر زمبير في مقاطعة روديسيا آثارا منقوشة مع رسوم مكتوبة استدل بها على ان العرب استثمروا مناجم الذهب التي كان قد استثمرها قبلهم اسلافهم عرب اليمن وقد لاحظ صاحب قصة الحضارة (ج 2 ص 43) أن الحضارة ظهرت في بلاد اليمن وبلاد المغرب القديمة وانتشرت في صورة مثلث ثقافي الى سومر وبابل واشور ومصر وعضد هذه النظرية ما قيل من ابوة اليمن (بلد العرب البائدة) للشعب العربي في سائر أقطاره وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة مما سهل استيعاب الهجرة وقد تحدث ابن خلدون في تاريخه (ج 1 ص 99 طبعة بيروت) عن عروبة جبال الأطلس المغربية فأشار الى ما أكده المؤرخون والنسابون العرب امثال الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي من ان صنهاجة (سكان الأطلس الأوسط) ومصمودة (سكان الأطلس الكبير) وكتامة (بشمالي وشرقي المغرب الأقصى) عرب يمنيون

من (سلالة حمير) فيكون البرابرة حسب هذه الرواية أعرق في العروبة من ربيعة ومصر لانتسابهم الى افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وقد تحدث عن هذه النظرية القلقشندي في (صبح الاعشى) (ج 1 ص 321) فلاحظ ان افريقش هذا هو الذي نقل البربر من سواحل الشام - مركز الفينقيين ومهاجري الخليج العربي - الى المغرب ملاحظا أن أكثر الأقوال جانحة الى عروبة البربر خلافا لابن حزم (في جمهرته) الذي تبعه ابن خلدون (التاريخ ج 6 ص 96) بزعم انه لم يكن لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن ويظهر ان ابن خلدون اغفل الطريق القديمة التي كانت تصل اليمن عن طريق بحر القلزم (أي عيذاب وبور سودان الحالية) وصحراء السودان والتشاد بالصحراء المغربية الممتدة من (تنبكتو) الى (النيجر) الى مراكش تلك الطريق التي أكد الحسن الوزان انه سلكها مع القوافل التجارية في القرن العاشر الهجري فرارا من قراصنة الطريق الساحلية على طول البحر الأبيض المتوسط وسنرى كيف أن سجلماسة عاصمة الصحراء كانت منذ القرن الثالث الهجري مركزا للقوافل التجارية بين (بصرة المغرب) و (بصرة الخليج) وليس ببدع أن يوغل في الصحراء أهل هذه الصحراء لاسيما وأن هؤلاء كان دأبهم في جميع الأعصار الفرار من رطوبة السواحل والتوغل في الرمال سواء كانت في (النيجر) أم في (السودان) أم في االربع الخالي من جنوب غرب آسيا وقد أسس العرب مراكز تجارية في غمار الصحاري كمحطات للقوافل المحملة بالبضائع المجلوبة من أقاصي البلاد وكانت التجارة آنذاك تمر حتما في الطريق البرية لان العرب لم يكونوا قد استأنسوا بعد بالطرق الملاحية وقد ساعدت وحدة نظام الحياة القبلية في الصحراء على هذا الترابط .

ويعتبر القرن الثالث الهجري قمة نشاط الحركة التجارية برا وبحرا

وفترة ذهبية في تاريخها وكانت الخطوط التجارية كلها سواء انبثقت من غرب أوربا أو من الشمال الإفريقي أو من روسيا تؤدي كلها الى ميناء الابلة وميناء البصرة وقد تحدث الرحالة (بانيكار) في كتابه حول «آسيا والسيطرة الغربية» ان العرب سواء في الشرق ام في الغرب اصبحوا يتنافسون مع الشعوب الأخرى على تجارة الافاويه فكان للتجار مستودعات بالقاهرة والاسكندرية بل حتى بمدينة فاس في المغرب الأقصى (ص 37 ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) أضف الى ذلك أن تجارة الرقيق المجلوب من افريقيا السمراء وحركة الحجيج كان لهما ضلع في تعزيز هذه الحركة التجارية وقد بلغ من اهتمام المسؤولين العرب بتأمين طرق المواصلات ان عزم عمرو بن العاصي وبعده هارون الرشيد على شق (ترعة السويس) حتى تمتد الخطوط التجارية دون انقطاع من الأندلس والمغرب الى الصين وقد اشتهرت ثلاث مدن ملاحية في الخليج العربي بنشاط غامر في هذا الحقل التجاري فكانت (سيراف) تربط الخليج بالصين بينما كانت (البصرة) نقطة التقاء للسفن البحرية وطرق القوافل التجارية حيث بذت في شهرتها ميناء (الأبلة) الذي ظل مع ذلك المركز التجاري الأوحد ما بين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر (دجلة) الممتد الى البصرة وقد تعزز التبادل آنذاك بين الشرق والغرب بوحدة العملة حيث كان التجار يعتمدون العملة الذهبية (وهي الدينار) والفضة (وهي الدرهم).

وإذا علمنا أن (البصرة) تقع على الطرف المباشر للصحراء في جانب الأرض المزروعة وبساتين النخيل في منطقة (شط العرب) علمنا لماذا كانت محط انظار الحضريين والصحراويين من المغاربة حيث أسست (بصرة المغرب) بالقرب من مدينة (القصر الكبير) شمالي المغرب وظلت مركزا اقتصاديا هاما لصنع الكتان ومرحلة في طريق القوافل الى أن هدمها أبو

الفتوح (368 هـ) (البيان لابن عذاري ج 1 ص 330) وقد حدثنا (ناصر خسرو) الذي زار البصرة الشرقية عام 1050 م عما وجده من عادات لدى التجار الذين كانوا يملكون (كمبيالات أو سفتجات) يحفظونها لدى تاجر عملة أو رجل بنك مقابل ايصال وكل المشتريات تدفع بالشيكات أو الحوالات ويقوم التاجر طوال إقامته في المدينة بصرف كل دفعاته بالشيكات أو الكمبيالات على البنوك ومثل هذه الحوالات كانت أيضا بسجلماسة حيث كانت التجارة مزدهرة مع السودان والبصرة حسب (ابن حوقل) الذي حدثنا عن العوائد التجارية بهذه المدينة (عاصمة الصحراء المؤسسة عام 140 هـ) وكذلك كل من صاحب المسالك (ص 70) و (ابن سعيد المغربي) عن حوالة قدرها اربعون ألف دينار حررها تاجر سجلماسي لفائدة تاجر آخر وكان التجار المسيحيون الواردون من الأندلس وتلمسان يمرون بسجلماسة الذي أكد (ياقوت الحموي) في معجمه ان مصانع نسيجها بذت في جودة الانتاج مصانع مصر كما لاحظ (ابن خرداذبه) الجغرافي العربي في القرن الثالث الهجري أن التجار الصقالبة كانوا يمرون في وجهتهم نحو الشرق عن طريق (سوس الادنى) أي (طنجة) ومنها الى افريقية ومصر وتشمل مقاطعة سوس الأدنى مدينة البصرة المغربية بحيث يمكن القول بأن هذا المركز كان منطلقا للقوافل نحو البصرة الشرقية عن طريق الخليج العربي سواء عبر الصحراء الجنوبية أم خلال (بلاد الكنانة) وليس من العبث أن تحمل مدن مغربية وأندلسية في هذه الطريق الغربي أسماء مدن أخرى تتلاحق في الشق الشرقي لنفس الطريق فبالاضافة الى البصرة وسوس الاهواز وحمص (في كل من فاس الجديد والأندلس) توجد في قلب الأطلس مدينة (القاهرة) وفي قلب (الريف) إقليم (فشتالة) المعروف بالشام الصغير كما توجد في الأندلس مدينة تدمير وفي تونس

سوسة التي كانت تسمى حضرموت ، المتساوقة في اسمها مع تدمر السورية التي كانت منذ العصر الروماني من أبرز المراكز التجارية في هذه الشبكة وكانت أشهر المدن والموانئ في الخليج آنذاك (أبولوجوس) أي (الابلة) الواقعة على شاطئ دجلة البصرة وهي أقدم من البصرة وتقابلها في الغرب مدينة الآبلة التي ينتمي اليها أبو عبد الله الآبلي شيخ ابن خلدون وقد ظلت (الآبلة) المخرج الرئيسي على الخليج من أجل التجارة الفارسية في النقطة التي تلتقي عندها الطرق العظيمة من فارس وجزيرة العرب على ضفتي دجلة وقد لفت (ابن خرداذبة) الانتباه الى المكانة الهامة التي احتلتها (الابلة) في التجارة بين الشرق والغرب حيث كان التجار اليهود يقلعون من فرنسا في البحر العربي (أي المتوسط) ويتجهون نحو انطاكيا ومنها الى بغداد ثم الابلة فالسند والهند والصين وقد ظلت هذه المدينة بارزة على المسرح العالمي مرتبطة بالبصرة في النشاطات البحرية الخاصة بالخليج لعدة قرون وإذا كانت مدينة البصرة الحديثة قد امتصت الابلة فإن ذلك لم يتم الا بعد القرن التاسع الهجري وهنا يمكن أن نتساءل عن الدور الذي قام به (الخوارج) لدعم الروابط السياسية بين الخليج والمغرب منذ صدر الاسلام فالازارقة قد ثاروا في الاهواز والبصرة حيث استباحوا دماء واعراض المسلمين الخارجين عن نطاق فكرتهم ولكنهم ما لبثوا ان انهزموا لتطرفهم فخلفهم الصفريون القائلون بضرورة التعايش مع غير الخوارج وقد نفذ هؤلاء الصفرية في المغرب الى قلوب البربر الذين شقوا الطاعة على الخليفة هشام واججوا نار الثورة عام (121 هـ) بإقليم طنجة وتسربت فلولهم الى الصحراء فأسست مدينة سجلماسة التي أصبحت حاضرة (بني مدرار) الى منتصف القرن الرابع الهجري وهو التاريخ الذي تهدمت فيه مدينة البصرة المغربية وانهار الحكم الخارجي

وكذلك الشيعي في المغرب بانهزام (جوهر الصقلي) الذي نقل عدته الى مصر حيث بنى القاهرة وليس من قبيل الصدفة أن يجعل الخوارج من البصرة موئلا لهم ومركزا ينافسون به (الكوفة) التي عدت قاعدة من قواعد الشيعة في نفس الوقت الذي جعلوا من سجلماسة في قلب الصحراء المغربية حاضرة لامارة خارجية وحلقة اساسية في سلسلة المراحل التي تاوى اليها القوافل التجارية كما أنه ليس من قبيل الصدف أن تتقلص الحركة التجارية بين الخليج والمغرب في القرن الرابع الهجري في نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ الخوارج .

ومنذ ان استوثقت روابط المغرب بالصحراء في القرن الخامس بدأت أسواق النخاسة تنفق في خفاء وكذلك كان الامر عندما شكل عنصر الزنج في الدور العباسي الثاني (مابين 233 هـ و 468 هـ أي 847 م 1075 م) طبقة متميزة في المجتمع العربي وخاصة في شمال الخليج فعززوا حركة الرق والنخاسة يساعدهم امتداد النفوذ الاسلامي الى افريقية (أي تونس وجزء من الجزائر) وازدهار الملاحة العربية حيث مالبث الايوبيون أن سيطروا في القرن التالي على الشق الشرقي لبحر العرب أي البحر الأبيض المتوسط يساندهم في الشق الغربي الموحدون الذين كان لهم أسطول من اربعمائة قطعة اعتبره المؤرخ الفرنسي (اندري جوليان) أعظم أسطول في البحر المتوسط ولم يقبض العرب على زمام البحر الأحمر المتوسط فحسب بل أصبحوا سادة المحيط الهندي لاسيما بعد أن اكتشفوا الرياح الموسمية وسخروها لخدمتهم وأنشأوا الموانئ والمنائر التي تشتعل فيها النيران ليلا لتهتدي بها السفن وعززوا المرافئ بمراكز الحاميات حفاظا عليها من القرصنة وغارات البدو وفي هذا العصر استعيض عن الموالي الصقالبة الذين نفقت نخاستهم منذ القرن الثالث الهجري واقترن اسمهم بها حتى

صار الاوروبيون يطلقون اسم الصقالبة (Slaves) على العبيد (Es-claves) - نقول استعيض عنهم بالزنوج الذين أصبح التجار المسلمون يأتون بإعداد ضخمة منهم وقد تجلت هذه الظاهرة بالقسم الشرقي من المغرب العربي أي في تونس خاصة منذ استوطنت جماعات من الباطنيين والزيديين افريقية فرارا من الاضطهاد العباسي ثم استعجل ذلك عندما زج الفاطميون - اقتصاصا من بني زيري - بمائتي ألف قرمطي من بني هلال وبني سليم الذين نشروا الدمار في هذه البلاد مما حدا (ابن خلدون) الى التنكر في (القرن الثامن) للعرب الذين لم يكن يقصد بهم سوى الأعراب وخاصة هؤلاء ولم تدخل الى المغرب من هؤلاء سوى فلول منتقاة كان الزمن قد عفى على عنجهيتهم البدوية ونزعتهم القرمطية فكان لهم ضلع في تعريب المغرب وشنقيط والواقع أن الباطنيين من القرامطة أو الزيديين قد كادوا فسادا في افريقيا وجاس المغامرون منهم في مجاهل الصحراء الافريقية لاصطياد الزنوج في الادغال الكثيفة وفي هذا العصر حادت طريق البر في شمال افريقيا عن خطها العادي لتتصل بالبصرة وبغداد وسوريا ومصر بواسطة الخط الساحلي على طول بحر العرب على أن حركة القرامطة الابادية قد بدأت منذ سنة (315 هـ / 927 م) حيث استولوا على البصرة وظلوا يعرقلون سير القوافل التجارية أو قوافل الحجيج لاعتقادهم أن الحج من شعائر الجاهلية بل من قبيل عبادة الاصنام ولذلك أجهز القرامطة على من سموهم بالكفار وعبدة الاحجار بمكة فردموا بئر زمزم وكدسوا جثث القتلى في المسجد الحرام واندفعوا يخربون جوانبه بحرا بهم وخيولهم فاحتملوا معهم (الحجر الأسود) الى (الاحساء) حيث بقي ملقى الى عام (339 هـ/ 950 م) وبنو هذيل هؤلاء هم الذين حاولوا في الخليج الوقوف في وجه القرامطة منتهكي حرمة البيت وهم

الذين أشرنا الى اعتدالهم عندما هاجروا الى المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري بدعوة من المنصور الموحدي بطل (معركة الأرك) في الأندلس.

ومهما يكن فإن هذه الأحداث قامت حجر عثرة في طريق المبادلات التجارية حيث ان (الحشاشين) من الاسماعلية الباطنية امتدت جذورهم شرقي الخليج حتى خلال الحكم الأيوبي الى الوقت الذي زحف المغول على فارس حوالي (659 هـ / 1260 م).

وإذا كانت التجارة قد تقلصت في هذه الفترة بين المغرب والخليج خاصة وبين الشرق والغرب عامة فإن ذلك لم يكن يرجع بالنسبة للمغرب الى وجود هذه الطوائف الهدامة بل هولاء كانوا منبثين على طول مراحل القوافل شرقا ينهبون ويقتلون ويدمرون ومع ذلك فإن نفس العوامل كانت تدعم حركة النخاسة والمبادلات لاسيما بعد ان احتل ملوك المغرب السعديون السودان أواخر القرن العاشر الهجري ثم العلويون بعدهم عندما توغل السلطان المولى اسماعيل في قلب الصحاري الى حدود غينيا وشكل جيشا من العبيد (أي الزنوج) مالبث أن أعاد تاريخ ثورات الزنج بالشرق وخاصة بالخليج الا ان عنصرا جديدا ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الأحمر في وجه السفن العربية للإستيلاء على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وهنا يبرز دور المغرب في انقاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ففي عام (1540 م) دخل سليمان القانوني الى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين في معركة ميناء «مصوع» على الساحل الافريقي من البحر الأحمر حيث اندحر البرتغاليون أمام الأسطول العثماني غير أنهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية في الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب

الذي انحدروا إليه بعد أن قضوا على آخر من تبقى من العرب في الأندلس تقتيلا وتهجيرا غير أن رد فعل المغرب الأقصى كان عنيفا ففي عام (986 هـ 1578 م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sébastien) وبلغ جند البرتغال آنذاك مائة وعشرين ألفا وقطع أسطوله الرابطة في أصيلا والعرئش عدة مات وزحف الجيش البرتغالي الى (وادي المخازن) في (متم جمادى الأولى من نفس السنة أي رابع غشت عام 1578 م) وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الإسلامي شرقا وغربا باستنفار الدول الكاثوليكية وتعبئة شباب الفاتكان ولكن أبى الله الا ان يهزم هؤلاء الأحزاب وينصر عباده المومنين فقتل ملك البرتغال واسر جيشه وفر أسطوله فكانت هذه المعركة كما يقول المؤرخ الفرنسي (هنري طيراس) المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع بين المسيحية والاسلام انزلت ضربة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال مملكة البربغال لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه خاله (فيليب الثاني) ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من (ستين سنة) ظلت خلالها خاضعة هي نفسها للإسبان ولذلك تم خلال هذه الفترة إجلاء البرتغاليين عن (منطقة البحرين) (التي احتلوها قرنا كاملا) عام (1622 م) أي بعد معركة وادي المخازن بأربع وأربعين سنة كما طرد البرتغاليون عن مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام (1649 م الموافق 1059 هـ) وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطخوا تاريخ العروبة والإسلام طوال أربعة قرون بدافع من البابوية التي قسمت ممتلكات الشرق والمغرب بين البرتغاليين والإسبان.

وإذا كان (الخليج العربي) قد غدا منذ القرن الثالث الهجري المرحلة الرئيسية في تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب في ذهابها وإيابها بين

أوربا والشرق الأقصى عبر البحر الأبيض المتوسط فإن كلا من الخليج والبحر المتوسط كانا عالة الواحدة على الآخر واستمر هذا التساوق الى القرن العاشر الهجري عندما كان مضيق (جبل طارق) هو الممر الفاصل بين المحيط الأطلنطكي والمتوسط فكانت مدينة سبتة منطلق المراكب التجارية الى ديار الهند.

وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني (عام 857 هـ 1453 م) وباستئصال شأفة الغزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في (الحرب الصليبية الثانية) التي أججت أوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتنطلق في حلقات أخرى من هذه الحرب بقيادة الهولنديين والانجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي.

غير أن حدثا جديدا كلل انبثاق العصر الحدث وانقضاء القرون الوسطى وهو اكتشاف امريكا عام (898 هـ / 1492 م) من طرف (كريستوف كولمبس). والغريب ان اكتشاف امريكا الذي نسبه الكثير من المؤرخين الى العرب يرجع الفضل فيه بالذات إما الى رجال الخليج قبل الميلاد أو الى عالم من علماء الأندلس والمغرب فقد تأكد أن الفينيقيين المنتسبين أصلا الى الخليج قاموا بدورة حول العالم طوال ثلاث سنوات طافوا خلالها حول افريقيا ووصلوا الى (البرازيل) وأسسوا مملكة هناك مازالت معالمها قائمة الى الآن ومن جملتها الحجارة المكتوبة باللغة البونيقية أي لهجة افريقيا الشمالية مما يدل - اذا صحت هذه الرواية - على ان القرطاجيين - وهم عرب فينيقيون تأقلموا في المغرب - هم الذين اسهموا مع المغاربة في اكتشاف امريكا ويعترف (كريسطوف كولومبس) نفسه - كما أورد ذلك

المؤرخ الـفرنـسي (رونـان) في كـتابـه (ابن رشـد ومذهـبه) (Averroès et l'Avérroïsme) بأن كـولومبس تـرك رسالة بعـد وفاته يقـر فيها بـان الذي أوعز الـيه بوجود قـارة جديدة وراء المحـيط هو ابـن رشد المغربـي في كتـابه «الكليات» في الطب على أن مجلة «نيوزويك» الأمريكية أكدت في عددها الصـادر في أبـريل 1960 (راجـع الخلـيج الـعربي في تـاريخـه السـياسـي ونهضته الحديثة ص 13) ان الوثائق التي عثر عليها تثبت ان امريكا كانت معروفـة للعرب «الذيـن قاموا - حسب تـعبيره قبـل سنة 1100 من الطرف الغربي للعالم الاسلامي ومن ميناء الـدار البيضاء على التحديد ورسوا في عدة مواضع على السـاحل الأمريكي» وقـد أيد هذه النظرية الدكتور (ليس شيـنج بانج) استـاذ التاريخ والـلغة الصـينية بـجامعة (هـارفارد) كما أيـدها الدكـتور (ريتشـارد رودولف) رئيس المـؤتمر الذي عقـدته الجمعـية الشرقـية الأمريكية .

وهنـا بدأت في المـغرب والخلـيج فترة جـديدة من الـصراع تجلـى في ظهور الانجـليز على مـسرح التجارة الخـارجية حيث تـنفسوا الصـعداء من اندحار البرتغال فـأقاموا في الشرق (الشركة الهنديـة) وفي المغرب (شركة بربريا) (Company Barbary) وبينما أرادوا أن يركزوا في الخليج وجودهم بملء ما تركه البرتـغاليون من فراغ إذا بهم يكتفون في المغـرب بالعمل على حماية صفقاتـهم التجارية من القرصنة وتأمين البـحر المتوسط من غارات المراكب والسفن المغربية مما أدى ببعض الدول الكبرى كالداغارك والسويد وبعض المـرافئ الحرة كهامبـورغ وبريم بألمانيـا الى دفع اتاوة سنويـة خاصة للمغرب اعتصـاما بأسطوله من(لصوصية البحر) وكـان قراصنة المغرب قد مدوا شـبكة غاراتـهم الى المحـيط الاطلنـطيقي فـواجهوا الانجـليز في عـقر ديارهـم وقلصـوا من جـهة ثانـية ضغـطهـم على الـشرق العـربي وخـاصة

الخليج لاضطرارهم الى الاحتفاظ بجزء من أسطولهم لحماية سواحل الجزر البريطانية الا أن الانجليز فوجئوا هنا وهناك في آن واحد على طول طريق الهند المارة من جبل طارق بمزاحم جديد هو (هولندا) قامت هي الأخرى بتحدي القرار البابوي الهادف الى اقتسام العالم بين زعيمتي الكاتوليكية آنذاك اسبانيا والبرتغال وكان لقيام الحركة البروتستانية ضلع في دعم هذا الاتجاه فأنشأ الهولنديون عام (1592 م) شركة للتجارة مع الهند واتجه اسطول هولندي بين (1598 م و 1601 / موافق 1007 و 1010 هـ) الى المحيط الهندي عن طريق الممر الجديد برأس الرجاء الصالح للاتجار والغزو معا بينما عقدوا مع المغرب الاقصى معاهدة عام (1610 م) للحصول على رسوم الأسبقية في التجارة الخارجية ، ولم يكد يهل عام (1640 م 1050 هـ) حتى احتل الهولنديون مكان الصدارة في (الخليج العربي) الا ان صراعهم ضد الانجليز مافتئ ان استفحل بسبب تدخل القراصنة المغاربة الذين كانوا يعملون بغير قصد منهم على التخفيف من ضغط الفريقين على الخليج العربي ، فقد كان كل من الانجليز والهولنديين يناصب العداء للإسبان عدوهم المشترك سياسيا ودينيا واقتصاديا الا أن الهولنديين ظلوا يمدون سفن القرصنة المغربية بالعتاد ومواد السفانة وقطع الغيار بينما طفق الانجليز يواصلون حربا شعواء ضد هؤلاء القراصنة حتى اندلعت الحرب بين الطرفين طوال عامين (1652 م / 1563 هـ) واتسعت شبكتها الى ما وراء البحار فاشتبك الأسطولان الانجليزي والهولندي في (مياه الهند) المؤدية الى الخليج والواقع ان القراصنة المغاربة قلصوا من نشاط الانجليز فتعطلت تجارتهم في الشرق في نفس الوقت الذي أدى حيادهم بهولندا الى نوع من الحصانة تمتع به أسطولها في البحر المتوسط مما فسح لها مجال الضغط على الخليج وقد احتفظ المغرب الأقصى باستقلاله في هذه الفترات بل انه

احتفظ باستقلاله خلال ألف عام (الى عام 1912 م) فكان القطر العربي الإسلامي الوحيد الذي ظل في منأى عن سيطرة الخلافة العتمانية والذي عرف كيف يستغل انتصاره في (معركة وادي المخازن) حيث أصبحت دول أوربا تخطب وده لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالأمر الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يشير اعجاب العالم مما حدا بالانجليز الى مفاتحة المغرب بدون جدوى في القيام بعمل موحد لخلق (كوندومنيوم) مشترك في الهند وانشغل المغرب في لم شتاته وتطوير صناعته فزرع قصب السكر وفتح مصانع لتكريره فتنافس البلاطان الانجليزي والفرنسي على اقتنائه (3) وصدره المغرب الى الشرق في جملة ما صدر من جلود وزيوت ومعادن (من نحاس ورصاص وحديد وقصدير بالإضافة الى ملح البارود والكبريت) وأصبح للدينار المغربي نفاق في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي الى 3548 غرام وتهافت المضاربون من الانجليز على هذه العملة القوية يستعيضون بها ما خسروه من صفقات في الخليج (4) بل أصبح المغرب يدلي بدلوه في توجيه السياسة الأوربية وفي فتح قروض (ناب منها دولة هولندا مليون ونصف مليون دينار) واكتساح أوربا حيث وجه عملاء للدعاية لمنتجاته وسوائمه ومعادنه عاملا على حماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية . غير أن

---

(3) كان السكر يصنع في شقي العروبة بإفريقيا ومصر (الخطط للمقريزي ج 1 ص 203) وافريقية وخاصة في فاس وحلولا (المسالك للبكري - جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) وكانت معاصر السكر في المغرب تدر سنويا على المنصور السعدي أزيد من ستمائة ألف أوقية ذهبية (وزن الأوقية 30 غرام تقريبا) وكان بالمغرب مناجم فضة وذهب خاصة قرب سجلماسة (كتاب الاستبصار) والنحاس الخالص الذي لا يعدله غيره شرقا وغربا بالإضافة الى القطن الذي كان يزرع بتادلا (وصف افريقيا للادريسي ص 50) وتطورت على يد الانجليز عام 1864 م في منطقة مدينة الجديدة صناعة قطن حريري شبيه بالقطن الامريكي كان نافقا في أوربا وذلك بالإضافة الى مصانع الطلس أيام السعديين .

(4) كانت تنبكتو تؤدى الى المغرب جزية سنوية قدرها ستون قنطارا من التبر أي الذهب غير المسكوك مما جعل من المنصور الذهبي أعظم أمير في العالم من حيث العملة وكان الانجليز يهربون الذهب في صناديق السكر المغربي

منافسا جديدا ما لبث أن برز هو الاستعمار الفرنسي الذي اضطر عدوتي الأمس (هولندا وانجلترا) الى التحالف لدرء خطره الداهم ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من تهديد مصالح الانجليز في الخليج ، واستطاع نابليون أن يطأ تراب النيل فاتحا وأن يهدد المولى سليمان ملك المغرب بالانقضاض عليه في مائة ألف من جنده إذا هو لم ينضم الى كتلة الحصار القاري (Bloc Continental) المضروب على الانجليز وكان أسطول القراصنة المغاربة يقض مضاجع الأوربيين في المتوسط وفي عرض المحيط الأطلنطيقي الذي نقلوا اليه عملياتهم بعد أن أصبح طريقا جديدا الى الخليج ولم تكن علائق فرنسا مع المغرب مستوثقة بسبب ذلك الصراع البحري الذي جعل المغرب ينهج سياسة التدافع بين الدول الأوربية يثير هذه ضد تلك ويحالف جانبا للتملص من ضغط جانب آخر . والواقع أن انقسام المغرب الى أقاليم مستقلة خلال القرن السابع عشر (قبيل توحيد المغرب على يد الدولة العلوية) هو نفسه الذي ترك ثغرات تسرب منها المستعمرون مثل ما وقع في إمارات الخليج بالنسبة للهولنديين والانجليز والفرنسيين .

ففي الوقت الذي اتسع نطاق التجارة الانجليزية في الشرق وأوربا الشرقية أي القرن السادس عشر تزايد أيضا مع المغرب وحتى غينيا بإفريقيا غير أن الفرنسيين كانوا قد بذوا حتى الهولنديين في مبادلاتهم مع المغرب حيث دخلت في عام واحد (1698 م) لمرسى سلا أربعون سفينة تجارية وتأسست بعد ذلك بسنتين شركة تجارية فرنسية اضطلعت بإصدار المنتجات المغربية وقد بلغ عدد السفارات المغربية الى فرنسا نحوا من سبع وعشرين سفارة ، أولاها عام 1576 م والاخيرة عام 1909 أي قبيل الحماية بثلاث سنوات .

كانت حجرة بادس تعتبر ميناء فاس في البحر المتوسط ، وكان

الأسطول التجاري لبعض الدول يرابط فيها الا ان القراصنة الجزائريين اتخذوها عام 1554 م (971 هـ) مقرا للهجوم على سواحل الأندلس واقتناص السفن المتوجهة للهند والخليج وكان قراصنة تطوان والعرائش يتعاونون معهم لأن القرصنة الجهادية كانت عبارة عن رد فعل المسلمين على ما لحق اخوانهم في الأندلس من نفي وتنكيل وتقتيل وقد تحالف قراصنة سلا (وهم خليط من العرب والمسلمين والاعلاج من كافة سواحل المتوسط) مع الانجليز لمساعدتهم على احتلال جبل طارق وكانت معظم الدول الاسلامية المتوسطية تساند هذه القرصنة لا لكونها انطلاقة مشروعة ضد العدوان الايبري فحسب بل أيضا لأنها أعادت الى العرب سيادة المتوسط والمحيط وواجهت القرصنة المسيحية ونشرت الأمن والطمأنينة في البحار بالنسبة للسفن العربية والحليفة ، وكان معظم البوارج الحربية في أوائل العهد العلوي (أي في نهاية القرن السابع عشر) قد اقتنصها القرصان من الأسطول الفرنسي أو الهولندي أو الانجليزي وأهمها تسع عشرة سفينة انجليزية وأربع فرنسية مما يدل على هيمنة أسطول القرصان الجهادي ، وقد بلغ عدد القطع البحرية الخمسين في عهد المولى محمد بن عبد الله وسبعا وأربعين أيام المولى سليمان ولكن المغرب ظل مع ذاك ينعم في الحقل الدولي بمكانة ملحوظة مما حدا روسيا الى طلب انضمامه في حرب القرم (1854 م - 1856 م) الى كتلة المحايدين واستدراجه للدخول الى الحلف الروسي الامريكي ضد تركيا وفرنسا وانجلترا ، وكان المغرب يشعر بان انغماره في هذا الحلف يعزز مركزه ضد الفرنسيين والانجليز الذين بدأوا يتنافسون لبسط نفوذهم على المغرب لا سيما بعد ما احتلت فرنسا الجزائر واجبرت المغرب على امضاء معاهدة لالة مغنية عام 1845 ولكن المغرب راعى ذمام الاسلام فلم يجرؤ على

الدخول في حلف موجه ضد تركيا المسلمة رغم كونها كانت حجرة عثرة في سبيل وصل علاقاته مع الشرق العربي وخاصة الخليج منذ أن سيطر العثمانيون عليهما في منتصف القرن الخامس عشر ، وتمتاز هذه الصلات العريقة بين الخليج العربي والمغرب الأقصى وهما شقان متنائيان للوطن العربي الممتد الى المحيط - بظاهرة هي أصالة معظم مصطلحاتهما الدارجة بالنسبة للفصحى ولا شك أن هذه الوصلة التي استوثقت عبر العصور راجعة بالإضافة الى العوامل التي أشرنا اليها كوحدة الأصل الكنعاني والتأثير الحميري المشترك الى وحدة المنبع المالكي في مفرداته الفقهية ومصادر اقتباسه الحديثية والقرآنية ، ولاشك أن لرواج المصطلحات المالكية في جميع المناحي الاجتماعية خاصة في أبي ظبي أثرا قويا في تكييف هذا التراث الوحدوي ، كما ان احتكاك التجار المغاربة بزملائهم الخليجيين قد خلف مجموعة من الألفاظ الدارجة أشرنا الى بعضها في معجم خاص حاولنا فيه إبراز مظاهر الوحدة في عاميتي المغرب والخليج ونشر في مجلة اللسان العربي (عدد 5 - 1387 هـ / 1967 م) وهذه الكلمات موحدة المعنى في الخليج والشام والمغرب أي في المراكز التي ورثت لغة كنعان العربية وتأثرت بلغة القرطاجيين أي اللغة البونيقية ، وهاكم جملة منها : البايت (للباقي من طعام الأمس) والبحرة أو البحيرة (للمستنقع) والبراحة (للبراح) والبسباسة (للبسباس) وبغى يبغي (بمعنى أراد) والبلدة والبلع (للمنزلتي من منازل القمر) والبلدية (لاحدى دوائر الحكومة) وبلم فمه (أي أغلقه) والتحسونة أو الحسانة (الحلاقة) والجنطة أو الشنطة (للحقيبة) والحارة (للمحلة والحي) وحب (بمعنى (قبل) وحويل أو حولى (أي ما دار عليه الحول والخاطر (بمعنى الضيف الطارق) والختمة (بمعنى اتمام القران) والخنفرة (أي الأنف الكبير) والدرويش (بمعنى الفقير)

والربعة (أو الربيعة لصندوق ايداع أجزاء القران) والردحة (بمعنى الرقص) والشاهد (بمعنى السبابة من الأصابع) والصيني (أي اناء النحاس أو الخزف) والطنا (بمعنى الاغاظة تقول اطناني أي اغا ظني) والعرضة (أي حفلة الزواج) والعزيمة (أي الدعوة الى مأدبة) والاعشار (بمعنى الزكوات) والعمارية (أي المحفة) والعيال (بمعنى الأولاد الصغار) والغربي (أي الهواء يهب من جهة الغرب) والفكغ أو الفقاع (أي الكماة) والكحة (بمعنى السعال) وكخ (للنهي عن الاقتراب من الشيء القذر) والمرفاعة أو المرفع (للرف المعلق) والمشموم (للباقة من الرياحين) والمطهر (للمرحاض) والمكبة أو المكب (لغطاء صحن الطعام) ، وهنالك أسماء أعطيت لمدن ومناطق شتى تقع في امتداد طرق القوافل منها «الجبل الأخضر» في المغرب وهو ينبثق كجزيرة في قلب الصحراء وكذلك «الجبل الأخضر» الذي يقوم على محاذاة ساحل عمان وسط كثبان الرمال من الصحراء الحمراء الخليجية .

وتبرز إمارة أبي ظبي في هذه المجموعة الخليجية كمرحلة من مراحل القوافل المغربية نظرا لواحاتها الثرية واتصالها بالبر بطريق ضيق تقع على حدود المملكة العربية السعودية ونظرا لما كان يسودها من أمن وهدوء حتى استحق ساحلها وهو ساحل عمان أن يسمى ساحل الهدنة .

تلك مظاهر للوحدة الأصيلة المتعلقة بين الخليج العربي والمغرب العربي تبرز امتداد الوطن العربي من المحيط الهندي الى المحيط الأطلنطيقي، وقد عادت هذه الوحدة اليوم الى عنفوان عزها بعد انهيار الاستعمار وانكشاف الستر الكثيفة التي قامت حائلا اصطناعيا بين اخوان طوال عدة قرون ولكننا عند اللقاء من جديد بعد طول الفرقة نشعر وكأننا لم نفترق لأن خلجات قلوبنا متساوقة ولأن لنا في مقومات تراثنا العربي الإسلامي سندا قويا لم تفصمه نوائب الدهر ولم تحل عراه الوثقى مكائد المستعمرين .

أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والاسلامية

الدكتور محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث المعاصر
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الحركة الاستعمارية ليست حديثة العهد ، بل هي قديمة قدم التاريخ المكتوب ، وإن كانت لم تعرف بهذا الاسم الا في العصر الحديث . فالاستعمار يعني استيلاء دولة على ممتلكات دولة أخرى ، وتعني التوسع والتسلط والاستبداد ، ومحاولة تغيير ثقافة الدولة المغلوبة وعاداتها وتقاليدها وتاريخها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . وقد أثرت تلك الحركة تأثيرا قويا في السياسة الدولية في هذا العصر .

ولفهم وسائل وأساليب الاستعمار في تزييف وتشويه تاريخ الأمم والشعوب التي نكبت به بصفة عامة والدول الإسلامية بصفة خاصة ، لابد لنا من الالمام بأقوال دهاقنة الاستعمار من رجال السياسة والفكر في أوربا، ممن كانت لأقوالهم وأفعالهم أكبر الأثر في دفع حركة الاستعمار وفي تطورها وتوجيهها الوجهة التي يريدونها . فمن هذه الأقوال ندرك زيف ادعاءاتهم منذ بدايات ومقدمات الحركة الاستعمارية . ومن المنطقي أن تؤدى المقدمات الزائفة الى نتائج زائفة . فليس من العسير على هؤلاء أن يشوهوا تاريخ الشعوب التي حكموها ليبرروا وجودهم رغم أنف تلك الشعوب .

هذه كلمة سقتها في بداية بحثي لتكون نبراسا يهدينا في دروبه وفي

منعطفاته .

أما عن الأسباب والدوافع التي تذرعت بها الدول الكبرى لتبرير استعمارها - غير الأسباب الحقيقية التي تهدف الى التملك والتسلط والسيطرة على مقدرات الشعوب سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، واستنزاف مواردها لخدمة ولرفاهية شعوب تلك الدول الكبرى - فهي متعددة ، فمنها من اعتبرها مسألة كرامة أ و هيبة Prestige مثل بنجامين دزريلي Benjamin Disreali (1) وزير خارجية بريطانيا ورئيس وزرائها في خطابه الذي ألقاه في Crystal Palace في عام 1289 هـ / 1872 م وكأن هيبة الدولة وكرامتها لن تصبح حقيقة واقعة الا باستعباد غيرها من الشعوب .

ولم يكن دزريلي وحده - وقتئذ - يفتخر بعظمة الأمبراطورية البريطانية وإنجازات بريطانيا الاستعمارية ، بل شاركه في ذلك كثيرون من رجال السياسة والفكر أمثال شارلز دلكه Charles Dilke (2) ، جيمي فرود James Froude (3) وجون سيلي John Seeley (4) ، وتوماس كارليل Thomas Carlyle (5) ، وشارلز كنجسلي Charles Kingsley (6) ، وجون

---

1 - درزيلي ، بنجامين (1804 - 1881) سياسي بريطاني ، تولى رئاسة الوزارة البريطانية مرتين عام 1868 و (1874-1880) وعرف بسياسته الاستعمارية. وأهم أعماله شراء أسهم مصر في قناة السويس سنة 1875 .

2 - دلكه ، شارلز (1843-1911) من رجال السياسة والفكر الانجليز ، وممن أيد السياسة الاستعمارية ومجد الامبراطورية البريطانية في كتابه Greater Britain الذي نشر في عام 1868 .

3 - فرود ، جيمس (1818-1894) وهو مؤرخ وكاتب ، وممن أشادوا بالأمبراطورية البريطانية في كتابه الأقيانوسية Oceana الذي صدر في عام 1886 .

4 - سيلي ، جون (1834 - 1895) أيد حركة الاستعمار ومجدها في كتابه Expansion of England ونشر في عام 1883 .

5 - كارليل ، توماس (1795 - 1881) وهو كاتب ومؤرخ وفيلسوف انجليزي .

6 - كنجلي ، شارلز (1819 - 1875) وهو روائي وقس انجليزي ، بارك الحركة الاستعمارية ، وحاول التوفيق في كتاباته بين العلم الحديث والعقيدة النصرانية .

رسكن John Ruskin (7) ، والفريد تنيسون Alfred Tennyson (8) ، ولورد سولسبري Lord Salisbury (9) ، وجول فيري Jules Ferry (10) ، وسيسيل رودس Cecil Rodes (11) و هوراشيو هربرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener (12) ، وغيرهم .

ومن الادعاءات الزائفة لتبرير الاستعمار ادعاؤهم بأن للرجل الأبيض رسالة عليه أن يؤديها للشعوب المتخلفة ، وتشدق بهذا القول الكثيرون من رجال السياسة والفكر ، ويعبر عن هذا الرأي الكاتب وياث Wyath في كتابه Ethics of Empire فيقول : «إن واجبا محددا قد عينه القدر لنا - وليس لغيرنا - وهو أن نحمل مشعل النور والحضارة الى داخل الأماكن المظلمة في العالم ، وأن نلمس عقول أبناء آسيا وأفريقيا بالقيم الأخلاقية النابعة من أوربا » (13) وهذا القول فيه تجن على تلك الشعوب ، فالقيم الأخلاقية لم تنشأ في أوربا وحدها ، وإنما نزلت بها الديانات السماوية منذ آلاف السنين . ولم تكن تلك الشعوب بحاجة الى من يعرفها بها عن طريق القهر والبطش .

---

7 - رسكن ، جون (1819 - 1900) وهو كاتب وناقد فني انجليزي ، وإلى جانب تأييده للحركة الاستعمارية ، اهتم بدراسة المجتمع الصناعي الجديد وبيان مساوئه .
8 - تنيون ، الفريد (1809 - 1892) وهو شاعر انجليزي ويعد من أكبر شعراء العصر الفيكتوري .
9 - لورد سولسبري (1830 - 1903) من كبار رجال الدولة في بريطانيا وهو من حزب المحافظين وقد تولى رياسة الوزارة .
10 - فيري ، جول (1832 - 1892) وهو سياسي فرنسي كبير ، تولى رئاسة الوزارة الفرنسية في أعوام (1880 - 1881) و (1883 - 1885) وعرف بسياسته الاستعمارية .
11 - سيسيل رودس (1853 - 1902) وهو أحد رواد الاستعمار البيرطاني ومن أنشط رجال المال والسياسة الانجليز ، قضى شطرا كبيرا من حياته في جنوب افريقيا وكون شركة افريقيا الجنوبية ، وشجعته الحكومة الانجليزية على إنشاء مستعمرة روديسيا (زيمبابوي حاليا) سنة 1890 .
12 - كتشنر ، هوارشيو هربرت (1850 - 1916) مارشال بريطاني ، وأصبح وزيرا للحربية البريطانية عام (1914 - 1916)
13 - Langer, W L , Diplomacy of Imperialisme, p. 93.

ويرد على هذا الادعاء أحد كبار المؤرخين الفرنسيين المعاصرين وهو الأستاذ بيير رنوفن Pierre Renouvan بأن هذا القول «هو دائما مجرد شكل بسيط لتغطية المصالح أو الأطماع» (14).

كذلك روج بعض الكتاب والمفكرين الاجتماعيين لحركة الاستعمار بالمناداة بنظرية "الصراع من أجل البقاء" Struggle for Existance ، وعبر عن هذا الاتجاه رويارد كبلنج Ruyard Kipling (15) في عام 1308 هـ / 1890 م ؛ كما دعا هؤلاء الى نظرية أخرى وجدت صداها في الأوساط الاستعمارية وقتذاك ، الا وهي نظرية «البقاء للأصلح» Survival of the fittest ، وقد عبر عنها كبلنج بقوله «بأن الاستعمار هو صورة من صور الكفاح من أجل الحياة ، حيث ينتصر الشعب الأكثر استعدادا من الناحية الجثمانية والفكرية» (16).

وفي هذا المعنى أيضا يذكر الكاتب كارل بيرسون Karl Bearson (17) «أن التاريخ يطلعني على طريقة واحدة لا يوجد غيرها ، أدت الى قيام حالة حضارية هي الصراع بين الأجناس ، والبقاء للعنصر أو الجنس الأصلح في الجسم والعقل ... ان طريق التقدم تغطية أشلاء الأمم التي تبيد .... ان الشعوب التي بادت ، هي في حقيقتها الواضحة للعيان الدرج الذي رقاه الجنس البشري صاعدا نحو الحياة الفكرية الراقية والحياة الوطنية الراسخة التي نحياها اليوم».

---

14 - رونوفن ، بيير ، تاريخ العلاقات الدولية (1815 - 1914) تعريب دكتور جلال يحيى ، الاسكندرية 1968 ، ص 516.

15 - كبلنج، رويارد (1865 - 1936) من مؤيدي حركة الاستعمار وألف في هذا الموضوع كتابين هما : Departmental Ditties في عام 1886 ، و Take up the white man burden في عام 1899.

16 - رونوفن ، المرجع السابق ، ص 515.

17 - محمد محمود الروحي ، تاريخ أوربا الدبلوماسي - من السبعينات للقرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الأولى ، الإسكندرية 1966 ، ص 115 و 117.

وكأن البشرية في عرف هؤلاء الكتاب لن تتقدم الا على أشلاء الشعوب الضعيفة التي كانت ضحية الاستعمار والمستعمرين .

كذلك حمل بعض المفكرين لواء نظرية «التطور الاجتماعي» التي أدت الى ظهور فكرة تقسيم العالم الى مجموعات كبيرة ، فينقسم الى ثلاثة أو أربعة شعوب كبرى صالحة للبقاء ، وعلى الشعوب الضعيفة أن تموت أو تفنى أمام الدول القوية أو أن تخضع لها .

بل لقد بلغ الإسفاف والزيف في تبرير الاستعمار أنه نسب - حاشا لله - الى المشيئة الإلهية فيقول اللورد روزبري Rosebery (1264- 1349هـ 1847 - 1929 م) وهو من كبار حزب الأحرار في بريطانيا ، «أعتقد أن الانجليز بطارقة العالم ، وأنهم امبرياليون (مستعمرون) - لا لأنهم أرادوا ذلك - ولكن لقانون عالمي الهي يوجههم الى أداء ذلك الواجب» (18).

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الطمع في ثروات الشعوب الضعيفة ، والاستئثار بها لرفاهية شعوب الدول المعتدية كانت المحرك الأساسي لحركة الاستعمار . ويعبر عن هذا الرأي بصراحة تامة السير جوزيف أوستن تشمبرلن Sir Joseph Austen Chamberlin (19) فيقول : «هل هناك من يعتقد وهو في كامل وعيه أن السكان المكتظين في هذه الجزيرة (يقصد بريطانيا) يستطيعون أن يعيشوا ليوم واحد لو انقطعت عنا المناطق العظيمة التابعة لنا ، التي تتجه الينا طلبا للحماية والمساعدة ، والتي تشكل الأسواق الطبيعية لتجارتنا» (20) .

---

18 - نفسه ص 118 .

19 - تشمبرلين ، جوزيف أوستن (1836 - 1914) سياسي بريطاني ، شغل منصب وزير خارجية بريطانيا من 1924- 1929

20 - أنظر Foreign & Colonial Speeches

ورغم الصراحة التي يتصف بها هذا القول من مسؤول بريطاني كبير ، الا أن الزيف واضح في قوله أن تلك البلاد قد التجأت اليهم طلبا للمساعدة والحماية ، فالحقيقة أن كل البلاد التي خضعت للاستعمار قد وقعت بصورة أو بأخرى في قبضته ، نتيجة الغزو المسلح تارة أو التهديد والإجبار تارة أخرى ، ولم يكن ذلك برغبتها الحرة على أي حال .

بعد هذا العرض الموجز لما أوردناه من آراء وأفكار ، جاءت على ألسنة كبار رجال السياسة والفكر ، يتضح لنا أن الاستعمار قام أساسا على زيف في القول والعمل ، وأن القائمين على أمره لم يتورعوا عن تزييف أسبابه ، فهم بالتالي لن يتورعوا عن تشويه وتزييف تاريخ الأمة الإسلامية التي خضعت لحكمهم ، كي يتمشى مع أهدافهم ومصالحهم . والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولكنني سأتناول بعضها على سبيل المثال - لا الحصر - إذ أن المقام لا يسمح بغير ذلك.

أولا - موقف المؤرخين الأوربيين من الدولة العثمانية

مما لا شك فيه أن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرض للكثير من الدس والتشويه عبر تاريخها الطويل ، ويرجع ذلك منذ تأسيس الدولة الى عاملين رئيسيين : الأول أن العثمانيين المسلمين قد حلوا محل الدولة البيزنطية المسيحية التي عمرت أكثر من ألف عام ، وكانت دول أوربا تطمع في أن تحل محلها ، إذا كان لابد لها من الزوال ، ولا سيما روسيا التي كانت تدين بالديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكس ، وهو مذهب الدولة البيزنطية نفسه.

والعامل الثاني أن الدولة العثمانية هددت دول أوربا فترة طويلة ووصلت جيوشها الى أبواب مدينة فينا ، بعد أن أخضعت لحكمها دول

شرق أوربا المسيحية ، ودخلت جموع من شعوبها في الإسلام . كما أنها وقفت ضد أطماع البرتغاليين في الجزيرة العربية ، وأغلقت البحر الأحمر في وجه السفن المسيحية حماية للأراضي المقدسة في الحجاز من الاعتداء، وطهرت جزر البحر المتوسط من فرسان القديس يوحنا الذين دأبوا على مهاجمة سفن المسلمين ونهبها ، وحمت دول شمال إفريقيا من الهجمات الصليبية من قبل الإسبان والبرتغاليين ، فحفظت له إسلامه وعروبته ، ورفعت لواء الإسلام في وجه دول أوربا المسيحية ستة قرون، ولذا أخذت الحروب التي نشأت بينها وبين الدول الأوربية طابعا دينيا صليبيا (21) فكان لابد والحالة هذه أن ينعكس شعور الكره والتعصب على معظم الكتاب الأوربيين كراهية للدولة وللإسلام ، لاسيما وأنهم ربطوا بين الدولة العثمانية والإسلام ، فأي انتصار للعثمانيين هو انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية (22) .

وقد وجدت الشعوب المسيحية التي خضعت لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم أن تتخلص من هذا الحكم عندما ظهرت بوادر الضعف على الدولة العثمانية ، فبدأت الحركات القومية في الظهور بتحريض وتشجيع من الدول الأوربية تحقيقا لمطامعها في الدولة (23) وخصوصا روسيا التي كانت تعمل على نشر مبادئ حركة الجامعة الصقلبية بينها للعمل على تقويض السيادة العثمانية . ولما كانت روسيا هي الدولة الصقلبية (السلافية) الكبرى ، وشعوب البلقان الخاضعة للحكم العثماني من الصقالبة أيضا ، فكانت روسيا تمالئهم بإطلاق اسم «الأخوة الصغار» (24)

---

21 - عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها حدا القاهرة 1984 ، ص 15 .

22 - نفسه ص 15 .

23 - محمد محمود السروجي ، مصر والمسألة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، القاهرة 1966 ، ص 5 .

24 - Sumner, B.H., Survey of Russian History, London, 1945, p 20

عليهم .

بل ادعت لنفسها الحق في حمايتهم كصقالبة صغار من عدوان الدولة العنمانية . وفي حقيقة الأمر فإن تلك الشعوب قد تمتعت بامتيازات كثيرة وبنوع من الحكم الذاتي لم تنله الشعوب الإسلامية .

وقد تركز تشويه تاريخ الدولة العثمانية بشكل واضح في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (1293 -1327 هـ / 1876 - 1909 م) الذي تولى الحكم في أحرج فترة من تاريخ الدولة ، إذ كانت الدولة قد بلغت شأوا بعيدا من الضعف ، واكبته ذروة الأطماع الاستعمارية والصهيونية في ممتلكاتها . ففي مستهل عهده شنت روسيا على الدولة الحرب الروسية التركية (1294 - 1295 هـ / 1877 - 1878 م) وفرضت عليها معاهدة برلين (1295 هـ / 1878) التي اقتطعت أجزاء واسعة من ممتلكات الدولة في أوربا ، والتي ترتب عليها احتلال فرنسا لتونس عام 1298 هـ / 1881 م واحتلال بريطانيا لمصر عام 1299 هـ / 1882 م ، ثم احتلال فرنسا لمراكش عام 1330 هـ / 1912 م (25) .

وكان من أسباب مهاجمة الكتاب الأوربيين للدولة العثمانية في ذلك الوقت تبني السلطان عبد الحميد حركة (الجامعة الإسلامية) التي كانت ترمي الى توحيد صفوف المسلمين حول السلطان العثماني للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أطماع الدول الأوربية الكبرى . وحركة الجامعة الإسلامية في حقيقتها رد فعل للحركتين العدوانيتين اللتين عاصرتاها- وان اختلفت عنهما في الأسلوب وفي الهدف والغاية .

فإذا كانت الحركة الأولى وهي حركة الجامعة الجرمانية حركة

---

25 - السروجي ، مصر والمسألة الشرقية ص 303 - 310 .

عنصرية هدفها تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية للوقوف ضد أطماع حركة الجامعة الصقلبية تحت زعامة روسيا في شرق أوربا من جانب وضد أطماع فرنسا من جانب آخر ، فإن حركة الجامعة الصقلبية حركة عنصرية كذلك هدفها إثارة صقالبة شرق أوربا ووسطها تحت ستار تخليصهم من السيطرة العثمانية من جهة ومن النفوذ الألماني المتمثل في حركة الجامعة الجرمانية من جانب آخر (26) .

ومن ثم فالحركتان الجرمانية والصقلبية عدوانيتان ، بينما حركة الجامعة الإسلامية حركة دفاعية هدفها وحدة المسلمين والدفاع عن كيانهم تحت زعامة الدولة العثمانية من أطماع الدول الأوربية ، وما كان ذلك يرضي تلك الدول بحال من الأحوال .

ومن الموضوعات التي حاول معظم المؤرخين الأوربيين تشويه تاريخ الدولة العثمانية بها ، إسهامها في عزل البلدان العربية عن العالم الخارجي، مما كان له أكبر الأثر في تأخرها . ولكن الدارس لتاريخ الولايات العربية دراسة متأنية يرى أن هذا القول يفتقر الى الصحة ، فالدولة العثمانية عقدت معاهدات تجارية مع معظم الدول الأوربية ، وكانت تلك المعاهدات تسري على جميع أجزاء الدولة بما فيها الولايات العربية . كذلك نجد أن معاهدات الامتيازات الأجنبية قد أعطت للدول الأوربية صاحبة الامتيازات حرية التعامل مع تلك الولايات في مجالات كثيرة ، مما يدحض ما ذهب اليه هؤلاء المؤرخون من فكرة العزل (27) .

وكان لكتابات وليم ملنر William Milner (28) وغيره ممن عاصروا

26 - محمد مصطفى صفوت ، الاحتلال الانجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ، القاهرة 1952 ، ص ص 17 ، 18 .

27 - The Ottoman Empire and its Successors 1801 - 1927, London, 1927

28 - الشناوي ، المرجع السابق ص ص 690 - 829 .

السلطان عبد الحميد الأثر الكبير في تشويه تاريخ الدولة العثمانية في تلك الفترة . كذلك عاصر السلطان عبد الحميد نشأة الحركة الصهيونية ومؤازرة الدول الكبرى لها ، ومحاولاتها المستميتة بالسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، بالاغراء المادي تارة والتهديد تارة أخرى ، ووقوف السلطان من ذلك كله موقفا صلبا لا يلين محافظا على عروبة فلسطين ما استطاع الى ذلك سبيلا، مما دفع دعاة الصهيونية وكتابها الى مهاجمته وتشويه صورته أمام العالم الخارجي .

ثانيا : الحملة الفرنسية على الجزائر 1245 هـ / 1830 م

تمثل الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1245 هـ / 1830 م مثلا آخر من أمثلة تشويه تاريخ الشعوب الإسلامية ، إذ اتخذت فرنسا من حادثة المنشة (المروحة) سببا جوهريا لمهاجمة الجزائر دفاعا عن شرفها وكرامتها التي أهدرت (29) ولم يكن هذا هو السبب الحقيقي للغزو ، فالتفكير في احتلال الجزائر سابق على هذه الحادثة بسنوات أرجعها عباس فرحات (30) الى عام 1231 هـ / 1815 م وفيها هزم نابليون بونابرت وفقدت فرنسا أجزاء واسعة من إمبراطوريتها ، تنازلت عنها لبريطانيا ، ومن ثم رأت فرنسا أن تستعيض عنها بدول المغرب العربي ولتكن البداية بالجزائر كنقطة انطلاق نحو الاستيلاء على المغرب العربي بأكمله (31) .

والحقيقة أن قوة الجزائر البحرية قد ازدادت زيادة كبيرة في البحر

---

29 - كوليت وفرانسيس جانسون ، الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد علوي الشريق وآخرين ، دار الهلال 1957 ، ص ص 9 ، 10.

30 - مجاهد جزائري من رجال الحركة الوطنية في الجزائر ، وأول من تولى رئاسة الحكومة الجزائرية المؤقتة التي أقيمت بالقاهرة عام 1958 ، و ورد هذا القول في كتابه ، حرب الجزائر وثورتها (ليل الاستعمار) ترجمة أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة، المغرب ، ص 9 .

31 - صلاح العقاد ، المغرب العربي (الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى) دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة ، ط 2 و القاهرة 1966 ، ص 86 .

المتوسط (32) وتمكنت بهذه القوة البحرية أن تحفظ التوازن في القوى في الحوض الغربي للبحر المتوسط وأن تحمي السفن الإسلامية فيه ، وذلك خلال القرون الثلاثة السابقة على الاحتلال الفرنسي لها . وكانت العلاقات بينها وبين فرنسا في مد وجزر ، فأحيانا يسودها السلام بناء على اتفاقيات ، وأحيانا أخرى تهاجم كل منهما سفن الأخرى في البحر المتوسط ، وكان الكتاب الفرنسيون يطلقون على إغارات السفن الجزائرية بأنها أعمال قرصنة (33) ولكنهم يطلقون على ما يقومون به ضد السفن الجزائرية بأنه دفاع عن النفس.

وعلى أية حال كانت فرنسا حريصة على استمرار علاقتها مع الجزائر ، فكلما تعكر صفو تلك العلاقات حاولت إعادتها الى صفائها مرة أخرى ، حرصا منها على سلامة سفنها ، وتحقيقا لمصالحها الاقتصادية ، وحفاظا على امتيازاتها التجارية ضد منافسة الدول الأجنبية (34) .

واتصفت عملية الغزو الفرنسي للجزائر 1245 هـ / 1830 م بالتعصب الديني من قبل فرنسا ، فيذكر الملك شارل العاشر - الذي حدث الغزو في عهده - بأنه لم يراع في هذه العملية سوى كراهية فرنسا للجزائر (35) .

---

32 - Lacoste , Y., l'Algérie passé et présent, Paris, P 180.

33 - Julien, Ch.A., Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie-Algérie - Maroc de la Conquête Arabe à 1830 (2ème éd) Paris, 1966, PP 286 & 287

34 - De Grammont, H.D., Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830, Paris, 1887, P 248

35 - عباس فرحات ، المصدر السابق ، ص 10 .

لم تكن الكراهية وحدها هي الدافع للغزو ، فالمشكلات الداخلية التي تعانيها فرنسا وقتذاك كانت لها نصيب كبير في دفع حكومة فرنسا الى التفكير في القيام بمغامرة خارجية لتوجيه السخط الداخلي، الذي قد يطيح بها ، الى هذه المغامرة ، الا وهي غزو الجزائر (36) . بل إن من جاءوا بعد شارل العاشر من الملوك ساروا في نفس الاتجاه ، وأكدوا عدم تخليهم عن الجزائر ، لأن في ذلك إغضابا للمسيحيين في كل مكان وهم الذين فرحوا بهذا الغزو وباركوه . (37) وإن تمسك فرنسا بالجزائر يعتبر تضحية منها في سبيل نشر الحضارة بين القبائل الجزائرية ، وحتى لا يقعوا في براثن استعمار آخر كالاستعمار التركي (38) .

وفي هذا القول رجوع الى ما سبق أن ذكرته في مقدمة البحث ألا وهو التذرع برسالة الرجل الأبيض وحرصه على نشر الحضارة والثقافة بين القبائل الجزائرية . ولكن الحقيقة تثبت عكس ما زعموه . فلو نظرنا الى التعليم في الجزائر عند مجئ الفرنسيين إليها نجد أن عدد المدارس الابتدائية وحدها في مدينة الجزائر عام 1245 هـ / 1846 م بلغ مائة مدرسة (39) ، لم يبق منها في عام 1836/1262 - أي بعد الاحتلال الفرنسي بست عشرة سنة - سوى أربع عشرة مدرسة (40) . ضربنا هذا المثل بمدينة واحدة في الجزائر دون أن نذكر ما حدث في سائر المدن لأن هذا ليس موضوع دراستنا .

---

36 - Ageron, Ch Robert, Histoire de l'Algérie Contemporaine (1830-1976) P V F , 1982, PP 5 & 6

37 - سليمان الهادف فريري ، القوى الوطنية في الجزائر ومقدمات الثورة التحريرية (1945 - 1954) ، رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية ، غير مشورة ، ص 18 .

38 - كوليت وفرانسيس جانسون ، المصدر السابق ، ص 9 .

39 - المصدر السابق De Grammont, P. 229

40 - المصدر السابق Lacoste, Y, P. 130

وعلى أية حال فإن نصف المؤسسات التعليمية قد اختفى من ولاية الجزائر في الفترة فيما بين عامي 1245 - 1265 هـ / 1830 - 1850 م (41). وهذا يؤكد زيف ما ادعاه معظم الكتاب الفرنسيين من عدم وجود تعليم في الجزائر في العهد العثماني، وأن فرنسا هي التي عملت على نشره بعد احتلالها للبلاد.

ثالثا - مصر في ظل الاحتلال البريطاني (1299- 1332 هـ / 1882 - 1914م)

ادعت بريطانيا على لسان ممثلها في مصر ايفلن بيرنج (اللورد كرومر) بعد الاحتلال عام 1299 هـ / 1882 م بأن مهمتها في مصر هي العمل على تحسين حال الفلاح ورفع الظلم عن كاهله، وأظهر صداقته للفلاحين وأطلق عليهم «أصحاب الجلابيب الزرقاء» وحاول التخفيف عليهم من بعض الضرائب.

وكان الهدف من انتهاج تلك السياسة إزاء الفلاحين، وهم يمثلون أغلبية شعب مصر، ما قاموا به من دور بارز في مساندة الثورة العرابية نتيجة لسوء أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وكثرة الضرائب، وفرض السخرة، واستبداد الحكام، وطلبا في تحسين أحوالهم. وفي عهد الخديو اسماعيل (1279 - 1296 هـ / 1863 - 1879 م) سرى في البلاد نوع من اليقظة والوعي، وذلك لانتشار الصحف والمجلات، ولتعاليم جمال الدين الأفغاني، ونشاط تلاميذه، وكان للفلاح نصيب منها، ووجد الفلاحون في عرابي الأمل الذي يرتجى (42). لاسيما وأن أوضاعهم الاقتصادية قد وصلت إلى أدنى درجة من التدهور في أواخر أيام هذا

---

41 - نفسه ص 131

42 - لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1981، ص 297.

الوالي ، نتيجة للأزمة الاقتصادية الحادة التي مرت بالبلاد (43) .

وكان لخطورة الدور الذي قام به الفلاحون في الثورة أن عزمت سلطات الاحتلال على تصفية قوتهم والعمل على إضعافهم . بل إن ما قاموا به قد أفزع كبار ملاك الأرض . ولذا وجدوا من مصلحتهم التعاون مع سلطات الاحتلال حفاظا على مصالحهم . ومن ثم رأت بريطانيا أن تعتمد على طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية في تثبيت دعائم وجودها في مصر ، وأن تربط مصلحتهم بمصلحتها . وبدأت تلك السلطات بتصفية كاملة للثورة في الريف المصري ، فاعتقلت من الفلاحين ما يربو على 29000 نسمة (44) .

كما قامت السلطات بفصل حوالي 250 من صغار ضباط الجيش من أبناء الفلاحين ، وجردوهم من رتبهم جزاء عصيانهم - وبدأت تخيم على البلاد فترة من الظلام في أعقاب فشل الثورة ، ونفي وسجن وتشريد القائمين بها .

ونظرا لتعارض مصالح هذه الطبقة مع مصالح السواد الأعظم من الفلاحين فقد آثرت سلطات الاحتلال الوقوف الى جانب كبار ملاك الأرض في أحيان كثيرة مضحية بجمهرة الفلاحين . وهنا ظهر التناقض واضحا بين أقوال هؤلاء المحتلين وتصرفاتهم الفعلية ، فأدرك الفلاحون خداع المحتلين .

ولما كنت مصر دولة مدينة للعديد من الدول والمؤسسات المالية الأجنبية ، أصبحت بريطانيا بحكم إدارتها للبلاد مسؤولة أمامها عن سداد

43 - محمد محمود السروجي ، الجيش المصري في القرن التاسع عشر ، دار المعارف 1967 ، ص ص 537 - 556 .
44 - نفسه ، ص 588 .

الديون وأقساطها . ولذا بدأت تعمل على زيادة موارد مصر عن طريق إنشاء العديد من مشروعات الري اللازمة لزيادة مساحة الأرض الزراعية، وأن تتبع سياسة التخصص الاقتصادي بالاعتماد على الزراعة ولا سيما زراعة القطن (45) اللازم لمصانعها ، أي أنها سخرت اقتصاد مصر لخدمة الاقتصاد الانجليزي .

ومن ثم بدأت بإصلاح القناطر الخيرية سنة 1304 هـ / 1886 م وأنشأت قناطر أسيوط عام 1321 هـ 1902 م وخزان أسوان في العام نفسه، وقناطر زفتى في العام التالي ، فزادت بذلك مساحة الأراضي الزراعية في مصر من 000 . 758. 4 فدان عام 1299 هـ / 1882 م الى 5.400.000 فدان في عام 1323 هـ / 1905 م (46) . وكان المستفيد الأول من هذه المشروعات بريطانيا أولا ، ثم طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية ، وحملة سندات الدين المصري (47) . بينما لم يستفد صغار الفلاحين شيئا يذكر ، وذلك لكثرة الضرائب ، وقلة إنتاجية الأرض واستبداد وظلم كبار ملاك الأراضي لهم .

حدث كل ذلك في الوقت نفسه الذي أخذ المعتمد البريطاني في مصر يتشدق بصداقته للفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء ، وبأوضاعهم التي تحسنت كثيرا في ظل الإدارة الانجليزية . وإذا كانت سلطات الاحتلال قد خفضت بعض الضرائب في مستهل حكمها وألغت البعض

---

45 - محمود ابراهيم الشواربي ، حركة الفلاحين في مصر مابين ثورتي 1882 - 1919 ، رسالة ماجستير غير مشورة ، كلية الأداب ، جامعة الاسكندرية عام 1978 ، ص 169 .

46 - Chrouchley, The Economic Development of Modern Egypt, PP. 152 - 153

47 - رؤوف عباس ، النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة 1837 - 1914، الطبعة الأولى ، دار الفكر الحديث ، القاهرة 1973 ، ص 113 .

الآخر ، فقد أثبتت الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع ، بأن ما تم بشأن الإلغاء إنما يرجع الى أن نفقات جبايتها تبتلع معظم العائد منها (48) .

ومع ذلك ظلت الضرائب المفروضة على الفلاحين ثقيلة ، وبلغت جملة الحجوزات الإدارية التي وقعت عليهم في الفترة من 1310 - 1321 هـ/1893 - 1903 م 323259 حجزا ، ونفذ البيع بالمزاد في 2640 حالة ، بلغت مساحة الأراضي المباعة فيها 53880 فدانا (49) ، وتوالت بعد ذلك الحجوزات التي تقدر بعشرات الآلاف في السنوات التالية . وترتب على ذلك ضياع الكثير من الملكيات الصغيرة سدادا للديون ، وانتقلت ملكية تلك الأراضي الى الأعيان ومشايخ القرى وبعض اليونانيين والسوريين (50) .

وفي عام 1301 هـ / 1884 م يوجه اللورد كرومر ضربة أخرى الى صغار الفلاحين وذلك بإلغاء مجانية التعليم ، فحرم بذلك أبناء الفقراء منهم والذين يمثلون السواد الأعظم من الشعب المصري من تلقى العلم ، بحجة أن من يرغب في العلم فعليه إثبات ذلك بدفع نفقاته (51) .

وأدى انتشار الجهل بين الفلاحين الى سوء أوضاعهم الاجتماعية والمادية والصحية . ولم تكن سلطات الاحتلال تعبأ بما يصيب الفلاحين من أمراض ، لأن سياستها الصحية كانت وقائية فحسب وليست علاجية (52) .

أما عن حادثة دنشواي (53) (1324 هـ / 13 يونيه 1906 م) التي أسقطت القناع عن وجه كرومر ، وأظهرت زيف ادعاءاته بالعطف على

---

48 - رؤوف عباس ، مذكرات محمد فريد ، القسم الأول ، ص 67 .

49 - جرجس حنين ، الأطيان والضرائب في القطر المصري ، القاهرة 1322 هـ / 1904، ص 627 .

Baer, G A History of Landowmership in Modern Egypt London . 1962 P 36 - 50

Cromer, (Earl), Modern Egypt, 1908, P 532 - 51

Colvin, Sir Aucland, The making of Modern Egypt, 1938, P. 313 - 52

53 - دنشواي قرية صغيرة تابعة لمركز منوف ، اشتهرت بكثرة أبراج الحمام الذي يربى فيها من قبل الفلاحين .

الفلاحين والعمل على إصلاح أوضاعهم ، فالحادثة تمثل غضبة الفلاحين من قوات الاحتلال التي كانت دائمة التوغل في أرجاء الريف المصري فيما بين القاهرة والاسكندرية ، لأرها ب الفلاحين والقضاء على روح التدمر والغضب من تلك القوات (54) ومن سياسة المحتل الزراعية التي أثرت كبار ملاك الأراضي ، فزادت دخولهم ، واتسعت ملكياتهم ، بينما كادت تنقرض الملكيات الصغيرة ، فضلا عن كثرة عدد المعدمين . فجدور الحادثة ترجع الى السنوات السابقة عليها ، وما عاناه الفلاحون من سلطات الاحتلال .

وخلاصة الحادثة أن بعض الضباط الانجليز وهم في طريقهم من القاهرة الى الاسكندرية قد توقفوا عند بلدة منوف ، وأبدى بعض الضباط رغبتهم لمأمور المركز في الصيد في قرية دنشواي ، فوافق على طلبهم وأعد لهم المركبات اللازمة لذلك ؛ وهناك توغل أحد الضباط داخل القرية ، وصوب طلقاته على أحد أجران القمح ، فصاح به أحد الفلاحين بأن يكف عن إطلاق النار وإلا احترق الجرن ، فلم يأبه لتحذيره وواصل طلقاته فقتل امرأة وأشعل النار في أحد الأجران ، فتجمع أهل القرية للإمساك به ، فهب زملاؤه لنجدته ، وجرى ضابطان آخران في اتجاه معسكرهما للالتجاء به ، وكان الحر شديدا فسقط أحدهما ميتا من ضربة الشمس (55) .

---

54 - محمد جمال الدين المسدى ، دنشواي ، مطبوعات مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1947 ، ص ص 7 ، 8 .

55 - نفسه ص 75 .

وما ان علمت سلطات الاحتلال بالحادث حتى طاش صوابها ، وعزمت على الانتقام من الفلاحين وأن تنزل بهم أشد أنواع العقاب ، فقبضت على 250 فردا وحاصرت القرية بقوات كبيرة العدد ، وقدم المتهمون للمحاكمة أمام المحكمة المخصوصة ، وأقيمت المشانق في القرية قبل أن ينتهي التحقيق ، مما يدل على النية المبيتة لضرب الحركة الوطنية في هؤلاء المتهمين .

واستغل الزعيم مصطفى كامل هذه الحادثة لمهاجمة السياسة البريطانية في مصر وفي أوربا بكل شدة وعنف منددا بعدالة الانجليز في دنشواي (56) . وصدر الحكم بإعدام أربعة فلاحين شنقا ونفذ الحكم داخل القرية ، وحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة 15 عاما على واحد ، وبالأشغال الشاقة لسبع سنوات على ستة ، وبالحبس والشغل مدة سنة والجلد خمسين جلدة على أربعة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة أفراد .

حدث هذا رغم أن تقرير الطبيب الشرعي الانجليزي قد أثبت أن الوفاة كانت بسبب ضربة الشمس ، وليست نتيجة عدوان وقع عليه .

لاريب ان الحادثة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك زيف ما تغنى به كرومر طوال فترة وجوده في مصر ، من صداقته للفلاحين ، وعطفه عليهم والعمل على إصلاح أحوالهم ، ومعاملتهم بالعدل .

فما دونه كرومر في كتابه Modern Egypt عن سياسة بريطانيا في مصر به تشويه لتاريخ تلك الفترة وقلب للحقائق . ومما يؤسف له أن الكثيرين من المؤرخين الأجانب والعرب قد نقلوا عنه ، بصفته مصدرا

---

56 - محمد محمود السروجي ، ثورة 32 يوليو 1952 ، جذورها وأصولها التاريخية ص 113 .

هاما من مصادر تاريخ تلك الفترة .

ولذا كان على بريطانيا ، بعد أن تعرت سياسة كرومر أمام المصريين ، أن تسحبه من مصر ، وأن تستبد له بغيره يختلف عنه في الأسلوب ولكن لا يختلف عنه في الغاية .

ويمكننا القول أن هذه الحادثة أدت الى نشاط الحركة الوطنية ، وإلى سيادة روح التذمر والبغض لدى كل المصريين ، ولا سيما الفلاحين (57) .

ولذا لم يكن من قبيل الصدفة أن تقوم ثورة 1337 هـ / 1919 على أكتاف الفلاحين في مرحلتها الأولى ، وكانت عنيفة ومدمرة .

ونظرا لأن سلطات الاحتلال كانت تخشى من انتقام الفلاحين بعد تلك الحادثة إذا ما أتيحت لهم الفرصة المناسبة ، فقد لجأت في سنتي 1334 - 1335هـ/ 1915 - 1916 م إلى نزع ما بأيديهم من أسلحة بلغت ما لا يقل عن مائة ألف قطعة مختلفة الأنواع والأحجام (58) فقل ما بأيديهم من أسلحة ، وترتب على ذلك كثرة ما سقط منهم من ضحايا خلال ثورة 1337 هـ /1919 م .

من الأمثلة السابقة يتضح لنا أن الدول الاستعمارية كثيرا ما لجأت الى تزييف الحقائق التاريخية وتشويهها ، كي تتفق مع أهدافها ومع سياستها الاستعمارية التي رسمتها لحكم الشعوب المقهورة ، والتي تهدف في المقام الأول تحقيق مصالحها أولا وقبل كل شئ . وأن منطق القوة الغاشمة قد دفعها الى العبث بكل شيء ، بمقدسات تلك الشعوب وبقيمها ، وعاداتها وتقاليدها ، وتاريخها ، ومثلها الأعلى في ذلك «الغاية تبرر الوسيلة» . والله ولي التوفيق.

---

57 - عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت 1975 ، ص 377 .

58 - F.O 407 / 184 no 120 Memorandum by Sir R Graham on the unrest in Egypt

مستقبل الموارد المائية في الوطن العربي

الدكتور عبد الله العوينة
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب - الرباط

يشكو العالم العربي من نقص هام في موارده المائية ، وخاصة منها الموارد الداخلية ، فالمياه المتجددة في الوطن العربي لا تمثل الا أقل من 1 ٪ من الثروات المتجددة في العالم . كما أن نصيب الفرد العربي لا يتجاوز 1744 م3 في السنة ، بينما المعدل العالمي يصل الى 12900 م3 في السنة (الشويكي ، 1991) وعدم الانتظام الزمني يزيدان مشكلة الماء تفاقما وخطورة . ولا شك أن هذا الوضع وليد الظروف الطبيعية العامة للعالم العربي . ذلك أن 80 ٪ من المساحة العامة للوطن العربي عبارة عن أراض منبسطة ، الشيء الذي يساعد على تبخر المياه المتهاطلة ، بينما الأراضي الجبلية التي تساهم عادة في تغذية المجاري ، محدودة الامتداد. والجيولوجيا عنصر مساعد على تخزين المياه حيث تمتد طبقات رسوبية راشحة ، خاصة في شبه الجزيرة العربية وفي الصحراء الكبرى . أما المناخ فهو القاسم المشترك الأساسي حيث ينتمي جل الوطن العربي للحزام الجاف وشبه الجاف ، والصحراء الحقيقية تغطي 43 ٪ من المساحة الاجمالية . ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا جنوب السودان ، وبعض جبال اليمن ، ومرتفعات المغرب العربي وجبال الشام .

1) الموارد الحالية

1 - 1 - الموارد السطحية

شح الأمطار وامتداد الصحاري عنصران يفسران الدور الثانوي الذي تلعبه المياه السطحية النابعة من قلب الوطن العربي ، إذا استثنينا غرب الشام والمغرب العربي . فجل الوديان قصيرة ومؤقتة الجريان ، وتبقى أهم المصادر السطحية تلك التي تعبر الوطن العربي قادمة من افريقيا الشرقية (حالة النيل) أو من الجبال التركية أو الإيرانية (الرافدين) .

أ - المياه السطحية في المغرب العربي :

عدة مرتفعات جبلية ، بعضها خزانات حقيقية ، تمثل المصدر المغدي لأنهار هامة ، تصب في البحر المتوسط أو المحيط الأطلنتي ، بينما البعض الآخر ينزل تجاه الصحراء حيث تختفي مياهه .

والإتاحات المائية الإجمالية تساوي 48 كم$_3$ من المياه القابلة للتعبئة . منها 13 كم$_3$ مستعملة حاليا . جل هذه الموارد مركز في المغرب الأقصى ، وتدل الإحصاءات على اتساع الإمكانيات المستقبلية لهذا الجزء من الوطن العربي حيث لا يستعمل المغرب الأقصى حاليا سوى 33 ٪ من امكاناته (المجلس الأعلى للماء ، الرباط ، 1990) .

ويختلف استخدام المياه السطحية حسب المجال الجغرافي . ففي الحاشية الصحراوية ترتكز الحياة الفلاحية على الري ابتداء من بعض المجاري القادمة من الأطلس (مثال تافيلالت جنوب المغرب) . وبناء السدود الحديثة على هذه الأنهار سمح بتنظيم السقي والرفع من فعاليته . أما في السهوب الداخلية نصف الجافة ، فإن سهول قدم الجبال قد عرفت انشاء قطاعات سقوية هامة (مثال تادلة والحوز) . وفي المجالات الجبلية ، عنف

المياه إضافة الى قلة امتداد الرقعة الزراعية ، يمثلان عائقا هاما . كما أن السهول المجاورة مهددة دائما بالفيض . لذا فإن التهيئة سعت في نفس الوقت الى تنظيم الصبيب عن طريق التخزين والى الحد من خطورة الفيض . ومشاريع سبو ومدجردة أحسن الأمثلة عن هذا الوضع (قصاب وستهم ، 1980) .

ب - المياه السطحية في الشام الغربي (الشرق الأدنى)

يتحكم الوضع التضاريسي والبنائي في توزيع المياه داخل هذا المجال الذي ينتمي للأخدود الكبير السوري -الافريقي ، والذي يعتبر ذا بنائية نشيطة تتمثل في فوالق هامة هي المسؤولة عن توزيع التضاريس في جبال لبنان ومنخفض الأردن والمرتفعات الشرقية . وأهم الأنهار تحتل موقع المنخفض الطولي لأخدود الشام .

حوضان نهريان كبيران يتفرعان عن المجموعة الجبلية التي تمثلها مرتفعات لبنان الشرقية. حوض العاصي يتجه شمالا الى أن يلتقي بروافد قادمة من تركيا ، فيصب في البحر . وحوض الأردن يتجه جنوبا عبر بحيرة طبريا لينتهي عند البحر الميت ، بعد استقباله لليرموك والمجاري من مرتفعات الأردن . ومياه الشرق الأدنى تعتبر موارد لابأس بها . لكن الحدود السياسية بين الدول وخاصة التجاور مع إسرائيل يطرح إشكال السطو الذي تحاول من خلاله هذه الدولة الاستيلاء على موارد الأردن والجنوب اللبناني (خليفة ، 1991)

ج - مياه السيل في المناطق الصحراوية :

تمتاز المناطق الصحراوية ضمن الوطن العربي بفقر مياهها السطحية. ولا تخرج عن هذه القاعدة سوى بعض الكتل الجبلية التي تغذي سيولا

مؤقتة هي نفسها تغذي فرشات مائية باطنية . وتدخل في هذا الاطار جبال الهكار وتبستي بوسط الصحراء الكبرى ، ومرتفعات عسير على ساحل البحر الأحمر. بعض هذه المياه ينزل بسرعة الى البحر . والبعض الآخر ينزل نحو سطوح الصحراء . وكمية المياه التي تنزل الى البحر الأحمر في الجزء السعودي ، تم تقديرها بحوالي 1.4 كم3 سنويا (عثمان ، 1983) الا أن جل هذه المياه لا يتم الانتفاع بها وذلك بسبب سرعة تدفقها وفجائية صبيبها. أما المجاري الداخلية فهي أطول لكنها أقل صبيبا . وتزيد أهمية السيول في القطر اليمني . وقد استغلت هذه السيول منذ القديم وقامت عليها حضارة اليمن الزراعية الشهيرة بتجهيزاتها ومنشآتها .

د - الأنهار العابرة : النيل ، والفرات ودجلة

د - 1 - المياه السطحية في السودان ومصر : معجزة النيل

تمتد شمال السودان وفي مصر صحراء قاحلة يخترقها حادث جغرافي فريد من نوعه ، كان إطار بزوغ إحدى اعرق الحضارات العالمية ، ويتمثل في نهر النيل الذي ترتكز حوله الفلاحات الغنية والسكن الكثيف. هذا النهر يعتبر عطاء يسميه الفلاحون "بحرا" وتم تأليهه من طرف الحضارات القديمة ، يمثل في نفس الوقت الخشية عندما يزيد الفيض عن مستواه العادي ، والأمل لأنه سنويا يحيي الأراضي الممتدة (بوزنسون ، 1957) .

يمثل النيل الأبيض الصبيب القاعدي بسبب انتظامه النسبي ، لكن نصيبه متواضع على المستوى السنوي (أقل من ثلث الصبيب السنوي) وهو يتعرض لتبخر الكثير من مياهه في منطقة السدود .

أما النيل الأزرق والعطبرة فهما المسؤولان الأساسيان عن فيض

النيل السنوي وعن امتداد الرقعة الزراعية . ويرتفع صبيب النيل الأزرق ليصل ما يقترب من 6000 م3/ ث في نهاية الصيف .

والتبخر في الصحراء مسؤول عن تقليص القدر الإجمالي للصبيب حيث لا يصل الى البحر سوى ثلث الموارد .

كما أن هذا المورد الهام يتسم بعدم الانتظام من سنة الى أخرى (ابراهيم ، 1987) . وبسبب توالي سنوات الخصاص ، وسنوات الفيض المفرط ، تم التفكير في تجهيز الحوض بشكل يضمن الحصول على المياه الكافية ، دون حدوث خسائر .

وتوالت التجهيزات منذ القديم الى حين بناء السد العالي الذي يهدف الى التخزين المستديم لمقاومة سنوات جفاف متوالية. سعة التخزين تصل الى 120 كم3 مع انتاج 10 مليار كلواط / ساعة من الكهرباء . كما تم الاتفاق على إنشاء قنوات تحويل في العالية لضمان استمرار تدفق المياه . وتقف المشاكل السياسية والأمنية دون اتمام هذه المشاريع (ناف وماتسون، 1984) .

ورغم مختلف هذه المشاريع تشكو مصر من نقص في المياه إذا اعتبرنا نموها السكاني واتساع حواضرها . والعجز المائي يعتبر سببا أساسيا يحد من امكانيات التوسع الفلاحي والاقتصادي .

د - 2 - المياه السطحية في الصحراء السورية - العراقية : مياه دجلة والفرات . الصحراء السورية -العراقية ذات مناخ قاري ، تشرف عليها جهة الشمال والشمال الشرقي جبال تكسوها الثلوج ، بينما جل المجال السوري - العراقي يوجد في منطقة حيث الأمطار تقل عن 300 مم ، وجل هذه الموارد تتبخر بعد سيل قصير . ولذا فجل الموارد المائية قادمة

من خارج الأرض العربية. فخمسون في المائة من إيراد دجلة والفرات من تركيا و 30 ٪ من إيران . (المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، 1981) .

تنطلق دجلة من الطوروس الشرقي وتخترق أولا أراضي مغذية بالماء تمثل 55 ٪ من حوضها ، جلها في جبال تركيا وإيران وتلال شمال العراق . ثم يتلقى النهر روافد هامة قادمة من إيران . وارتفاع الحرارة والتبخر في السهل العراقي ، سبب في تمليح المياه التدريجي ، إلى حين الالتقاء بنهر الكارون حيث تصبح الملوحة معتدلة من جديد . وقد أقيمت المشاريع العديدة على دجلة وروافدها من أجل تأمين المياه وتخزينها ، وللوقاية من الفيض . وسد الموصل الذي أقيم سنة 1986 بسعة 13 كم$_3$ يسمح بالسيطرة على موارد العالية التركية وتنظيم الجريان ، كما يضمن صبيب 32 كم$_3$ سنويا . وشيدت سدود أخرى متعددة على روافد دجلة ، رفعت المقدار المائي المضمون وسط العراق الى حوالي 40 كم$_3$ (الكسان ، 1991).

أما الفرات فهو قادم من هضبة الأناضول بوارد عام يصل الى حوالي 30 كم$_3$. أنشئت عليه سدود تركية حدينة ، أهمها سد أتاتورك ، كان لها صدى تخفيض الوارد المائي الى سوريا (انخفاض الوارد عند مدخل سوريا الى 13 كم$_3$) . أما سد الفرات السوري فهو يسمح بري 150000 هكتار وينتج 2.5 مليار كلواط / ساعة . وفي العراق أقيمت العديد من المشاريع على الفرات من أهمها سد الحبانية الذي يملأ منخفضا بسعة 3.3 كم$_3$ (المنظمة العربية للتنمية الزرعية ، 1981) .

والحاجيات السورية-العراقية من مياه الفرات ترتفع الى 24 كم$_3$ ، بينما لم يبق يصل الى البلدين سوى 13 كم$_3$. وهذا يطرح إشكال اقتسام الثروة المائية بين الدول الثلاث بحدة كبيرة (خليفة ، 1991) .

1 - 2 - الموارد الجوفية :

نصيبها مرتفع في الوطن العربي ، خاصة إذا اعتبرنا جفاف المناخ وأهمية التبخر . المياه الجوفية مقدارها حوالي 42 كم3 وتساوي 15 ٪ من مجموع الموارد كما يتوفر الوطن العربي على مياه جوفية موروثة أي غير متجددة ، تمثل رصيدا ضخما في الصحراء الكبرى وصحراء الجزيرة العربية (خوري والدروبي، 1990) .

وينقسم الوطن العربي الى عدة أحواض هدروجيولوجية :

أ - شبه الجزيرة العربية :

تتكون شبه الجزيرة من درع قديم غربا ، صخوره ضعيفة النفاذية ، يعتبر فقيرا من المياه الجوفية وان كان مجال تغذية هام ، ومن حوض رسوبي ممتد حتى جبال عمان وسلاسل ايران شرقا ، غني بالطبقات الحاملة للماء .

وتنحني طبقات هذا الحوض نحو سواحل الخليج بسمك يتعدى 5000 م ، ويتألف من طبقات جيرية ورملية . وتتدفق عن هذه الطبقات بعض العيون الارتوازية . بعض الفرشات موروثة بينما البعض الآخر متجدد التغذية . وتستعمل هذه المياه في عديد من الأحواض لأغراض زراعية أو لتغذية المدن بالماء الشروب (خوري والدروبي ، 1990) .

ب - الشرق الأدنى :

جبال الشرق الأدنى مجال تغذية الهلال الخصيب بالمياه الجوفية التي تعتبر أساس بزوغ حضارات راقية ، وذلك لأن منابع هذه المياه تغذي مباشرة المدن والقطاعات الزراعية ، وتمثل منطلق أهم أنهار المنطقة كالليطاني والعاصي والأردن .

تتلقى سلسلة لبنان ودمشق أمطارا هامة وثلوجا تنزل على صخور كلسية راشحة . وهذا ما يفسر غنى الخزانات الباطنية وصبيب الينابيع الكبرى (الحكيم ، 1982) مثل نبع بردى ، وجعيطة وانطلياس ، والعين الزرقاء .

وتتضمن هضبة فلسطين طبقة مائية تنحني نحو الغرب تجاه الساحل الا أن كثرة المضخات الاسرائيلية تستنزف حاليا هذه المياه (خليفة ، 1991).

ج - المياه الجوفية في سهول العراق :

تركيب العراق شبيه بحوض تحيط به حواش مغذية وهذا ما يجعل منه وضعا ملائما لتخزين المياه الباطنية ، وتصدر عدة عيون على هوامش هذا السهل . بينما في أراضي ما بين النهرين ، اقتراب الفرشة المائية من السطح أدى الى تعرضها للتبخر وبالتالي الى ارتفاع درجة ملوحتها . لكن حاليا ، وما دامت المياه السطحية غزيرة ، فإنه لا يستفاد إلا بقسط محدود من المياه الجوفية.

ح - وادي النيل والدلتا :

في غرين النيل فرشة مائية هامة تكون رصيدا إضافيا ، هو في حالة ارتفاع مطرد بسبب استمرارية السقي الشئ الذي يهدد الكثير من الأراضي الزراعية بالميهة والملوحة . وحركات الماء الجوفي خاضعة أساسا لارتفاع مستوى النهر . وهي تنحني حاليا نحو البحر والنهر . وفي الشمال تتصل بعض هذه الفرشات الحبيسة بمياه البحر ، الشئ الذي يرفع ملوحتها الى مقادير عالية .

هـ - المياه الجوفية في الصحراء الشرقية والسودان والقرن الافريقي :

في شمال شرق افريقيا ترتفع أهمية المياه الجوفية وذلك بسبب امتداد مصادرها في وقت تكون فيه مياه النيل السطحية محورية ومحدودة. وتمثل هذه المياه الجوفية تعويضا يغذي المراكز والواحات المتباعدة. فجنوبا وعلى سواحل البحر الأحمر تبرز القاعدة القديمة لتختفي غربا وشمالا تحت سمك هام من الرواسب الحنية الحاملة للمياه (خزان الحجر الرملي النوبي). هذا الخزان يمتد على 2 مليون كم^2 ويحتوي على ما مقداره 75000 كم^3 من المياه الموروثة التي لا تتجدد الا بقسط ضعيف (خوري والدروبي، 1990).

و - المياه الجوفية في الصحراء الكبرى الغربية

جنوب الأطلس تمتد سهول وهضاب صحراوية تعلوها بعض السلاسل الجبلية وتستقر في هذا الحوض الكبير طبقات مائية هامة موروثة من أهمها، حوض العرق الكبير وحوض مرزوق وحوض الجفارة (خوري والدروبي، 1990).

ي - المياه الجوفية في الجزء المتوسطي من المغرب العربي :

تتوفر المياه الجوفية في جبال الأطلس الكلسية التي تتغذى بذوبان الثلوج وبالأمطار. كما توجد فرشات باطنية في سهول قدم الجبل والمنخفضات داخل الطبقات الحطامية الحديثة. ومقدار هذه الثروات حوالي 13 كلم^3، يتم استعمال 5 كم^3 منها حاليا. وتلعب هذه المياه الجوفية دورا هاما في تغذية مراكز حضرية وزراعات مسقية كثيفة (تروان وآخرون، 1985).

1 - 3 - المصادر المائية الجديدة :

بسبب ندرة الموارد السطحية والجوفية في بعض المجالات أو عدم كفايتها للحاجة الملحة ، اضطرت بعض البلدان العربية الى نهج طرق استثمار جديدة للمياه ، قد تمثل في المستقبل العلاج الأساسي للخصاص الملاحظ في الوطن العربي .

وتتلخص هذه الموارد الجديدة في إعادة استخدام المياه الملوثة أو على اثر تصريفها من قبل التربة بعد سقي أول ، وفي تحلية مياه البحر .

تمثل المياه المعادة الاستعمال مقدارا مهما يصل الى 4.5 كم^3 يستخدم الجزء الأهم منها في الدولة المصرية ، وهذا الاستخدام يتم بالنحو التالي : على اثر عملية الري في العالية وفي الدلتا ، يرتفع منسوب الفرشة المائية ، الشئ الذي يضطر الى انشاء قنوات تصريف ترجع نظريا الى النهر أو تذهب مباشرة الى البحر ، وتمتاز مياه قنوات التصريف بارتفاع تعدنها بسبب المواد التي تحللت فيها ، من مواد ترابية أصلية ومواد كيماوية يستعملها المزارعون ، وتكون في الغالب ذات نوعية غير جيدة ، لكن في بعض الحالات تبقى صالحة لبعض الزراعات التي لا تتطلب جودة خاصة للماء ولذا يتم استعمالها لري أراضي السافلة (ابراهيم ، 1987) .

أما تحلية مياه البحر والمياه المالحة ، فإنها تمثل في بعض الحالات السبيل الوحيد لحل معضلة العجز المائي ، وهي في تطور مستمر رغم التكلفة العالية (6 دولارات للمتر المكعب في الوقت الراهن) . الا أن الأبحاث مستمرة للوصول الى طرق تحلية بتكلفة أقل . ومعالجة المياه المالحة مهمة جدا في الأقطار الصحراوية من الوطن العربي ، وخاصة منها دول الخليج . ،تصل نسبة استخدام مياه البحر من بين مجموع الموارد المتوفرة

الى مقادير هامة في بعض بلدان الخليج (36 ٪ في قطر) . وهناك خطة في هذه الدولة لتحلية مياه البحر وتخزينها جوفيا في القطاع الشمالي حيث الفرشات عذبة ، لاستعمالها في الري ، كما تتم في هذا البلد معالجة مجاري الدوحة والاستفادة منها في الري (الصندوق العربي، الكويت ، 1986) .

خاتمة : تقويم شمولي لموارد الماء في الوطن العربي

عملية التقويم صعبة بسبب حداثة رصد الموارد في الدول العربية (عدا مصر) وبسبب استمرار اكتشاف موارد جديدة كانت مجهولة الى أمد قريب . كما أن التقويمات المتوفرة غير ممركزة وموضوعة بمناهج غير متحدة . لذا فالتقويمات الصادرة عن المؤسسات القطرية أو عن باحثين جامعيين تصل الى مقادير جد متفاوتة يصعب التوفيق فيما بينها . فتقديرات جامعة الدول العربية، سنة 1986 ، أو المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، سنة 1987 ، أو منظمة "أكساد" سنة 1990 شديدة التفاوت . كما أن تقدير المياه الجوفية يعتريه إبهام يتعلق باعتبار أو عدم اعتبار - حسب المؤلفات - للمياه الموروثة غير المتجددة والتي تعتبر تخزينا قديما .

وسوف نعتبر في هذا المقال آخر التقديرات المبنية على أحدث الأبحاث وهي الأكثر شمولا لآخر الاكتشافات .

هذا التقدير الصادر عن "أكساد" يعتبر ان الموارد السطحية ترتفع الى 295 كم^3 والجوفية المتجددة الى 41 . أما المخزون الجوفي الاجمالي ، غيرالمتجدد فيعلو الى حوالي 8000 كم^3 (خوري والدروبي ، 1990) .

هذا التقدير يسمح بتحديد ميزانية عامة للمياه :

- المصادر المطرية تمثل 2200 كم3 (تهاطل معدل 160 مم على مساحة الوطن العربي)،

- التسرب السنوي يساوي 40 كم3 ليكون المياه الجوفية المتجددة،

- السيل في حدود الوطن العربي مقداره 190 كم3 بينما 105 كم3 هي موارد سطحية قادمة من خارج الحدود،

- يضيع عن طريق التبخر ما يقترب من 1970 كم3 وهو ما يمثل حوالي 90 ٪ من الواردات المطرية.

بالنسبة للتوزيع الجغرافي، نلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا. تتركز الموارد في مجموعة من الدول في مقدمتها مصر والعراق والسودان بالنسبة للمياه السطحية، والمغرب، مصر وسوريا بالنسبة للمياه الجوفية المتجددة، ومصر، والسعودية، وليبيا بالنسبة للمخزون الجوفي الموروث.

أما فيما يخص نسبة المياه المرتبطة بتصريف داخلي والمياه القادمة من بلدان مجاورة، فإننا نلاحظ أن شبه الجزيرة العربية، والشام الغربي والمغرب العربي لا يتلقون مياها أجنبية - بينما مصر والسودان والشام الشرقي والعراق جهات تتلقى جل مياهها من مصادر اجنبية.

2 - استغلال الموارد المائية واستثمارها

يعرف قطاع تعبئة المياه وتوزيعها واستثمارها لأهداف اقتصادية واجتماعية نموا مطردا في الوطن العربي، من أهم مظاهره ارتفاع الطاقة التخزينية في السدود الكبرى والمتوسطة، وارتفاع استغلال مياه الفرشات الجوفية القريبة والعميقة ومشاريع التحويل المائي على مسافات شاسعة.

ترتبط هذه الزيادة في وتيرة تنمية الموارد المائية بتزايد الطلب على

الماء بسبب النمو السكاني المرتفع (3٪ سنويا) وتوسيع الحاضرات الكبرى وارتفاع الطلب على مياه الري وتقدم الصناعات. فالنمو السكاني يفسر الزيادة في طلب الماء والغذاء (76 مليون ساكن سنة 1950 ، 205 مليون سنة 1985 وحوالي 300 مليون سنة 2000 ، الشويكي ، 1991) . هذه الوتيرة المرتفعة تفسر التزايد في طلب الماء الشروب والماء الصناعي وماء الري . فبالنسبة لماء السقي (حوالي 83 ٪ من الاستخدام المائي) تصبح الحاجة ملحة أكثر إذا اعتبرنا أن المساحات الزراعية محدودة وان التهاطلات متواضعة وان السبيل الوحيد للزيادة في الانتاج الغذائي يكمن في تكثيف الزراعات باستعمال تقنية الري.

وبالنسبة للصناعة التي تعتبر قطاع تشغيل أساسي يرتفع الطلب على الماء بوتيرة كبرى إذ تصل نسبة استخدام المياه في الصناعة الى حوالي 11 ٪ في مجموع الوطن العربي . كما أن التوسع الحضري (ارتفاع نسبة سكان المدن من 41 ٪ سنة 1975 الى 65 ٪ سنة 1985) والنمو الخاص الذي تعرفه الحاضرات الكبرى يستدعي تزايد الاسراع في وتيرة الطلب على الماء الشروب الذي يكون اليوم 6٪ من استخدامات الماء (الكسان ، 1991) .

لكل هذه الأسباب تعتبر الحاجة الى الماء مرتفعة ، وتقدر في حدود سنة 2000 بحوالي 320 كم3 بالنسبة لمجموع الوطن العربي ، هذا مع العلم ان اقصى الامكانات المتاحة في حدود لا تتعدى هذا المقدار الشيء الذي ينذر بعجز مستقبلي خطير ، سوف يطرح لا محالة اشكالات اقتصادية واجتماعية وسياسية (الشويكي، 1991) .

لذا يرتفع الاهتمام بالمياه السطحية دائمة كانت أم موسمية وبالمياه

الجوفية للرفع من قدرات البلدان العربية على انتاج المياه.

2-1 - استثمار المياه السطحية :

ارتفعت وتيرة تنمية الموارد السطحية في البلدان العربية منذ حصولها على الاستقلال، وخاصة منذ 1960، حيث اقيمت سدود كبرى ومتوسطة على الأنهار الدائمة، وسدود تلية على المجاري الموسمية، وتم تحويل المياه من الأحواض الغنية الى المجالات التي تشكو من الخصاص، وقد مكنت هذه المشاريع الهامة من تجاوز سنوات الجفاف المتوالية مثل سنوات 80-1985 بالنسبة للمغرب الأقصى، ومواجهة ارتفاع الطلب على الماء الشروب في بعض الحاضرات التي تعرف توسعا سريعا (القاهرة - بغداد - دمشق - الدار البيضاء).

أ - المغرب العربي

يعرف المغرب العربي نموا هائلا لقدراته المائية السطحية وذلك بسبب الضغط السكاني (50 مليون من مستهلكي الماء، بحصة يومية لا تتعدى 150 لتر للساكن الواحد)، ويستدعي هذا استثمارات مرتفعة الثمن، وبحثا متواصلا عن امكانيات إضافية للتخزين والتحويل لارضاء المناطق المحتاجة وخاصة منها المدن الكبرى، وهكذا يعرف المغرب العربي تنافسا هاما بين الاستعمالات المختلفة للماء، من فلاحة وصناعة وتغذية بالماء الصالح للشرب (العوينة، 1996).

وتنعدم في المغرب العربي الانهار الكبرى التي تسمح بتخزين على مدى سنوات متوالية بينما تكثر الأنهار الوسطى التي تمكن من إقامة منشآت تخزين موسمي لمياه المطر والسيول الشتوية حتى يتم استعمالها

في الصيف ثم في بداية السنة اللاحقة إذا تأخر موعد الأمطار الخريفية . وقد تساعد هذه المياه المخزونة على اجتياز بعض السنوات المتوالية الجافة ، لكن مع حرص كبير على الماء وقيود هامة على استعماله كما تم ذلك خلال النصف الأول من الثمانينات في المغرب الأقصى، وخلال سنة 1995 . وتستعمل المياه الجبلية خصوصا حيث أقيمت جل السدود عند سافلة المجرى الجبلي للأنهار ، ويستغل حاليا من المياه السطحية المتاحة ، مقدار 7,5 كم3 في المغرب الأقصى ، و 2 كم3 في الجزائر و 1 كم3 في تونس ، وقد تمكن المغرب الأقصى من تنظيم ما مقداره 10 كم3 من مياهه السطحية بعد تشييد العديد من السدود ، من أهمها سد المسيرة وسد بين الويدان وسد محمد الخامس (المجلس الأعلى للماء 1990) وتسمح هذه السدود المغربية المختلفة من رفع إمكانيات السقي التي تقترب من المليون هكتارا .

ب - استغلال مياه النيل

كانت مياه النيل تستغل بنشر مياه الفيض على الحقول المقسمة الى أحواض وانتظار مرحلة نزول المستوى لزرع الأرض . هذه الطريقة تم التخلي عنها بصفة تدريجية منذ إنشاء أول السدود التي تسمح بتنظيم السقي خلال السنة بأكملها . تقنيات الفيض المصرية دلالة على تمكن المزارعين وقدرتهم على التحكم في مياه النهر متى أتت هذه المياه بالمقدار الكافي و ما دامت لم تترتب عنها خسائر ناتجة عن مياه الفيض القصوى (بوزنسون ، 1957)

وقد كان الهدف من إنشاء السدود التمكن من المياه في فترات الشح، حتى يبقى المنسوب عاليا بما يكفي للاستمرار في الري ، وهكذا سجل آخر فيض للنيل اجتاح الوادي والدلتا سنة 1964 ، مباشرة قبل

انشاء السد العالي الذي يتمكن من حبس مجموع واردات النهر ، وهذا ما سمح بتنظيم الري الدائم وبتوسيع المجال المسقي ، إضافة الى انتاج الطاقة الكهربائية . إن السد العالي يكفل لمصر التوسع الزراعي في 2,3 مليون فدان (أي حوالي مليون من الهكتارات) ويضمن لها تنوع الانتاج والزيادة في المردودية. ويتم التوسع الزراعي في الأراضي البور والأراضي الصحراوية (ابراهيم ، 1987) .

وهكذا وباعتبار حصة مصر عند اسوان والتي مقدارها 55,5 كم 3 ومياه الصرف التي يعاد استخدامها (2,3 كم3) وباضافة مياه الخزان شبه السطحي (0,9 كم3) فإن توزيع الاستغلال يتم كالتالي (تقويمات سنة 1980، ابراهيم ، 1987) :49,7 كم3 تستخدم لري الأراضي المزروعة منذ القديم ، 3,3 كم3 تستخدم لمياه الشرب ، 2,5 كم3 تستغل في الاحتياجات الصناعية و 4 كم3 تستخدم لاحتياجات غير استهلاكية كتوفير الماء للإنتاج الكهربائي أو للتمكن من الاستمرار في الملاحة أوقات الشح .

ج - استغلال مياه دجلة والفرات

لقد أقيمت على دجلة والفرات وروافدهما العديد من الخزانات المائية الهادفة الى تنظيم الصبيب وضمان مياه الري في أوقات الجفاف . من بين هذه السدود والخزانات سد الموصل بسعة 12,9 كم3 سد البخمة (8 كم3) سد دوكان (6,8 كم3) بحيرة الحبانية (3,3 كم3) . ومن أهم المشاريع ، مشروع منخفض الثرثار ، الممتد بين دجلة والفرات شمال غرب بغداد والذي يتلقى مياه دجلة بعد تحويلها من سد سامراء. وطاقة تخزين هذا المنخفض 85 م3 منه تنطلق قناة نحو الفرات وأخرى نحو دجلة. ومن أهم المشاريع المقامة على الفرات سد الفرات في سوريا . لكن مصير هذا السد

مرتبط بالايرادات المائية الواصلة اليه من سد اتاتورك المقام بتركيا (الشويكي ، 1991) .

وتستخدم العراق ما مقداره 42 كم3 من المياه ، 1,5 ٪ للماء الشروب بنصيب للفرد مقداره 132 لتر في اليوم ، والقسم الأوفر للري ، حيث يتم سقي أراضي شاسعة (3,3 مليون هكتار) نصيبها حوالي 11700 م3 للهكتار في السنة ، أما الصناعة فالموارد المائية المستخدمة فيها مازالت ضعيفة.

2 - 2 - استثمار المياه الجوفية

من مجموع المياه الجوفية المستغلة حاليا في الوطن العربي ، أي حوالي 20 الى 23 كم3 ، يستخرج النصف الأول من الدول العربية الافريقية والنصف الثاني من المشرق العربي ، وهذا المقدار المستخرج يتم على حساب المياه المتجددة في كنير من الحالات والمياه الموروثة في حالات أخرى ، وفي الوقت الراهن ويعرف الاستخراج من الطبقات العميقة الموروثة وتيرة عالية . بينما كان الاستعمال في الماضي يتوقف على الطبقات الحرة القريبة وذلك لأسباب تقنية .

وقد أبدع العرب في طرق استغلال هذه الفرشات منذ العهود القديمة (تقنية الخطارات أو الافلاج مثلا) ، واستمر الشأن كذلك حتى في القرن العشرين لسهولة حفر الآبار الضعيفة العمق وسهولة الاستخراج بوسائل يدوية أو آلية . وتستخدم هذه المياه القريبة في نفس الوقت للشرب وللري ، لكن على مساحات ضعيفة الامتداد ، ولما تجددت تقنيات الاستخراج ارتفعت وتيرة الاستغلال لهذه الفرشات القريبة التي اعتبرت

خيرات بدون حدود ، دون تحليل امكاناتها الفعلية ، وهذا ما أدى في بعض الحالات الى نضوب الماء وفي حالات اخرى الى تداخله مع فرشات مجاورة مالحة إما من أصل بحري أو مرتبطة بسبخات قارية ، هذا ما وقع في سهل الجفارة في ليبيا وفي الامارات العربية وقطر ، وفي جنوب اليمن، وسهل دمشق .

وقد سمحت الوسائل الآلية العصرية ، والطرق الجيوفزيائية للتنقيب من اكتشاف واستخراج المياه العميقة الموروثة . والرصيد المائي الضخم لهذه الطبقات سمح بتمديد الزراعة على مساحات واسعة في مناطق معروفة بقحولتها كالصحراء الافريقية والصحراء السعودية (الكسان ، 1991) . كما سمح استخراج هذه المياه بالانطلاق في مشاريع اقتصادية هامة كمشروع الوادي الجديد في مصر (سقي 22000 هكتار في الواحات الجنوبية الغربية انطلاقا من مياه فرشة الحث النوبي بحفر آبار قد يصل عمقها الى 800 م) . والمشروع الليبي من أضخم المشاريع المائية في العالم حيث حفرت آبار يصل عمق بعضها الى 1500 م. وتحول مياه الآبار الجنوبية الى الساحل المتوسطي بصبيب حالي مقداره 700 مليون م3 سنويا ، سيتم رفعه الى 1,4 كم3 بعد انشاء الذراع الغربي من النهر الصناعي انطلاقا من منطقة فزان، ومسافة نقل المياه تصل اجمالا الى حوالي 1600 كم (الكسان ، 1991) .

وتعرف الصحراء العربية الشرقية نفس التطور حيث حفرت العديد من الآبار في شبه الجزيرة العربية وصحراء الأردن وسوريا والعراق ، وعمق بعض الآبار يتجاوز 1000 م في الصخور الحثية (تكوين الساق مثلا) وبعمق متوسط في الطبقات الكربوناتيه (أم الرضمة والدمام) . وتصل المقادير المستخرجة في السعودية الى 53 مليون م3 من طبقة

الساق، 38 من تكوين تبوك ، 80 من طبقة أم رضمة و 157 مليون م3 من الساحل وتكون النيوجين (خوري والدروبي، 1990).

وتشير الموازنة بين الموارد المتاحة والمقادير المستغلة حاليا بالنسبة للمياه السطحية والجوفية معا ، الى أن هناك فائضا ما زال لم يتم استثماره، وخاصة بالنسبة للمياه العميقة الموروثة ، الا أن تقدير هذا الفائض الذي يمثل اتاحات المستقبل يتطلب المزيد من الأبحاث من جهة ، والتعرف على مشاكل استغلال المياه من جهة تانية ، وخاصة منها المشاكل المتعلقة بالظروف السياسية لاستثمار المياه المتأصلة عن بلدان مجاورة . فالمقادير المائية الواصلة للوطن العربي من هذه الجهات قابلة للتغيير حسب الأوضاع السياسية ، ورهينة بميزان القوة بين الدول العربية من جهة والدول المجاورة من جهة أخرى .

3 - المشاكل المائية ومستقبل الموارد المائية

لقد انبنت الحضارات العربية المختلفة على الموارد المائية سطحية كانت أم جوفية . والبحث عن الماء ومحاولة تعبئتها كانا اهتماما دائما للشعوب العربية . فالسقي كان الوسيلة الوحيدة لتعويض خصاص المطر ، وعدم انتظام هطوله ، وكان السبيل الوحيد لتكثيف المردود الزراعي . وعلى الماء نمت حضارات مدنية راقية ، كحضارة مدينة فاس مثلا . كما أنه حاليا ، تنمو المدن الكبرى والمصانع ويتزايد طلبها للماء .

لذا ينضاف الى مشكل الخصاص العام ، مشكل التنافس بين قطاعات اقتصادية وعمرانية واجتماعية مختلفة .

لقد تنوعت الأساليب العتيقة لاستعمال الماء . وتمثل التقنيات

العصرية فرصة سمحت باستعمال مياه كانت صعبة التناول مثل مياه الفرشات الجوفية العميقة. كما سمحت السدود الضخمة من تنظيم الصبيب واستدامة الانتفاع بالماء. لكن التقنيات تفسر كذلك النزعة الحديثة للاستنزاف، خاصة عندما يتعلق الأمر بثروات مائية غير متجددة. أما المياه السطحية فيهددها مشكل توحل السدود في العالية ومشكل التلوث الناجم عن توسع الحواضر وعدم تطبيق قوانين صارمة.

لكن يبقى من أهم المشاكل التي تعيشها الموارد المائية تلك التي تتعلق بالتعاون الجهوي والدولي، خاصة إذا علمنا أن جزءا هاما من مياه الوطن العربي قادم من خارج حدوده.

3 - 1 - المشاكل التقنية والمحلية

أ - توالي السنوات الجافة وآثاره على الموارد المائية

عرفت دول الشرق الأدنى (لبنان - سوريا، الأردن وفلسطين) في شتاء 1992 و 1993 تهاطل ثلوج وافرة، وسقوط أمطار غزيرة أدت الى تجدد مخزونها الباطني وامتلاء خزاناتها السطحية كبحيرة طبريا، ويمثل هذا ظاهرة سعيدة تقوي الأمل في المستقبل. وقد عرف المغرب الأقصى سنة 1996 نفس الشيء.

لكن هذه الظاهرة ليست هي الأعم في الوطن العربي، حيث في الغالب تتوالى سنوات الشح منذرة بنزول مستوى الفرشات ونضوب الينابيع وفراغ خزانات السدود وتوقف مشاريع الري وتهديد المشاريع الصناعية. وقد عرفت مصر ودول الساحل الافريقي (السودان ودجيبوتي والصومال وموريتانيا) دورات الجفاف السحيقة التي تسببت في المجاعات،

وقد مس الجفاف جريان نهر النيل حيث نزل صبيبه سنة 1985 الى أدنى مستوى عرفه منذ بداية القرن (35 كم3) ودام انخفاض مستواه خلال خمس سنوات ، نزل خلالها منسوب بحيرة ناصر الى 164 م سنة 1984 بينما مستواها الأصلي 177 م. وهو أضعف مستوى لها منذ انشائها (ابراهيم 1987) .

ومعروف أن المخزون القاعدي لهذه البحيرة يمثله مستوى 147 م وان كفاءة التشغيل المثلى للمحطة الكهربائية تتطلب ضاغطا مائيا قدره 57 م أي على الأقل مستوى 165 م ونزول المستوى الى 164 م في يناير 1985 هدد تشغيل هذه المحطة وبالتالي امكانيات ضمان الماء للري ، وهذا الوضع يضر في نفس الوقت بإمكانيات الري وامكانيات التشغيل الكهربائي ، بينما تعتبر كهرباء السد العالي أساسية لمشاريع اقتصادية هامة أقيمت في مصر وخاصة في جزئها الجنوبي .

ب - خطر توحل حقينات السدود

تعرف جل خزانات السدود في البلدان العربية توحلا مهما ، يتمثل في تراكم سريع للمواد المنقولة من طرف الأنهار وخاصة منها المواد الوحلية الدقيقة . ويرجع هذا الى سرعة تدهور السطوح في المجالات الجافة ونصف الجافة تحت تأثير السيول العنيفة الناجمة عن العواصف المطرية . ويمثل هذا التراكم الوحلي تهديدا بالنسبة لامكانيات التخزين وراء السدود لأنه يقلل من كفائتها الاجمالية .

في المغرب مثلا يقدر الحجم الضائع سنويا من المنشآت المائية بحوالي 50 مليون م3 نتيجة التوحل ويعرف هذا الحجم تصاعدا مستمرا بسبب تزايد مقادير انجراف التربة والتي تصل الى ما بين 200 طن /كم2 /

سنة في الأحواض النهرية المستقرة وأكثر من 2000 الى 3000 طن /كم2/ سنة في المناطق الجبلية الوعرة كجبال الريف .

وإذا علمنا بأن القدرات التخزينية الحالية للمغرب هي في حدود 10 كم3 وان الطاقة الضائعة حتى الآن تفوق 0,8 كم3 وان الحجم الضائع سنويا هو 0,05 كم3 فاننا ندرك بأن خطر التوحل تهديد حقيقي ، حيث ستعرف السدود المغربية فقدانا لعشرة في المائة من طاقتها بعد مرور أقل من 20 سنة ، ولذا فالحل الوحيد يكمن في أخذ الترتيبات التي من شأنها التقليص من حدة التعرية ونقل الرواسب.

أما سدود العراق والسد العالي بمصر فهي من المنشآت الضخمة التي تسمح بتنظيم المياه على مدى سنوات ، ولذا فإن سعة خزاناتها لا تطرح بنفس الحدة مشكل التوحل ، والسبب هو ضخامة المخزون القاعدي القابل للضياع بسبب تراكم الرواسب والاطماء .

ج - مشكل الاستنزاف والهدر والتمليح :

هي مشاكل مترابطة فيما بينها لان استنزاف المياه الباطنية يؤدي عادة الى تداخل الفرشات المستغلة بفرشات غير صالحة مجاورة كمياه البحر أو السبخات ، وهدر المياه السطحية يؤدي الى افراط في تراكم المياه وصعود مستوى الفرشات وبالتالي تعرضها للتبخر والتمليح .

هدر المياه السطحية ، معطى يلاحظ في جل المجالات حيث تستغل المياه لري الأراضي بل حتى في التغذية بالماء الشروب ، حيث تستعمل كميات تتعدى الحاجيات الفعلية . فطرق الري الحالية تؤدي الى هدر ما يساوي 30 الى 40 ٪ من الماء حيث يستعمل المزارعون 11000 الى 12000 م3 لري الهكتار الواحد ، بينما بطرق دقيقة أكثر يمكن الاكتفاء

بحوالي 7500 م3 والحصول على نفس النتيجة ، كما أن فرط الري يؤدي الى تدهور التربة لأن السقي الدائم يكدسها ويمنع من تهويتها ، والافراط المائي يعني زيادة في الأملاح المذابة الواصلة للتربة ، ومادام التبخر قويا فهذا يعمل على تراكم الأملاح في المسكات العليا الترابية ، وهذه وضعية اتربة الدلتا وخاصة في جزئها الشمالي وأراضي دجلة والفرات وشط العرب (ابراهيم ، 1987) .

والهدر مدعوم من طرف الدولة مادامت المياه بثمن ضعيف ، والوسيلة الوحيدة للحد منه رفع ثمن الماء ليحس المزارعون بقيمته . ويطرح الهدر اشكالا آخر ، هو لزوم تشييد المزيد من قنوات التصريف الداخلي لمنع صعود مستوى الفرشة .

أما الاستنزاف فهو ظاهرة تتعلق أكثر بالمياه الجوفية ، وتهم كل المناطق المتوفرة على فرشات مائية سمحت بإقامة مشاريع ري ، تسمح هي الأخرى بالحصول على انتاجية مرتفعة ، فيسارع المزارعون الى ضخ المزيد من الماء للحصول على المزيد من الأرباح ، ونتائج هذه الظاهرة أكثر خطورة في الدول المنتجة للنفط أي الدول حيث ثمن الطاقة منخفض جدا.

وتعرف المياه الجوفية للكويت وامارات الخليج هذه الظاهرة ، ففي الكويت مثلا تتوزع المياه الى مياه عذبة في الجنوب الغربي ومياه رديئة (4 الى 5 غ/لتر) في الجزء الأوسط ومياه مالحة في الشرق حيث المرور من مياه كربوناتية الى مياه كبريتية ثم مياه كلورية . والنظام الهيدروجيولوجي قائم على التسرب في مجال الصخور البارزة غربا وجنوبا ، وعلى افراغ في اتجاه شط العرب والخليج مع استمرارية مائية (الصندوق العربي ، الكويت،

.(1986

د - مشكل تلوث المياه

تعرف المياه السطحية ومياه الفرشات الحرة القريبة تهديدا خطيرا في الوقت الراهن يتمثل في تلويثها وبالتالي تردي نوعيتها .

هذا التلوث من مصادر متعددة أهمها حاليا التلوث الناجم عن رمي مياه الحاضرات الكبرى دون معالجتها في الأنهار ، التسيء الذي يرفع من المحتوى المكروبيولوجي للمياه بسبب تراكم مواد عضوية قابلة للفساد ، وهذه وضعية تلاحظ في وادي سبو عند سافلة مدينة فاس ، وتلاحظ أكثر سافلة القاهرة وبغداد .

المظهر الثاني للتلوث إلقاء مياه الصناعات الكيماوية والغذائية في الأنهار فينتج عنه تسمم لها وارتفاع في محتواها الكيماوي والعضوي .

والمظهر الثالث هو الناتج عن المخصبات والمبيدات المستعملة في الزراعة قصد تكثيفها ورفع انتاجيتها وهي مواد كيماوية تلوث المجاري والمصارف والفرشات الجوفية القريبة .

3 - 2 - المشاكل السياسية ومستقبل الموارد المائية

وراء العجز الملاحظ حاليا في الموارد المائية والمتزايد الى حد أنه أصبح يهدد المستقبل الاقتصادي للدول العربية التفاوت في انتاج المياه بين بلدان عسر مائي تشكو الضيق ، ومجالات وفرة تضيع مياهها هدرا ومن جهة ثانية تحكم بلدان أجنبية في مستقبل المصادر المائية . هناك أولا مشاكل داخلية بين بلدان العالم العربي ، فالشخصية العربية بنيت منذ القديم على الشعور بالأهمية البالغة للمياه وذلك ارتباطا ببزوغ الحضارة

العربية في مواطن شح وندرة مائية ، وقد قامت حروب داخلية عديدة من أجل الماء ، ونلاحظ حاليا انعدام خطة قومية عربية لتعبئة المياه واستعمالها. هكذا مثلا تقوم دول الخليج بانفاق اموال طائلة لتحلية ماء البحر ، بينما تضيع مياه شط العرب في البحر .

لكن أهم مشاكل الماء في العالم العربي مقدرة دول عالية النيل والفرات ودجلة على التحكم في منسوب هذه الأنهار ، والتهافت الذي تظهره إسرائيل على الماء كما أظهرته على الأرض والذي صار يهدد جيرانها .

أ - المياه والصراع العربي الاسرائيلي

تحتل اسرائيل مجالا انتقاليا بين بيئة مطيرة (لبنان) وبيئة جافة في سيناء وشبه الجزيرة العربية . وفي جل أراضي فلسطين الميزان المائي سالب ما عدا في أقصى الشمال الذي يتميز بفائض نسبي يتطلب التخزين ، الشيء الذي تمكنه بحيرة طبريا . كما تسمح الطبقة الصخرية بتخزين المقدار المائي المستعمل في السهول الغربية والذي تضاف اليه المياه المحولة من بحيرة طبريا .

والسياسة الاسرائيلية القائمة على الاستيلاء على الأرض اهتمت كذلك بالاستيلاء على الماء بل سياسة التوسع المجالي ناجمة عن العجز المائي وعن ارادة الحصول على المزيد من الماء ، وهكذا تم تخطيط العديد من المشاريع منها مشروع كوتون (1954) لاستغلال مياه الأردن واليرموك . حجم الواردات المائية الاسرائيلية 2,1 كم^3 منها 1,3 من المياه الجوفية ، 0,6 من الأردن والباقي من المسيلات أو الفرشات المالحة . وتطور الاستهلاك من 0,35 م^3 سنة 1949 الى 2,1 كم^3 سنة 1985 رغم القيود المطبقة على

السكان العرب ، استدعى الى البحث عن مصادر جديدة ، وفي هذه الخطة يدخل الاستيلاء على الجولان والجنوب اللبناني ، فهضبة الجولان تغذي اليرموك والاستيلاء عليه أوقف مشاريع التوزيع الزراعي العربي ، واحتلال جنوب لبنان سمح بالاقتراب من الليطاني ومن تحويل مياهه الى شمال إسرائيل والمقرر ضخ 150 مليون م3 منه في اتجاه طبريا (كالي ، 1991 - خليفة ، 1991) .

ب - مياه النيل - التهديدات الحالية ومخاطر المستقبل

ارتفع عدد سكان مصر من 7 مليون نسمة سنة 1880 الى 54 سنة 1980 ، و من المقرر أن تصل ساكنة هذا البلد الى 108 مليون سنة 2010 بينما الأرض الزراعية محدودة والمياه قادمة من مصادر خارجية ، وقد انقذ السد العالي مصر والسودان في سنوات الجفاف (1979 - 1987) حيث مكن من الاستمرار في الري . لكن وقت الفيض قد راح ، وصارت المشاكل متعددة ومن بينها قلة الماء ، وارتفاع ثمن الطاقة الكهربائية بعدما صارت نسبة الطاقة من السد العالي في تقلص (نصف كهرباء مصر سنة 1979 و 20 ٪ فقط سنة 1986) بينما ارتفعت حصة المحطات النفطية والغازية (ابراهيم ، 1987) .

ومشكلة مصر مزدوجة : الأرض والماء لأن الهدف رفع مقدار الغذاء للاستجابة للطلب ، وهذا يعني سقي مساحات إضافية والسقي يتطلب موارد مائية إضافية .

سنة 1980 كانت موارد مصر تتلخص في 55,5 كم3 من النيل عند اسوان ، 2,9 كم3 من الخزان الجوفي و 2,3 من اعادة استخدام المصادر ،

هذا المجموع يكفي للحاجيات الآنية . والمقرر رفع الموارد الى 72,4 كم3 سنة 2000 (55,5 حصة مصر في اسوان - 9,4 من الخزان الجوفي ، 10 من مياه المصارف و 2 كم3 كفائدة من تشييد قناة جونجلي) ، لكن هذه التقديرات لم يتحقق منها الى الآن أي شيء . فقد كان من المفروض الانطلاق في توفير موارد جديدة . لكن العمل بقناة جونجلي توقف لأسباب أمنية . وتسبب التلوث في تحريم استعمال مياه عدد من المصاريف والمياه الجوفية وهكذا لم تتمكن مصر سنة 1990 من توفير سوى 6,7 كم3 إضافية بينما ارتفع الطلب على الماء الشروب وعلى الماء الصناعي وهذا ما يقف في وجه التوسع الجالي للأراضي المروية . والإشكال يرتبط بالتنمية المرتقبة في دول العالية (زايير - أوغندا - كينيا - طانزانيا - الروواندا - البروندي - الحبشة) وكلها تعتزم الاستفادة من مياه النهر . فبانتهاء قناة جونجلي ستصبح حصة مصر من النيل 57,5 كم3 . ولتمديد الزراعة المسقية الى 11 مليون فدان أي 4,7 مليون هكتار لابد من الحصول على وارد مقداره 79 كم3 (باعتبار الحاجيات غير الزراعية) ، فإذا تحسنت ظروف الجريان في عالية السودان تمكنت مصر من الحصول على 9 كم3 إضافية لكن العجز سيبقى رغم ذلك قائما .

وتقوم اثيوبيا بدراسة امكانيات استصلاح أراضيها والرفع من حصتها من مياه النيل ، الشيء الذي سيحرم مصر والسودان من 5 كم3 على الأقل ، وتتدخل اسرائيل لمساعدة اثيوبيا في هذا المشروع ، للضغط على مصر والحصول على تحويل لمياه النهر الى النقب .

ج - مياه الفرات : الصراعات المحتملة

نهر الفرات نهر دولي يجتاز سوريا والعراق قادما من الأناضول . وقد استغلت سوريا والعراق مياهه منذ القديم ، الشيء الذي أعطاها حقوقا

تاريخية مكتسبة ، وتـصريف النهر يصل الى 26 كم3 (825 م3 / ث) ويمثل 80 ٪ من موارد سوريا و 38 ٪ من موارد العراق . وقد أقام الـبلدان العديد من السدود والمشاريع الزراعية على هـذا النهر من أهمها سد الفرات وسد الحبانية . الا أن تـركيا ، والتي تعرف تزايـدا سكانيا هاما عمـدت الى انشاء مشـاريع تـخزيـن وسقي سـوف تعـمل عـلى تـقليـل الإيراد المـائي لـلدول العربيـة، والمشكلة تكـمن إذن في توزيع الحقـوق وتصادم المصالح الحـيوية (خليفة ، 1991) .

الحصـة الحاليـة لـسوريـا 4,4 كم3 , للـعراق 8,6 كم3 . وحاجـيتـهمـا المستـقبلية ترتـفع الى 24 كم3 أي ما يعدل 90 ٪ من ميـاهه . بينما عـملت تركيا علـى بناء سد اتاتورك الذي سيـكون جاهزا قبل نهايـة القرن والذي بدأ مفعوله منذ سنتين . هذه المشاريع من المفروض أن تخفض صبيب النهر الى 15 كم3 ، أي 7 لسـوريا و 8 للـعراق . وارتفاع حـصة تركـيا من النـهر بنسبة 400 ٪ قد اثر على معامل الكهرباء السورية حيث انخفض منسوب الماء مما دعا الى توقيفها سنة 1990 . ومن المتوقع من الآن عجز مائي خطير في سوريا والعراق يصعب حله ما دامت الامكانات المائية محدودة .

خاتمة عامة

يتزايد اسـتهلاك الوطن العربي لـلمياه سنويا بـنسبة 5 ٪ بينما تزايد التـعبئة والاسـتثمـار لايصل الى هـذا المقدار ، الشـيء الذي يعـني محلـيا العجز المائي وفي مجالات أخرى استنزاف ثروات استراتيجية .

والخطة العربية لانماء الاقتصاد وخاصـة الاقتصاد الفلاحي تقوم على السـيطرة علـى الموارد المائيـة ، وهذه السيـطرة محـاطة بمخاطـر شتى منـها تهديدات داخلية وتقنية (تصحـر - تلوث - تملح) ومنها تهديدات دولية أو

سياسية (الأطماع الاسرائيلية والخطط التنموية المناقضة للمصلحة العربية في الدول الافريقية وتركيا).

لقد نشبت صراعات هامة بين الدول التي تجتازها الأنهار الكبرى العربية النيل والفرات ودجلة. ومن المحتمل أن تتحول الى صراعات ملحة، لذا فمن غير المعقول أن يستمر الوضع العربي على ما هو عليه من تفرقة وانانية قطرية. فالتعاون العربي أحسن حل يكفل الاستخدام الأكثر رشدا للموارد الموجودة، والتوزيع الأكثر عدالة فيما بين الدول العربية، والبحث الأكثر تنسيقا عن موارد اضافية، والموقف الموحد الأكثر ثباتا أمام الأطماع الأجنبية.

المراجع

- ع.ع. ابراهيم (1987) : استخدام نماذج الأمثلية في إعادة توزيع المياه بين قطاعي الزراعة والكهرباء . معهد التخطيط القومي ، القاهرة ، 99 ص .
- ج. بونرنسون (1957) الانسان والنيل . كاليمار - باريز (بالفرنسية)
- ج . ف . تروان وآخرون (1985) : المغرب العربي ، الانسان والمجال ، (بالفرنسية) أرمان كولان . 360 ص
- ب . الحكيم (1982) : ابحاث هدرولوجية وهدروكيماوية في بعض الكتل الكارستية المتوسطية (لبنان - سوريا والمغرب) . أطروحة الدولة (بالفرنسية) - إكس آن بروفانس.
- ن . خليفة (1991) : مياه الشرق الأوسط وحروب العقد القادم ، مجلة الوحدة ، العدد 76 ، ص 41 -47
- ج. خوري و ع. الدروبي (1990) : الموارد المائية في الوطن العربي ، اكساد ، اليونسكو ، دمشق ، 166 ص .
- ح . الشويكي (1991) : الأمن المائي العربي ، مجلة الوحدة ، العدد 76 ، ص 25 - 40
- ع. العوينة (1996) : التنمية الزراعية والتمدن ، التنافس على الماء في المغرب ، حالة المغرب الشرقي ضمن مؤلف التمدن والزراعة في حوض البحر المتوسط ، نشر لارماطان ، ص 273 - 282 (بالفرنسية)
- عثمان مصطفى نوري (1988) : الماء وسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية ، تهامة
- أ. قصاب و ح. ستهم (1980) : جغرافية تونس . منشورات كلية العلوم الانسانية - تونس
- إ. كالي (1991) : المياه والسلام ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، 168 ص
- ج. الكسان (1991) : الثورة المائية ، مجلة الوحدة ، العدد 76 ، ص 113 - 121
- المجلس الأعلى للماء (1990) : اعداد الأحواض المائية وحماية السدود من التوحل ، الرباط ، 78 ص (بالفرنسية)
- المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، (1981) : برنامج الامن الغذائي العربي ، الموارد الطبيعية ، الخرطوم
- مركز البحوث والدراسات المائية (1989) مؤتمر الموارد المائية للدول العربية وأهميتها الاستراتيجية ، الجامعة الأردنية - عمان
- ت. ناف و ر.د. ماتسون (1984) : الماء في الشرق الأوسط مركز البحث حول الشرق الأوسط - جامعة بانسلفانيا - (بالانجليزية)

التاريخ وأنماط حضوره في فكر الحسن الثاني

الدكتور سعيد بنسعيد العلوي
كلية الآداب الرباط

«عندما يرقى المرء الى درجة عليا من المسؤولية فإنه لا يحيا بالإستفادة من درس التاريخ فحسب ، ولكنه يحيا من أجل صنع التاريخ أيضا»

الحسن الثاني «داكرة ملك»

يشغل التاريخ في فكر الحسن الثاني مكانة عظيمة القيمة وفائقة الأهمية. هذه المكانة ليست مما يكون الدارس في حاجة الى التدليل عليه والابانة عنه ، ولا مما يكون المحلل في حاجة الى الكشف عنه بل إنها مما يجده القارئ في سهولة ويسر . يجده في أحاديث الملك الحسن الثاني ، خطبا رسمية كانت تلك الأحاديث ، أو ردودا تلقائية على أسئلة تطرحها الصحافة عليه ، أو كان نظرا تحليليا - تركيبيا معا على نحو ما نجده في كتاب «التحدي» . فالتاريخ حاضر في فكره وفي وجدانه معا ، ولحضوره الدائم هذا أسباب موضوعية وأخرى ذاتية . قد نذكر منها ، أولا ، التربية الرفيعة التي نعم بها في كنف والده العظيم وحرص هذا الوالد على أن يحظى ابنه الموفق بتكوين عميق «في الأدب، وفي التاريخ على وجه الخصوص» كما يوضح الحسن الثاني ذلك لمحاوره (1) . وقد نذكر من تلك الأسباب ثانيا ، انتساب ملك المغرب الى أسرة شريفة وشعب عظيم وإلى دولة عريقة تضرب في أعماق التاريخ بما ينيف على الألف ومائتي سنة. وهذا مما يطبع الذاكرة بسمة حضارية مميزة لا تملك أن تنفك منها . ومنها ،

---

1 - S.M Le Roi Hassan II - La mémoire d'un Roi, entretien avec Eric Laurent - les éditions Plon, 1993, Paris - P; 24

وإحالالتنا الى كتاب «ذاكرة ملك» هي إحالات الى هذا النص الفرنسي الأصلي

ثالثا وأخيرا ، أمر يرجع الى سبب ذاتي ، يتعلق بشخصية الحسن الثاني ، فهو مكون من مكونات تلك الشخصية لا يملك أن يخرج عنها ، وهو شغفه بالتاريخ شغفا شديدا وولعه بدرسه وبالإصغاء اليه كثيرا ، منذ حداثته وأول شبابه ، بل وإرادته التخصص فيه في حياته الجامعية . وإذ يذكر أن الوالد العظيم حمله على دراسة القانون ، على نحو ما يجب لرجل الدولة الأول أن يكون عليه (2) ، فإنه يضيف في تعقيب بالغ الدلالة : «وأحمد الله على هذا : لأن التاريخ يمكنني أن أقرأه كل يوم ، في كل كتاب وفي كل دليل ، ولكن القانون لا يمكن تعلمه إلا في سن الصبا» (3) . وبين ما يكون تعلمه من أجل الحاجة والضرورة ، وما لا يدرك الا في الكتب والمصنفات المعدة له ، وبين ما تكون دراسته بدافع المتعة والرغبة وتكون الحياة كلها مجالا لمطالعته ، تبدو الفوارق والفواصل جلية واضحة

غرضنا ، في الفقرات التالية ، أن نقف وقفة ملاحظة واستنتاج عند كيفيات هذا الحضور القوي والعميق للتاريخ في فكر الحسن الثاني . وهدفنا محاولة استجلاء معنى التاريخ عند صاحب هذا الفكر ، على نحو ما نلمسه في كتاب «التحدي» من جهة أولى ، وما نستشفه من ردوده على أسئلة محاوره في كتاب «ذاكرة ملك» ، من جهة أخرى . ونهجنا ، جهد الإمكان ، الانصراف عن سبيل الاسراف في التأويل والالتزام بمنطوق النص ، في الكتابين ، والاحتكام الى منطقهما .

النمط الأول من أنماط حضور التاريخ في فكر الحسن الثاني هو حضوره بحسبانه مجالا للمقارنة الخصبة . وإذا كان صحيحا ان «التاريخ

---

2 - La mémoire d'un Roi p. 285

S M. Hassan II - Le défi Edition Albin Michel, 1976, Paris - p 156

3 - ورد في كلمة استقبال وفد جمعية المؤرخين المغاربة واتحاد المؤرخين العرب (يوم 1993/10/11)

ليس علما دقيقا» ، وأن الاستدلال بالمماثلة ليس استدلالا علميا «فإنه «توجد هناك أمثلة يتعين أخذها بعين الاعتبار» (4) . فعن هذه المقارنة بين حادثتين تاريخيتين أو أكثر يحصل لدى المرء نوع من الحكمة العقلية التي تنفعه في الحياة وترشده الى السلوك الواجب اتخاذه تجاه حدث محدد ، ولذلك فإنه يلزم على «من كان على عاتقه واجب قيادة مصائر شعب من المؤمنين والمواطنين أن يأخذ دروس الماضي بعين الاعتبار وذلك من أجل تدبير شؤون المستقبل» (5) ومن هذه المقارنة الخصبة يكون الفهم في القضايا والأمور المتعلقة بإدارة شؤون الدولة تلك التي تقتضي ، أحيانا كثيرة ، حسن المعرفة بالطبائع البشرية ومن ثم بالقوانين التي تحكم السلوك الانساني في مواقف يجمع بينها التشابه والتماثل «عندما قتل رفاياك الملك هنري الرابع ، فإن شرعية آل بوربون لم تكن مع ذلك موضع جدال . والمؤامرات التي حيكت ضد دوغول لم تكن لتؤدي ، على فرض نجاحها ، إلى إعادة النظر في الجمهورية . كان متمردة الجزائر سيحكمون باسم هذه الجمهورية في حال انتصارهم» (6). ثم انه لا يكون في وسع المرء الارتكان الى المقارنة بين حدث الحاضر المباشر وما حصل في الأزمنة الماضية فحسب ، بل ان في الامكان الاتجاه بالمقارنة صوب المستقبل في نظرة فاحصة عمادها القول بالمعقولية وبثبات المبادئ والقوانين التي تحكم سير التاريخ البشري . فكما طالعنا نحن في كتب التاريخ ملحمة زينوفون الاغريقي وقصة المسيرة الطويلة لما وتسي تونغ ، في مطلع القرن العشرين ، فإنه سيكون في وسع الأجيال المقبلة أن تقرأ «ملحمة المتطوعين» المغاربة في المسيرة الخضراء (7) . فالتاريخ البشري ، مع تعدد حلقاته ومع اختلاف

La mémoire p 266 - 4
S M Hassan II - Le Défi .. p 94 - 5
La mémoire d'un Roi . p 175 - 6
S M. Hassan II - Le Défi p 181 - 7

تجلياته ، تاريخ واحد وهو أشبه ما يكون « بتلك السيدة العظيمة التي لا تكون ، بحمد الله ، في حاجة الى الماشطات من أجل أن يصيرنها أكثر جمالا وبهاء» (8) . والتاريخ يظل «دائما وأبدا هو التاريخ ، ذلك الذي يعرف الظهور كما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، وفي المكان الذي ينبغي» (9) ، ولذلك كان ، عند من يحسن الاصغاء اليه ، مجالا للعظة والعبرة وموضعا للدرس والتعلم كما كان ، عند من يحسن النظر فيه ، مجالا للمقارنة الخصبة المفيدة في السلوك والعمل .

النمط الثاني من أنماط حضور التاريخ في فكر الحسن الثاني هو حضوره بحسبانه تاريخ الانسانية ، في عمومها و شمولها ، أو هو التاريخ بحسبانه خاضعا لقوانين تحركه ومبادئ توجهه . هذا الحضور هو ثمرة فهم عقلي ومحاينة باطنية ، أو لنقل انه ثمرة حكمة شخصية تلتقي فيها مشاهدات القائد وتجاربه مع قراءاته وفحوصه التجريبية للشهير من النظريات الفلسفية والعقائد السياسية . وهذا الحضور لا يستهدف المتعة النظرية ولكنه يبتغي الدرس العملي والقواعد التي يتعين الأخذ بها . ويبدو لنا أن أهم الدروس التي ينتهي الى استخلاصها صاحب «التحدي» . وأهم القواعد العملية التي تحفظها «ذاكرة ملك» تؤول الى ثلاث :

1 - أول الدروس التي نفيدها من التاريخ الانساني الشمولي ، متى أمعنا النظر في مجرياته ، هو أن الأمم العظيمة حقا لا تفنى ولا يعرض لها الزوال والانقراض تحت تأثير الكوارث والأحداث ، ومن ثم فقد كانت نظرة ملك المغرب مخالفة للنظرة التشاؤمية التي يأخذ بها اشبنجلر ومن سار على دربه . فليس صحيحا أن الحضارات تعرف الهرم والموت ، بعد أن

---

8 - La mémoire d'un Roi ... p 140

9 - نفس المرجع والصفحة

تكون قد عرفت القوة والازدهار ، بل ان سنة الله تقضي بأن «الحضارات التي تبدو كأنها قد عفت واندثرت للأبد سرعان ما تبعث في صورة جديدة في الزمان وفي المكان» . ولو نظر المرء في أمر الأمة العربية لوجد أنها «تستعيد وعيها بعد قرون من الركود» (10) بل الحق أن الشعب ، متى كان واعيا بقوته وأصالته ، فإنه يظل سيد نفسه وان ابتلى بالحجر والاستعمار ، وما هي الا كبوة أو سقطة تعقبها نهضة . ذلك هو الشأن في الأمم التي تضرب بعيدا في أعماق التاريخ بشخصيتها الحضارية وهويتها الثقافية المميزة «فالأمم العريقة أمم عظيمة تسترد قوتها دائما حتى وان نالت الصفع والضرب» (11) .

2 - ثاني الدروس هو أن الأمة لا بد لها من القوانين المناسبة لطبيعتها ، المتوافقة مع مقوماتها الذاتية : الحضارية والتاريخية. وهذا الدرس يعني ، في فائدته العميقة انه :

- لا معنى للقول بوحدة القانون ، في الحديث عن سير الدول والأمم ، ولا معنى للقول بخضوع البشر جميعهم ، مع اختلاف مللهم ونحلهم ، ومع تباين طباعهم وتقافاتهم ، ومع تباعد مكوناتهم الثقافية والتاريخية ، لقانون واحد يسوسهم أو لنظام واحد في الحكم «فلا يمكن تخيل نظام عالمي في الحكم الا متى كان البشر متشابهين وكانت التقاليد والعادات متشابهة في كل مكان» (12) - وهذا أمر معدود في المستحيلات . فقد يكون النظام الملكي واحدا ، من حيث الإسم ، ولكنه مختلف ضرورة باختلاف الدول والشعوب (13) .

- لا فائدة من الحديث عن الديمقراطية باعتبارها واحدة في الأشكال

---

10 - S.M. Hassan II - Le Défi p. 112

11 - La mémoire d'un Roi p. 206

12 - Le Défi - p. 80

13 - أنظر الصفحات 70 ، 79 ، 80 . حيث نجد التعبير عن المعنى نفسه بأشكال تعبيرية متعددة .

والتعابير : ذلك ان أشكال الوجود ، وصيغ الممارسة السياسية المختلفة ، وتجليات التاريخ التي تتنوع بتنوع خصائص الأمم والشعوب ، كل هذا يفعل فعله في تعيين صورة الديمقراطية « فلا تكون واحدة أبدا في لندن ، وباريس ، واستوكهولم ، وفي موسكو ، ونيويورك ، وطوكيو ، وفي المغرب» (14). لذلك ، أيضا ، فإن العيوب التي تلحق بنظام سياسي أو بمؤسسة من المؤسسات السياسية في ذلك النظام ترجع الى التاريخ ومسيرته في البلاد التي أخذت بذلك النظام «فلم تكن العيوب التي كانت الجمهورية الرابعة تشتكي منها الا نتيجة لمختلف التجارب التي خبرتها منذ سنة 1789 » (15).

3 - ثالث الدروس أو العبر التي يخرج بها الحسن الثاني من قراءة التاريخ الانساني الشمولي هي أن على القائد في الدولة أن يجنب شعبه الكوارث ما استطاع الى ذلك سبيلا . فالقائد الحكيم لا يقبل على حرب ولا يخوض معركة وقودها الشعب والرجال ، الا متى كان واثقا من النصر . بل الحق ان النصر ليس في عمقه سوى هزيمة متى كان ثمنه «سحق شبيبة بأكملها» و على القائد أن يكون ضنينا بحياة ابنائه حريصا عليها حرصا يحمله على الموازنة بين الأعداد والقوى التي تقف في وجهه ، مهما يكن من نبل المعركة التي يقبل عليها ، ومهما يكن من سمو الهدف الذي يتصدى لإصابته (16).

الحق أن المسؤول الأول عن حياة وأمن شعبه وبلاده يدرك اليوم : لو انصف في الحكم ، ويحكم اليوم ، لو أصاب في القراءة والتحليل ، ان الحرب لم تعد ، على نحو ما كانت عليه في الماضي ، مغامرة محسوبة

---

14 - المرجع السابق ، ص 79 - 80

15 - La mémoire p 73

16 - ذلك هو الشأن في الحرب الريفية في المغرب في فترة 1921-1925 . أنظر تحليلات صاحب الجلالة في الصفحة 16 من كتاب «التحدي» (النص الفرنسي)

العواقب مقدرة النتائج . وهذا يعني ان اجتناب الحرب والمواجهة ، والاحتكام الى طريق الحوار والمفاوضة مع الصبر وطول النفس ، كثيرا ما يكون محمود النتائج قليل الخسائر أو محدودها .

متى استوعب القائد المحنك هذا الدرس التاريخي البليغ وادرك مغزاه العميق فإنه يكون قادرا على الابتكار والابداع «لذلك عملنا كل ما في وسعنا لاجتناب الحرب : ومن ثم كانت المسيرة الخضراء» (17).

ثالث انماط حضور التاريخ في فكر الحسن الثاني هو حضوره بحسبانه تاريخ الأمة والوطن ، تاريخ الشعب المغربي وتاريخ الدولة المغربية في التحام التاريخين وانصهارهما الدائم في بوتقة الابداع والتحدي . وملك المغرب مدعو الى تمثل هذا التاريخ وحسن معرفته ، فهو القاعدة التي يكون منها الاتجاه صوب المستقبل ، وهو البئر العميقة الصافية التي يمتح منها ما يملأ به شرايين الحياة في الحاضر . وإذا كان التاريخ الإنساني الشمولي يعلمنا ان لكل شعب ودولة بنيتهما الخاصة بهما ونظامهما السياسي الذي به يكون وجودهما ، فإن على القارئ المتنبه أن يدرك حقيقة الملكية المغربية . وإذا كان هذا التاريخ الشمولي يخبرنا أن الديمقراطية نمط من التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي فإن على هذا القارئ أن يقع ، في نظره في النظام الديمقراطي المغربي ، على حقيقة ذلك النمط وطبيعة ذلك التنظيم . وأخيرا ، فإذا كان درس التاريخ الانساني والشمولي اخبارا عن الشخصية الحضارية لكل أمة من الأمم وشعب من الشعوب ، فإن على الناظر في التاريخ المغربي ، في تعاقب حلقاته واتصال أطواره ، أن يتبين حقيقة هذه الشخصية وأن يقع على مكوناتها وركائزها .

S M Hassan II - Le Défi p 188 - 17

ثلاثة دروس، وثلاثة حقائق، يلزم القائد ملك المغرب أن يجعلها حاضرة نصب عينيه ويلزم الفاحص لطبائع الأمة والدولة والشعب في المغرب أن يدركها فيأخذها في قراءته لتاريخ المغرب بعين الاعتبار.

1 - الحقيقة الأولى، أو الدرس الأول المفيد، هي أن الملكية في المغرب مؤسسة عريقة، يلتقي تاريخها بتاريخ الدولة في المغرب، وإنها مؤسسة شعبية، بمعنى أنها نابعة من الشعب، تستمد شرعيتها من قوة «التعاقد الاجتماعي» على نحو ما يعينه «عقد البيعة» وتشرحه طبيعتها ومقتضياتها. وهذا العقد يفرض أن يملك الملك وأن يحكم في الوقت ذاته: ذلك ما قضى به منطق التاريخ في المغرب، وذلك ما حكمت به مسيرة اثنا عشر قرنا من الديمومة والاتصال في الدولة. لا يستطيع الشعب المغربي أن يتصور أبدا حالا يكون الملك فيها « ملكا لا يحكم»، والحكم، في أعين ذلك الشعب، يعني أن «الملك يحكم وأنه يتحمل مسؤولياته» (18).

2 - الحقيقة الثانية، أو الدرس الثاني الذي يلزم الإصغاء اليه واستيعاب مضامينه يرجع الى النظام الديمقراطي المغربي باعتباره نمطا شاملا من التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي يتوافق مع حقيقة الملكية الدستورية المغربية، متى وقف الفاحص على طبيعتها الشعبية وعلى عمقها التاريخي، وإذا كان حقا انها تتفاعل مع وتيرة التطور الحضاري وتتوافق مع ايقاع مسيرة التاريخ، فإن الحق أيضا انها لا تملك الانفكاك من ماهيتها الإسلامية، تلك التي يحددها ويشرعها معا عقد «البيعة». والبيعة «وديعة مقدسة» فهي الثقة التي يهبها شعب ما لملكه»، ولذلك فهو لا يملك أن يتخلى عن تلك الوديعة عن طريق التنازل

---

18 - Ibid p. 157

والاستقالة مثلا ، ولا عن طريق التفويت الشامل لشؤون الحكم ولا للخطير من أمور الدولة . نعم ، ان الدستور المغربي ينص في صريح القول والعبارة على ان تنظيم الحياة السياسية في البلاد يرجع الى الأحزاب ، في تعددها وفي التزامها بقوانين الدولة ، ولكنه لا يعني أبدا تفريط الملك في واجبه الأول وفي التزامه الأعظم أمام الأمة وأمام الله ، وأمام التاريخ . ولذلك يكون «على الأحزاب الا تلعب لعبة تخالف مصالح ليست هي مصالح الشعب في شيء» (19) . ذلك أن الديمقراطية ، لكيلا يؤول الأمر فيها الى كلمة خالية من المعنى ، يلزم أن تكون ثمرة مسيرة تاريخية فعلية لا خيالية ، وأن تكون نتيجة اختيارها حضاري أصيل ، يجد من التاريخ الذاتي للأمة قاعدة تستقر عليها ، فلا تكون بالتالي تقليدا لايديولوجيات مخالفة يكون الحامل فيها على الفعل هو التقليد أو مسايرة التيارات الغربية المتبدلة . «تلك أرض تهتز ، يتهدد السقوط كل من يقف فوقها» . فأما من ابتغى إقامة صرح شامخ فإن عليه «ان يشيد بناءه فوق الأرض الصلبة : فوق ما هو مستقر «واما «الموضة» فإن شأنها هو التحول والتبدل اللذين لا يبقى معهما سوى السراب» (20) .

3 - الحقيقة الثالثة ترجع الى الشخصية المغربية وجملة مكوناتها . والمكون الأول في تلك الشخصية هو الأرض ، أو هو الجغرافية بالأحرى «فلو لم تكن البلاد محدودة بالمحيط في غربها وبالمساحات الصحراوية

Ibid pp. 84-85 - 19
Ibid p. 190 - 20

الشاسعة في جنوبها ، ما كانت لتكون لنا هذه الخصوصية ، بل كنا شعبا لا شخصية له فهو أشبه بهذه المحطة التي تتوقف القوافل عندها لتبيت ليلة أو تقضي شهرا . فالصحراء على سبيل المثال ، «قد قامت بدور في تجديد الأسر المالكة المغربية ما دامت أغلب تلك الأسر ، باستثناء الأدارسة والموحديين ، قد قدمت من الجنوب» (21) . وأيضا فإن وجود المغرب قيد كيلو مترات قليلة من أوربا قد جعل منه معبرا قاريا بين أوربا وافريقيا من جهة أولى ، وبين شطر من جنوب البحر الأبيض المتوسط وشطر هام من شماله من جهة ثانية . مثلما أن المغرب كان ، في الأغلب الأعم من التاريخ، طريق الإسلام الى افريقيا السوداء وصلة الوصل بين هذه الأخيرة وبين العالم العربي عن طريق التجارة من جانب وعن طريق قوافل الحجاج من جانب آخر . وبالتالي فإن الشخصية المغربية تغتني بهذه المعطيات التي تلتقي وتتفاعل كلها فوق ترابه وعبر تاريخه : فهي افريقية من حيث جذورها العميقة ، عربية مسلمة من حيث دينها وثقافتها وتراثها الروحي ، متوسطية من حيث مناخها ، وللمناخ أثر في اخلاق البشر وطباعهم فاعل وحاسم .

على أن هذه الشخصية قاومت المحن والحروب ، ديدن الأمم العظيمة العريقة ، «فلم يكون محض صدفة أن يقدر المغرب ، عبر تاريخه الذي يربو على الألف سنة على مجاوزة أشد الأخطار وأن يقدم اليوم أكثر الأدلة نصاعة لا على وجوده الوطني فقط ، بل وعلى بعثه ويقظته أيضا» (22) . وبالجملة فلا سبيل الى الباحث الى فهم المغرب وأهله الا بالإقرار بوجود هذه الشخصية المغربية بل وربما بالتسليم بوجود «معجزة مغربية» يرجع

La mémoire p. 65 - 21

S M. Hassan II - Le Défi . pp 16-17 - 22

أمرها الى المشيئة الإلهية وحدها (23) .

لا يكون استيعاب التاريخ الوطني ، عند القائد البصير والملك العريق في نسبه الى الأمة ، الا بهدف الاستحضار الدائم له في العقل والوجدان ، ولا يكون تمثله الا بهدف الفعل والعمل . فالوجهة هي المستقبل، دائما وأبدا ، والوعي الكامل بثقل «الوديعة المقدسة» ، متى صادف علما وخبرة وبصيرة تم اقترن بتوفيق من الله ، فإنه يدفع الى الإبداع ويوجه نحو التجديد والابتكار : التجديد في القوة والارادة ، والابتكار في الوسائل والسبل .

الحق ان هذه الأسباب كلها قد اجتمعت واقترنت ببعضها البعض في ذلك الحدث التاريخي الفريد : حدث المسيرة الخضراء . والحق أن المسيرة الخضراء ، من حيث تصورها كفكرة أولا ، ثم من حيث اعتمادها منهجا في العمل من أجل التحرير واستكمال الوحدة الترابية ، وأخيرا من حيث القدرة على تنفيذها لتكون بديلا حضاريا عن الحرب والمواجهة العسكرية، كل هذا يحمل على الاعتراف بتلك القدرة العجيبة التي استطاع الحسن الثاني أن يجمع فيها بين حكمة التاريخ الانساني في شموليته ، وبين درس التاريخ الوطني في خصوصيته ، وبين مغزاه الذي يطلبه القائد ، صانع التاريخ ، إذ يريد للتاريخ أن يكون حافزا على الفعل والعمل . والحق ، وأخيرا ، ان ملك المغرب قد أحسن القول وأوجزه وانطق التاريخ على لسانه إذ قال : «إن المغرب الجديد قد ولد على طريق العيون» (24) .

---

la mémoire p 209 - 23

S.M Hassan II - Le Défi p 190 - 24

حضور التاريخ في فكر الحسن الثاني هو اذن صورة للإلتقاء الخصب بين النظر والعمل، بين النظر بهدف طلب الدرس ونشدان العظة والعبرة، وبين الفعل في التاريخ والخوض في معتركه خوضا تحمل عليه المسؤوليات الجسام الملقاة على الملك رئيس الدولة ويستدعيه الانتماء الى دولة عريقة بمكوناتها، ومكوناتها قوية بأمجادها وسجلاتها. ثم ان ذلك الحضور يستمد قوته من ميل تلقائي الى قراءة التاريخ والاعجاب بعلمه وتدارسه - هو بالتالي صورة عجيبة لاجتماع في نفس الملك، بين القائد المطوق بالمسؤولية في أعلى درجاتها وأسمى أشكالها وأنواعها، وبين القارئ المتأمل في أحوال العمران وطبائع الدول والرئاسات.

مقومات المنهج التربوي الإسلامي وخصوصياته

الدكتور عباس الجراري
عضو أكاديمية المملكة المغربية
كلية الآداب - الرباط

مقدمة :

الإسلام عقيدة ونظام (منهج متكامل)

الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية ، أي آخر الأديان التي بعثها الله لهداية البشرية وإسعادها في الدنيا والآخرة . وقد كلف بتبليغ هذا الدين سيدنا محمد رسول الله ص بواسطة الوحي الذي أنزله الحق تعالى عليه ، وهو القرآن الكريم معجزة الإسلام الأولى . وتكفل العلي القدير بحفظه فلم يقع فيه تبديل ولا تحريف مثلما وقع في بقية الكتب : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (1) ، هو المصدر الأساسي للدين . ثم عمل الرسول ص على تبيينه بالسنة ، وهي ما صدر عنه عليه السلام من أقوال وأفعال وتقريرات ، فكانت بذلك المصدر الثاني والمكمل: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» (2) .

والإسلام عقيدة ونظام ، أو هو عقيدة يقوم عليها نظام :

أما العقيدة فتدعو إلى التوحيد المطلق ، أي عبادة الله وحده لا شريك له : «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا

---

1 - سورة الحجر الآية 9

2 - سورة النحل الآية 44

أحد» (3) وفي ذلك إبعاد لـكل المعتقدات الخرافيـة ، ولجميع الأوهام والآراء المضطربة والأفكار التي لا يقبلها العقل والمنطق .

وتوحيد الله عز وجل يستلزم الإيمان بـأنه تعالى خالق الكون ومنظمه ومسيره بـإرادته وقدرته . ولا يحتاج مـن يريد التأكد من ذلـك إلا أن ينظر في هذا الـكون ويتأمله بـالعقل المفـضي إلى الاقتنـاع ، بل يكفيه أن يـنظر الى نفسه : «وفي أنفسكم أفلا تبصـرون» (4) .

والتـوحيد يفـضي إلى الإيمـان بالملائكـة والكتـب والرسل ، وبالـقدر خيره وشـره ، وباليوم الآخر الـذي هو يوم الحسـاب والمصير . ولو لـم يكن هذا اليوم لكان وجـود الخلق والتكاليف مجرد عبـث ، وحاش الله أن يكون عمله كذلك : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون» (5).

هذا جانب الإيمان في العقيدة ، وهو يحل للفرد المسلم كل المشكلات الغيبية التي أثارها الإنسان وطرحها على فكره منذ بدء الخليقة ، والتي ظل فيها غير المومنين محتارين ومضطربين.

إلا أن هذا الإيمان الباطني المتبلور في القـول والتعبير يقتضي العمل ، أي يتطلب بعض التكاليف التعبديـة التي تجعل المسلم متصلا بربه وشاعرا بقربه منه ورقابته عليه ، حتى يتم له الإحسان الذي هو «أن تعبد الله كأنك تراه إن لم تكن تراه فإنه يراك» (6).

وإن هذه التـكاليف التـي هي الصلاة والـزكاة والصوم والحج لـتحرك الـوجدان وتـوقظ الـضمـير وتـربي فـي النـفس كـل ملـكات الخـير ، وهـي

---

3 - سورة الإخلاص

4 - سورة الذاريات الآية 21

5 - سورة المومنون الآية 116

6 - من حديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب

مضبوطة في نطاق ما يستطيعه الإنسان ويتحمله ، ولكل منها معناه ومغزاه والحكمة منه في سياق العبادة التي تعتبر الغاية من إيجاد الخلق:«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (7).

هذا جانب العقيدة في الإسلام ، وهو يهدف إلى إصلاح ذات الفرد وتطهير روحه والسمو بفكره وجعله في النهاية عنصرا صالحا مستعدا للعمل والتعايش ، وقادرا على أن يكون في مجتمع سليم ومنتج ، وعلى أن يتشكل منه هذا المجتمع .

من هنا يأتي الجانب الثاني ، وهو النظام الذي يقوم على هذه العقيدة أي النظام الذي يبنى عليه المجتمع الإسلامي . إنه مجتمع مؤسس على الفضيلة المتمثلة في مجموعة من المبادئ والقيم ، في طليعتها الحرية والإخاء ، والعدالة والمساواة ، واحترام كرامة الإنسان وإرادته ، والصدق في التعامل ، والتسامح وحسن الجوار ، ومنع جميع أشكال الظلم والاعتداء ، وتحريم كل أنواع الفواحش والمنكرات .

وللنظام الإسلامي معالم وملامح ومقومات يمكن تلخيصها في العناصر الخمسة الآتية :

1 - عنصر تربوي يعنى بالطفل في مختلف مراحل تكوينه ونشأته منذ زواج أمه إلى أن تحمل به فما بعد ذلك ، مما سيتناوله هذا العرض .

2 - عنصر علمي يقوم على مفاهيم وتوجيهات مكملة للعملية التربوية وفاعلة فيها على نحو ما سنوضح بعد.

3 - عنصر سياسي يقوم على الشورى إبعادا لكل مظهر للطغيان والاستبداد :«وشاورهم في الأمر» (8) و«أمرهم شورى بينهم» (9) ، وعلى

---

7 - سورة الداريات الأيات 56 -57 -58

8 - سورة آل عمران الآية 159

9 - سورة الشورى الآية 35

العدل الذي ينفي كل أنواع الظلم : «إن الله يامركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (10) «اعدلوا هو أقرب للتقوى» (11) ، وعلى المساواة فلا تمييز ولا تفرقة ولا عنصرية ولا عصبية ولا احتكار ولا تعالي ولا استعباد : «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم(12) «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى» (13) ويقوم هذا الجانب على رباط البيعة الذي هو عقد ملزم للحاكم والمحكوم والذي هو معظم الشأن عند الله: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما» (14).

وعلى أساس هذه المقومات يكون بناء الأمة التي أرادها الله أن تكون أمة الخير على الدوام «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (15).

4 - عنصر اقتصادي يقوم على أن المال مال الله وأن الإنسان مجرد متصرف فيه : «وآتوهم من مال الله الذي آتاكم» (16) وأنه لذلك ينبغي أن ينفق بتوسط لا إسراف فيه ولا تقتير : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» (17)كما ينبغي أن يوزع بعدل ، كل بقدر عمله واستحقاقه وما يستطيع امتلاكه طالما أن هذا

---

10 - سورة النساء الآية 57
11 - سورة المائدة الآية 9
12 - سورة الحجرات الآية 13
13 - من خطبة النبي ص في حجة الوداع.
14 - سورة الفتح الآية 10.
15 - سورة آل عمران الآية 104
16 - سورة النور الآية 33
17 - سورة الإسراء الآية 29

الامتلاك لا يخرج عن حدود الشرع . ومن ثم حرم الله الربا» ، «وأحل الله البيع وحرم الربا»(18) ومنع كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم : (19)».

5 - عنصر اجتماعي يقوم على العناية بالأسرة باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع ، مع الاهتمام بالمرأة التي هي أساس هذه الأسرة كما يتضح فيما بعد . ويقوم هذا الجانب الاجتماعي كذلك على التضامن والتكافل حتى لا يكون في المجتمع الإسلامي من يمد يده بالتسول أو السرقة ، لأن في أموال الأغنياء حقا للمحتاجين عن طريق الصدقة والزكاة والكفارات والتبرعات ومختلف أعمال البر والإحسان : «وفي أموالهم حق للسائل والمحروم» (20).

من هذه العناصر يتبين أن النظام الإسلامي يتسم بالتكامل ، وأنه يتضمن منهجا لإصلاح حياة الفرد والمجتمع والرقي بهما في مدارج السعادة .

لقد كان العرب فير الجاهلية قبائل متفرقة ومتنافرة تستبد بهم النعرات العصبية ، ويعيشون تحت رحمة الفرس والروم ، ويعانون القلق والاضطراب ، وقد انتشرت فيهم الفواحش والمنكرات ، وطغت عليهم حياة البداوة والترحل بحثا عن الكلأ والماء ، وكذا حياة التجارة في قريش ، وسادتهم عبادة الأصنام والأوثان تزاحمها اليهودية والنصرانية في بعض الأماكن .

وبزغ فيهم فجر الإسلام فقاوموه أول الأمر ، إلا أن الرسول ص

---

18 - سورة البقرة الآية 274

19 - سورة التوبة الآية 34

20 - سورة الذاريات الآية 19

وأصحابه الكرام تابعوا الرسالة وكشفوا الحقائق وأزالوا الأوهام وأبانوا الحجج صابرين ثابتين ومثابرين إلى أن انتصر الحق وعلت كلمة الله. فكان أن تكونت دولة إسلامية موحدة وقوية وتم القضاء على الأمبراطوريات وجميع قوى الظلم والبغي . وكان أن اتسعت رقعة هذه الدولة في ظرف سنوات محدودة لتشمل مناطق وأقاليم ممتدة في مختلف أنحاء الكون. ثم كان أن أتاحت هذه الدولة في ظل الإسلام تكوين حضارة وثقافة متميزتين كان لهما النفوذ والسؤدد على مدى قرون في وقت كان العالم غارقا في الجهل والتخلف .

لقد أظهر الإسلام ما كان في العرب والشعوب التي اعتنقته من قدرات عقلية وطاقات للعمل ، فأبدعوا في ظل الحرية والأمن والرخاء والاستقرار ، وأنتجوا في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية والتقنية ما أغنوا به تراث الإنسانية ، وما طعموا به هذا التراث من سمات إسلامية باقية على مدى الأزمان ، وكانوا بذلك سادة وأساتذة للأمم والشعوب الأخرى التي تلمذت عليهم واقتبست منهم.

وقد تسنى هذا للمسلمين باعتبار دينهم عقيدة ونظاما أي باعتباره منهجا . وإنه لمنهج يتميز بخصائص أهمها :

1 - أنه منهج إلهي متروك أمر تطبيقه للبشر .

2 - أنه يتسم بالاتساع والشمولية والتكامل .

3 - أنه جرب على مدى خمسة عشر قرنا فأثمر وأنتج.

4 - أنه يقوم على قواعد وأصول قابلة للملاءمة مع مختلف الظروف والأحوال.

5 - أنه بذلك صالح لكل زمان ومكان.

منظور الإسلام للفرد والمجتمع

في سياق مقومات المنهج الإسلامي وخصوصياته على وجه العموم، وتمهيدا لإدراك البعد التربوي في هذا المنهج، يلزم توضيح مفهومين يرتبطان بهذا البعد، ويبدوان متناقضين وهما ليسا كذلك، إنهما الفردية والجماعية، باعتبار الفردية نابعة من أن الدين مسألة تخص الفرد من حيث هو - أي الدين - علاقة بين الإنسان وخالقه بكل ما تقتضيه هذه العلاقة من خشوع وتأمل؛ وباعتبار الجماعية قائمة على أن الإسلام جاء لتكوين مجتمع تشمله نظم وقوانين، وأنه بذلك دين جماعي من حيث هو يرتبط بالجماعة في كل شئ.

والحقيقة أن الإسلام دين يتجه للفرد والجماعة في نفس الوقت، بل هو ينطلق من الفرد ليصل إلى الجماعة. إلا أن المقصود بهذه الفردية هو الفلسفي والنفسي الذي هو رديف الشخصية، وكذا بعدها الاجتماعي الذي يجعلها حالة الفرد باعتباره وحدة ضمن الوحدات المكونة للمجتمع بكل ما في هذه الوحدة من صفات ومؤهلات تجعلها صالحة للحياة في ذلك المجتمع، ومن ثم فليس المقصود بالفردية ما قد يؤديه مدلولها السلوكي الذي يجعل الفرد أنانيا منعزلا عن الآخرين، يعتبر نفسه الغاية التي بها يلغي الآخر.

وقد عني الإسلام بالفرد عناية فائقة تتمثل في عدة مجالات، أبرزها ثلاثة:

أولا = تمتيعه بجملة من الحقوق، بها يعيش الفرد إنسانيته في حرية وعزة وكرامة ومساواة مع الآخرين.

ثانيا = تكليفه بواجبات هي التي تحدد دوره وتجعل منه شخصا

مسؤولا في المجتمع ، ينهض بمهمات تخول له مكانته وأهميته ، وقبل ذلك تجعله يفيد منافع في هذا المجتمع.

ثالثا = إعداده إعدادا صالحا لكي يكون قادرا على الاستفادة من حقوقه والقيام بواجباته . وإن لهذا الإعداد أهمية قصوى ، إذ هو يتجلى في تربية الفرد وفق مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه ومقوماته وفضائله.

وتتم هذه التربية في تكامل يراعي العنصرين المكونين لفردية الإنسان وهما : الجسد والروح ؛

وحتى يتحقق هذا التكامل بين الجسم والروح نبه الإسلام إلى مراعاة مطلبيهما : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» (21) «اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا» (22).

فإذا كانت العناية بالجسم تقتضي تغذيته وتطهيره وترويضه وعلاجه وما إلى ذلك ، فإن العناية بالروح تقوم على الأخلاق والعبادات واحترام الحدود ، وهما تسيران متوازنتين إلى حد أن الجسد إذا أصابه ما يحول دون أداء العبادات على وجهها الأكمل رخص له في التخفيف بأمور كقصر الصلاة ، وصلاة المريض والعاجز ، والإفطار في رمضان للمسافر والمريض ، والحج حسب الاستطاعة .

وفي نطاق التوازن القائم على الوسطية والاعتدال ، أتاح الله للإنسان كل طيب يتمتع به دون إسراف ، ولكن في حدود ما يقيم الجسم

---

21 - سورة القصص الآية 77

22 - رواه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عمرو بن العاص

ويحفظ له قوته ويمنع عنه عوامل الوهن والضعف : «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» (23) وبهدف تحقيق نفس التوازن في مجال الروح نهى الإسلام عن الرهبانية ، لما تقتضيه من انصراف كلي للعبادة : «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها»(24) ومعروف أنه «لا رهبانية في الإسلام» (25) إذ «أن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة (26) .

هذا عن الإعداد ، أما عن الواجبات فهي على ثلاثة أنواع :

أولا = واجبات نحو الله

ثانيا = واجبات نحو المجتمع

ثالثا = واجبات نحو النفس

وتكفي الإشارة إلى هذا النوع الأخير ، المتمثل في الواجبات نحو النفس ، لارتباطه بالفردية التي يساق حولها الحديث : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» (27) وتعرض هذه الواجبات باعتبار النفس أمانة على الفرد أن يحافظ عليها ويصونها ، فلا يغامر بإتلافها كأن ينتحر مثلا ليضع حدا لحياته ، والسبب كامن في أمرين اثنين :

1 - حرمة النفس

2 - كونها ملكا لله ، والفرد إنما هو مؤتمن عليها.

---

23 - سورة الأعراف الأيتان 29 -30

24 - سورة الحديد الآية 26

25 - تكلم فيه ابن حجر

26 - رواه البيهقي عن سعد بن أبي وقاص.

27 - سورة البقرة الآية 194

وليس يخفى ما يكون للمنتحر من مصير : «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار» (28) . «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى خالدا مخلدا فيها أبدا . ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » (29)

على أن صيانة النفس لا تكون فقط بالمحافظة على حياتها ، ولكن تكون كذلك بحفظ التوازن بين الجسم والروح .

وحتى يتمكن الفرد من القيام بواجباته كلها - سواء مع نفسه أو مع ربه والمجتمع - فقد شرع له الله حقوقا بها يؤكد ذاته وسيادته وكرامته وعزته ؛ وهي عناصر قد تعرض أصحابها للشطط والزلل ، ولكن حين يكون الفرد المسلم بفضل إعداده للحياة محصنا بتقوى الله ومراعاة الآخرين ، فإنه لا يخشى عليها من شئ ، على الرغم من أنها مظهر لممارسة الفردية.

وإذا كانت الحقوق التي شرع الله للإنسان كثيرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإنه يمكن القول بأنها جميعا تتمحور حول الحرية والعدل والمساواة.

وحين يكون الإعداد صالحا ، فإن الفرد يتوقف بحريته عند حرية الآخرين ؛ وبذلك تتحقق حرية جميع الأفراد ، أي حرية المجتمع . وحين ينسحب الأمر على بقية الحقوق ، تصبح المساواة شاملة للجميع ، فتتحقق بها وبالعدل دعامتان للاستقرار السياسي والاجتماعي في الأمة.

---

28 - أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

29 - أخرجه البخاري عن أبي هريرة كذلك

ومن أبرز مظاهر تمتع الفرد بحقوقه أن يكون له رأي خاص ومستقل ، وأن تكون لـه القدرة على الـتعبير عـنه ، في نهـي عن أن يكون مجـرد تابع ومقلد وإمعة ، وحث على أن تكون له شخـصيته وذاتيته وحريته في الرأي والتفـكير والتـعبير : «لا تـكونوا أمعـة ، تقولون أن أحـسن الناس أحـسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنـفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا» (30).

هذا ، وحـين يكـون الإعداد وتؤدى الـواجبـات وتعطـى الحقـوق ، فإن ذلك كلـه يتوج بأكـبر مظهر لـلفردية وهـو تحمل المسؤولـية والمحاسبـة على العمل : «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» (31) «وكل إنـسـان الزمـناه طائره فـي عنقـه ونخرج لـه يوم القـيامة كتـابا يلـقاه منـشورا ، اقرأ كـتابك كـفى بنفـسك اليـوم عليـك حسيـبا» (32) «من عـمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها» (33) «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (34) «وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى» (35).

وإذا كان هذا هـو وضع الفرد فـي منظور الإسـلام ، فإن وضع المجتـمع يسـير موافـقا له ومكـملا ، باعـتباره - أي المجـتمع - مجـموع أفـراد ، ممـا قد يفضـي إلى القول بأن المجـتمع هو الفـرد في آخر المطاف ، لأنـه هو الأساس واللبنة الأولى والنواة التي تعطي الثمار بعد . لذا ، فإن أعد الفرد أو الأفراد إعدادا صالحا ، كان ذلك إعدادا لمجتمع سلـيم صحيح . ويتسع نطاق الأفراد نسيـئا فشـيئا في خـلايا تتسع بالـتدريج وتـكبر إلى أن يـتم الوصـول إلى المجتمع .

---

30 - رواه الترمذي عن حذيفة .
31 -سورة البقرة الآية 285
32 - سورة الإسراء الآيتان 13 - 14
33 - سورة فصلت الآية 45
34 - سورة الانعام الآية 166 والإسراء 15 وفاطر 18 والزمر 8 والنجم 37
35 - سورة النجم الآيات 38 - 40

ولعل أول ما يلفت النظر في الجماعة الإسلامية هو ما يكون لأفرادها من روابط وعلاقات مع غيرهم ومع أنفسهم ، وهي روابط وعلاقات تجمعها صفتان تبدوان متناقضتين ولكنهما في الحقيقة متكاملتان ، الشدة على الأعداء بما تقتضي من قوة الإيمان ورفع لواء الحق والحماس المتدفق من أجل نصرة كلمة الله وما ينتج عن ذلك من نور مضيء للوجوه والقلوب من جهة ، ثم الرحمة بما تستوجب من رأفة وتواضع ومودة وأخوة وحنو وإشفاق من جهة ثانية : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من اثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار» (36)

فإذا كانت علاقة أفراد المجتمع الإسلامي مع أعدائهم وخصومهم تقوم على الشدة ، فإنها فيما بينهم تقوم على المحبة والمودة والأخوة : «والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض» (37) «إنما المومنون إخوة» (38) «والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (39) «مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (40).

---

36 - آخر سورة الفتح الآية 29

37 - سورة التوبة الآية 72

38 - سورة الحجرات الآية 10

39 - سورة الحشر الآية 9

40 - أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير

وبنفس الصفات الحميدة يكون السلوك مع غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي من غير أن يخاصموه أو يعادوه :«من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» (41) «من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار» (42)

ثم إن حياة المجتمع الإسلامي تقتضي أن يشعر كل فرد أنه يتحمل الأمانة وأنه مسؤول : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» :(43)

هذه المسؤولية تمس ظاهر الحياة وباطنها وما يعلن الإنسان وما يخفيه لأنها مسؤولية يحاسب عليها . ومن ثم فهي تقتضي ضميرا حيا يقظا يراعي الله والناس والنفس من خلال المبادئ والقيم : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (44)

ويتميز المجتمع الإسلامي بملمح آخر يتمثل في التكافل ، وهو أن يكون الفرد في كفالة الجماعة بأن تحفظ له مصالحه الحيوية وترد عنه الأضرار : «المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (45) . فكما أن للأفراد واجبات يؤدونها ، وإن لم يؤدوها تعرض المجتمع للخراب ، فإن لهم حقوقا إن لم تسدد وقع الانهيار كذلك . وإذا كان المقصود هو حقوق جميع الأفراد ، فإنه في حال التكافل يختص الأمر بالعجزة والضعفاء ومن إليهم من الأرامل واليتامى والفقراء والمساكين . وبهذا تأخذ الحقوق والواجبات

---

41 - رواه الخطيب البغدادي عن ابن مسعود
42 - أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة
43 - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن حنبل عن ابن عمر
44 - سورة التوبة الآية 106
45 - رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل عن أبي موسى

مجراها الطبيعي في نطاق تحقيق إنسانية الفرد والمجتمع ، بكل ما تتطلبه هذه الإنسانية من غذاء وأمن وعدل وحق وفضيلة وإيمان ، وبكل ما تتطلع إليه النفس البشرية من رخاء وسعادة وحرية وعزة وكرامة وغير ذلك من الضرورات التي بدونها لا تقوم حياة حق : «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو بعلم به» (46).

العناية بالطفل تبدأ بالأم : مكانة المرأة والأسرة

إذا كان المجتمع الإسلامي متسما بالتكامل على هذا النحو ، من خلال ظواهر ومظاهر متعددة تتجلى على مستوى الفرد ثم على مستوى الجماعة عبر خلية الأسرة ، فإن الفرد في كل هذه المستويات يبقى اللبنة الأولى والأساسية إذا صلحت صلح الكل وإذا فسدت فسد الكل.

من هنا كانت العناية بالفرد في تكوينه وتنشئته - أي في تربيته - أهم ما تبدأ به المجتمعات المتماسكة والمتحضرة . والمقصود بالتربية هو غير ما يظن الكثيرون حين يربطونها بالتعليم ، إذ هي عملية موازية له ومستوعبة له وسابقة عليه ، وفي المثل الشعبي المغربي الذي له نظير لا شك في أمثال مختلف البلاد الإسلامية أن «الترابي سبقت الجامع» ومعناه أن التربية تسبق الكتاب حيث يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة وأساسيات الدين.

إن التربية توقظ الضمير وتقوي الإرادة وتصفي النفس وتهذب السلوك. بها تكون التقوى والاستقامة، وتكون التعبئة لأداء الواجبات ، وبها تتحرك مشاعر الخير في الإنسان ، وهي التي تدفعه للعمل المثمر الجاد.

من هذا المنظور عني الإسلام بالتربية عامة ، وبما يتعلق منها بالطفل

---

46 - أخرجه الطبراني عن أنس

خاصة ، باعتباره الغرس الذي سينمو لإمداد المجتمع بأجيال صالحة.

ونظرا لهذه المكانة التي للأطفال ، فقد أولاهم القرآن الكريم تشريفا منقطع النظير وصل إلى حد القسم بهم وتمكينهم من الحكمة : «لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد » (47) «يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا» (48).

وتبدأ عناية الإسلام بالطفل قبل أن يولد ، أي بأمه التي ستخرجه للوجود والحديث عن الأم في منظور الإسلام يبدأ حتما بمكانة المرأة في هذا المنظور وما لها فيه من أولوية تتجلى في كثير من المواقف ، انطلاقا مما كان عليه وضعها في السابق ، سواء عند العرب أو غيرهم، إذ كان يشك في كونها إنسانا ، وكان ينظر إليها باعتبارها متاعا يباع ويورث ، وكانت تحرق حين يموت زوجها ، وكانت في أحسن أحوالها تعد لعبة في ملك الرجل يلهو بها ويعبث ، دون نسيان الوأد الذي كانت تتعرض له والذي ما زال إلى الآن قائما في بعض البلاد التي تحارب كثرة الإنجاب.

لهذا وغيره كانت المرأة معرضة للظلم ، فجاء الإسلام وحاربه وأعطاها الاعتبار اللائق بها من حيث هي عنصر مكون للحياة والمجتمع ، عليها تقوم الأسرة وبها تكون . ،من أهم ما ينبغي لفت النظر إليه أن الإسلام من بالغ رعايته للمرأة جاء في القرآن الكريم بسور خاصة بها هي: «النساء» و «مريم» و «الممتحنة» و «الطلاق» ، بالإضافة إلى أحكامها المتفرقة في بقية السور. ثم إنه سوى الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وخاطبها في التشريعة بمثل ما خاطب به الرجل، وجعلها مسؤولة عن

---

47 - أول سورة البلد

48 - سورة مريم الآية 11

أعمالها ، ومنحها - كالرجل - ما تستحقه من جزاء ، وسعى في كل ما جعل لها إلى تحقيق كرامتها والمحافظة لها على وظيفتها الاجتماعية ، وكذا إلى صون عفافها وعفاف الرجل : «قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن» (49) «إنما النساء شقائق الرجال» (50) «ولهن منل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» (51) وهي درجة موضحة بأن «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» (52) . فالتفضيل راجع إلى طبيعة كل من الجنسين وما للمرأة في ذلك من وضع خاص نظرا لما تتعرض له كل شهر وما تعانيه في الحمل والولادة والإرضاع . ثم ان الرجل مكلف - في المنظور الإسلامي لمسؤولية الأسرة - بحمل أعبائها والقيام بجميع التكاليف والنفقات حتى ولو كانت الزوجة ذات مال.

إن المرأة تتحمل رسالتها في المجتمع باعتبارها زوجة وأما ، ثم هي تنهض بدور فعال في هذا المجتمع بما تمارسه فيه من أعمال إلى جانب الرجل . ففي نطاق الزوجية يكون التساوي والتكافؤ بينها وبين الرجل ، فليس له وحده أن يقبل ويرضى ولكن لها كذلك : «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن» فقالوا : «يارسول الله وكيف إذنها ؟ » قال : «أن تسكت» (53)

وفي مجال الأمومة وقع تنويه كبير بما تعانيه المرأة في الحمل والولادة والإرضاع ، بالإضافة إلى ما تقاسيه هي وزوجها في سبيل تربية الأبناء :

---

49 - سورة النور الآيتان 30-31

50 - أخرجه أبو داود والترمذي وابن حنبل والدارمي عن عائشة

51 - سورة البقرة الآية 226

52 - سورة النساء الآية 34

53 - أخرجه البخاري عن أبي هريرة . وفي حديث آخر عن عائشة أنها قالت لرسول الله ص «ان البكر تستأمر فتستحي فتسكت» قال ص : «سكاتها إذنها».

«حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» (54)
«والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» (55)
«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» (56)

وجاء رجل إلى رسول الله ص فقال : «يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ «قال «أمك» قال : «ثم من ؟ قال : «أمك» قال : «ثم من؟» قال : «أمك» قال : ثم من ؟ قال : «أبوك» (57).

وفي ميدان الحياة العامة تحدث القرآن الكريم عن بعض النساء اللائي كان لهن رأي وشخصية ودور . فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا على رأي مخالف لزوجيهما المومنين ، وامرأة فرعون كانت على عكس زوجها مومنة: «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتا هما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (58).

وبلغت مكانت المرأة في الإسلام أنها تقدم البيعة ، وقد قدمتها لرسول الله ص «ياأيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان

---

54 - سورة الأحقاف الآية 14.
55 - سورة البقرة الآية 231
56 - سورة الإسراء الآيتان 23-24
57 - أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة حسن الصحابة : حسن العشرة والإحسان
58 - سورة التحريم الآيتان 10-11

يفترينه بين أيديـهم وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم» (59).

إلى هذه المظاهر وغيرها يضاف التكريم الذي يزين المرأة إذ يجعلها في مكانة تقدير عالية « استوصوا بالنساء خيرا » (60) «لا يفرك مومن مومنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر» (61).

في إطار هذه المكانة تتكون الأسرة قائمة على الرجل والمرأة ، وعلى السكون الجامع بينهما برباط المودة والرحمة والمحبة والحنو :«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» (62) وهي علاقة مثلت باللباس ، مع ما يعنيه مدلوله من ستر وحفظ وصيانة وجمالية» «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» (63). وقد ربطت هذه العلاقة بأحكام دقيقة تراعى فيها عوامل إنسانية واجتماعية كثيرة تلخص في اعتبار الزواج ميثاقا كبيرا وملزما : «وأخذن منكم ميثاقا غليظا» (64).

فالأسرة - وهي الخلية الأولى في المجتمع - تبدأ من الزوجين ، وتنطلق من حسن اختيار الزوجة . ومن ثم أباح الإسلام للرجل أن ينظر إلى المرأة قبل الزواج «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» (65) ، ودعاه إلى أن يتخيرها صالحة «تنكح المرأة لأربع ، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» (66) «لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لمالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ،

---

59 - سورة الممتحنة الآية 12

60 - رواه البحاري ومسلم عن أبي هريرة

61 - أحرحه مسلم عن أبي هريرة . يفرك : يبغض

62 - سورة الروم الآية 20

63 - سورة البقرة الآية 186

64 - سورة النساء الآية 21

65 - رواه الترمدي عن المغيرة بن شعبة وقد أخبر النبي ص أنه حطب امرأة ، ورواه ابن ماجة عن أنس متحدثا عن المغيرة ورواه النسائي من حديث أبي هريرة والمغيرة

66 - رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة

ولكن تزوجهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل» (67)

وإن تفضيل الإسلام لذات الدين يعني أن الرجل لن يتزوج المرأة طمعا في مالها أو جاهها ، ولا تعلقا بجمال عارض قد يزول ذات يوم ، والحياة الزوجية عمر ممتد ، وحتى إذا لم يزل - وهو لابد زائل مع الأيام - فإنه يصبح عند الرجل أمرا عاديا يألفه ، ولكنه يتزوجها لأن هدفه أن يقيم أسرة تؤسس على الفضيلة . وكما أن الأمر يهم المرأة فهو يهم الرجل كذلك «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد» (68)

إن الإلحاح على عنصر الدين في الزواج بالنسبة للطرفين هو الذي يجعل من العلاقة الزوجية رباطا مقدسا قائما على الاقتناع والرضى والقناعة كذلك ، وهي كلها عوامل بها يتسنى الدوام والاستمرار . وإن أمر الرضى يعتبر ذا أهمية قصوى لأن به تهدأ النفس وتطمئن وتسكن ويزول طمعها وتذهب وساوسها : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (69).

توجيهات لتنشئة الطفل

انطلاقا من هذا الرباط المقدس تتوالى مظاهر اهتمام الإسلام بالطفل بدء من مرحلة الحمل به وإرضاعه على نحو ما مر.

وحتى تكون تنشئة الطفل مقرونة بتكوين ملكاته يدعو الإسلام إلى مساعدته على تكوينها من خلال التعامل معه بما يتناسب مع المرحلة التي يجتاز : «من كان له صبي فليتصاب له» (70) ، كما يدعو إلى العناية بالجانب السلوكي عبر تدريبه على ممارسات يريدها أن تكون سليمة ودالة

67 - أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر.

68 - رواه الترمذي عن أبي حاتم المزني.

69 - سورة الضحى الآية 5.

70 - رواه ابن عساكر عن معاوية

على مستوى من التهذيب راق ومتحضر، وكذا على مستوى عميق من الإيمان والوعي بحقيقة الحياة وكنه الوجود: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك» (71) «ياغلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فلتسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (72)

ويكتمل هذا التوجيه السلوكي في تهيئ الطفل للإقبال على الدين وتدريبه على أداء فروضه بالتدريج، وترغيبه في ذلك مع السعي إلى تكوين شخصيته والشعور بكيانه حتى ينشأ الذكر في سياق رجولة لا تأنث فيها ولا تخنث ولا انحراف، وكذلك حتى تنشأ الأنثى في إطارها الطبيعي: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع» (73)

ولم يكن للمنظور الإسلامي للتربية أن يهمل جسم الطفل والحاجة إلى تقويته بالتدريب على مختلف أنواع الرياضات على نحو ما كان معروفا في العهد النبوي من رماية وسباحة وركوب الخيل «علموا أولادكم السباحة والرماية» (74) «علموا أولادكم السباحة والرمي» (75) «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وألا يرزقه إلا طيبا» (76).

---

71 - أخرجه البخاري عن عمر بن أبي سلمة، وكذا مسلم والدارمي والترمذي وابن ماجة وابن حنبل، وكان رسول الله ص قد قال ذلك لربيبه عمر بن أبي سلمة.

72 - رواه أحمد عن ابن عباس، وكان رسول الله قد قاله له.

73 - أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه والحاكم في المستدك عن ابن عمرو بن العاص.

74 - رواه ابن مندة في كتاب معرفة الصحابة، وأبو موسى المدني في كتاب الذيل، والديلمي في مسند الفردوس عن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري.

75 - رواه البيهقي في الشعب عن حديث ابن عمر مرفوعا.

76 - أخرجه الترمذي، وابن حيان في كتاب الثواب، والبيهقي في الشعب عن حديث أبي رافع. وروى أبو يعقوب القراب من طريق مكحول أن عمر بن الخطاب ض كتب إلى أهل الشام أن علموا أولادكم السباحة والفروسية.

والمتأمل في منظور الإسلام للتربية يجد أن الإلحاح كبير على العناية بالجسم والروح ، لأن العناية بهما في آن واحد هي التي تجعل تربية الطفل سوية لا خلل فيها ولا اضطراب . وحين تكون سوية فإنها تكون متسمة بالهدوء والسكينة والاتزان ، والمقصود هدوء النفس وسكينة الضمير واتزان الذات . وفي هذا التوازن وبه يتحقق كيان الفرد في نطاق الفطرة التي فطره الله عليها ، وهي مجبولة على الوسطية والاعتدال كما مر . فلا بد للروح حتى تنهض بدورها أن يكون الجسم قويا سليما معافى ، ولا بد للجسم كي يكون كذلك أن تسكنه روح توافة للفضيلة والكمال .

ثم إن من شأن هذا التوازن أن يصون النفس من الآفات الجسدية والعلل النفسية ، وما أكثرها في كل زمان ومكان ، لا سيما هاته التي شاعت في المجتمعات المعاصرة كالقلق والشك والضياع والحيرة . ويدخل في هذه الصيانة جانب آخر يتجلى في السعي لكسب العلم والمعرفة ، وكذا لاكتساب العيش والقوت.

وفي سياق هذا المنظور ضمن القرآن الكريم جماع التوجيهات المنصوح بها في تنشئة الطفل ، سواء في علاقته بربه أو بوالديه أو بمجتمعه «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك ، إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلي ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يات بها الله ، إن الله لطيف خبير ، يابني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصاعر

خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واخفض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (77)

إنها نصائح تلخص ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم جسميا وعقليا واجتماعيا ، وهي صادرة عن لقمان (78) ، وقد قدم لقمان لابنه هذه الوصايا التي بدأت بالتحذير من الشرك بالله وهو أكبر الذنوب وأعظم الكبائر . وبعد تحذيره من الشرك وصاه أن يشكر لله نعمة الوجود والإيمان وأن يشكر لوالديه حسن عنايتهما وتربيتهما ، ونبه إلى أن مرجع الإنسان ومآله إلى الله الذي يعلم كل كبيرة وصغيرة من أعمال العباد ، ثم أوصاه بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب وعدم التكبر والتبختر والعجب والاختيال ، مع الاعتدال في المشي وخفض الصوت .

ولا يخفى أن كنه هذه التوجيهات يتمثل في السمو الروحي الذي هو أساس الإيمان وحقيقة الوجود وجوهر رسالة الإنسان في الحياة . وهل تكون الحياة حقا بدون هذا السمو الروحي الذي يقوم شخصية الفرد ويبنيها على قيم فاضلة ؟ فتكون النفس عزيزة ، وتكون الهمة عالية ، ويكون إباء الضيم ورفض الظلم ، ويكون صون الحرية والدفاع عن الكرامة ، ويكون الصبر والتحمل في سبيل الحق ونيل المرامي وبلوغ الأهداف مهما تكن وعرة وصعبة ، وبذلك يحصل الرضى والقناعة وتتجنب الوسائل اللامشروعة لإدراك الغايات فيتم الابتعاد عن الشبهات ودنايا الأمور وسفاسفها.

---

77 - سورة لقمان الآيات 12-18

78 - لم يكن كما يظن نبيا ولكنه كان رجلا حكيما ، ففي الحدبث : «لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التمكير حسس اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة «ذكره الطبرسي في «محمع البيان» عن ابن عمر.

ويـنطـلـق هـذا السـمـو عن مـراعـاة أمـر مهـم ، وهـو أن الـفرد أحـد مخلوقات الله ، وأنـه بالتالي في حاجة إلى أن يحافظ على صـلته بخالقه . وتبدأ هـذه الصلة تتربـى في نفس الفـرد منذ طفولـته الأولى ، فينشـأ على عقيـدة التوحيد بشـكل تلقائي ، سـرعان ما ينمو بـتقليد الوالـدين في أداء الواجبات الدينية وفـي التحلي بالأخلاق الحميدة . وشيئا فشـيئا تكبر هذه الصلة وتتـقوى كلما تدرج في مراحل الـتكوين والتعليم . والمـسؤولية في ذلك تـقع علـى الأسرة أول الأمر - أي عـلى الوالـدين - قـبل أن تتـحملـها المدرسـة ثم المجتمـع كله : «كل مـولود يولد عـلى الفطـرة فأبواه يهـودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (79).

- يتبع -

79 - أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن الأسود بن سريع.

موقف ابن سلام الجمحي من الشعر الموضوع

الدكتور جعفر الكتاني
كلية الآداب - الرباط

1 - منهجه في طبقات فحول الشعراء

يصور كتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء) جماع المراحل السابقة لما قيل في فجر الاسلام عن الشعراء الجاهليين، والاسلاميين. من حيث تصنيفهم الى طبقات، في عيار الجودة، ومن حيث تذوق أشعارهم من لدن الأقدمين. وكان ابن سلام في هذا التدوين غير هياب من أن يبدى قولا، أو يعلل حكما، أو يحدد قيمة، ولكن في حدود جد ضيقة، يكلأها أولاً وأخيراً غلبة الرأي العام على الابداع الشخصي، فيما يعرضه أو يبديه من آراء حول الشعر والشعراء.

وفي ذلك ما فيه من الأهمية لدينا نحن المتأخرين بالقياس الى ما كان يروج يومئذ عن الشعر والشعراء الجاهليين، والإسلاميين، على حد سواء. وحسب ابن سلام أنه كان من المصادر الأساسية لمن كتبوا في الموضوع بعده، مثل أبي الفرج الأصفهاني في الأغاني، وأبي عبد الله المرزباني في الموشح، وأبي علي الحاتمي في حلية المحاضرة.

وقد وزع ابن سلام شعراء مصنفه إلى طبقات بحسب ما كان يراهم فيها ذواقو الشعر في الجاهلية وفي الإسلام، فهو لم يوزعهم بحسب اجتهاده المحض، قسم أربعين شاعراًجاهليا مختارين، فحولاً، إلى عشر

طبقات ، أربعة في كل طبقة . وفعـل مثل ذلك بشعراء إسلاميين ووضع من مختاري شـعراء القرى خمسة مـنهم ، يمثلون المـدينة ، وتسعة يمثـلون مكة ، وخمسة ، يمثلون الطائف ، وثلاثة يمثلون البحرين .

ومما يلاحظ باهتمام في هذا التوزيع ، أنه راعى .

أولاً : تصنيف الشعـراء بحسب بيئاتهم . فمنهـم شعراء المدن ، ومنهم شعراء القرى . مما يدل على أن المقارنة حين الـتوزيع لم تتم بين من يفترقون عن بعضهم في المكان أو الزمان .

ثانـيًا : أن العرف فـي بيئـته كان يهـتم بالجـودة أولا قبل الكـثرة ، وأن الكثرة إنما تحظى بالأسبقية على القلة ، إذا كانت كلها جيدة ، فالمجيد المكثر أسبق الى طبقات الفحول.

ثالـثا : أن الأسبـق بين الـفحول إلـى أرقى الطـبقـات من جودة شـعره وكثرته تشمل أغراضا متـعددة . وقد قال ابن سلام عن خطته [1] «ففصلنا الشـعراء مـن أهل الجاهـلية والإسلام والمخضـرمين ، فـنزلـناهم مـنازلـهم ، واحتـجـجنـا لكـل شاعر بمـا وجدنا لـه من حـجة ، وما قـال فيه الـعلـماء ... فاقتـصرنا من الـفحول المشهـورين على أربـعين شاعرًا ، فألـفنا من تـشابه شعره مـنهم الى نظـرائه ، فوجدناهـم عشر طبقـات ، أربعة رهط كل طـبقة متكـافئين معـتدلين » . وكرر ابـن سلام الإعلان عن خـطته في الـفقرة (47) آخر مقدمته «ثم إنا اقتصرنا بعد الـفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم الـى رهط أربعة ، على أنهم أشعـر العرب طبقة ثم اختلـفوا فيهم بعد . وسنسوق في اختلافهم واتفاقهم ونسمي الأربعة . ونذكر الحجة لكل واحد منهم ، وليس تبدئتنا واحدًا فـي الكتاب نحكم له ، ولا بد من مبتدأ ،

---

1 - الفقرة 26

ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى».

لقد كانت بيئة ابن سلام (أواخر القرن الثاني والقرن الثالث) تواجه شعراً كثيراً ينسب لأصحابه أو لغير أصحابه ، مما شغل ابن سلام :

1 - فعني بتحقيق النص تاريخيا من حيث نسبته الى قائله ، أو هو حاول ذلك على أقل تقدير ، بيد أنه بالقطع قد شغله أمر الوضع في الشعر، وتهيب الشهادة بالعزو دون استخدام احتمالات الشك .

2 - وعني بتأثير الزمان الذي قيل فيه الشعر لما لظروفه من ضوء يساعد على تبين الواقع من صحة العزو .

3 - كما عني بالمكان الذي تواجد الشعر فيه ، لما للمكان من طابع يترك بصماته على الأثر فيكون ذلك مساعداً على تقييم النص وتقويمه .

4 - كذلك اهتم ابن سلام بالمناسبة التي دعت الى قول الشعر وذلك لما لها من أهمية في الشهادة على الثبوت والبطلان .

وأغلب الظن أن فائدة هذه المعايير التي تنبه إليها ابن سلام كانت جلية فيما أفضت به إليه من طرح الشك في نسبة ما بين يديه من شعر إلى المعزو إليهم الأمر الذي ساعده على لفت الاهتمام الى ما هو موضوع من الشعر .

ومن الحق لابن سلام وهو من استخدم احتمالات الشك تاريخيا في النصوص ، أن نتساءل عن مدى صحة نسبة هذا الكتاب إليه ؟ كتاب طبقات فحول الشعراء .

من المعلوم أن الكتاب أول ما طبع في فجر هذا القرن طبع بليدن سنة 1916 نشره يوسف هل بمقدمة ألمانية اللغة تحت اسم (طبقات الشعراء) ثم أعيد طبعه بعد ذلك بنحو أربع سنوات بنفس المحتوى في مصر سنة 1920

وتشكل كل من الطبعتين ثلث ما نرى الكتاب عليه اليوم بتحقيق محمود شاكر الذي سمى إنجازه (بطبقات فحول الشعراء) أخرجه بهذا الاسم سنة 1952 معتمداً على نسخة خطية مجهولة الأصول ، وعلى ما سبق أن نقله في الموضوع الأصفهاني والمرزباني بسنديهما عن ابن سلام وفي التصدير الذي كتبه المحقق للطبعة الجديدة أفاض في شرح سبب التسمية الجديدة وفي صحة نسبة الكتاب بصورته الحالية الى ابن سلام ولم يخف حاجة البحث العلمي الى الأمل في العثور على نسخة خطية أخرى لمصنف ابن سلام .

إن الكتاب بصورته الجديدة الحالية يضم تصنيف أربعة عشر ومائة شاعر، أربعون منهم في طبقات الجاهليين وأربعون في طبقات الإسلاميين، وأربعة في طبقة أصحاب المراثي واثنان وعشرون في طبقة شعراء القرى وثمانية في طبقة شعراء يهود .

لقد كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب لدى ابن سلام ذوقية أدبية تقويمية مما جعل عمله بداية لمنهج ستتحقق قواعده على عهد الآمدي في الموازنة والجرجاني في الوساطة . فقد أثار ابن سلام بعمله قضايا أدبية من صميم النقد لم يحققها عمل الجاحظ في البيان ، ذلك أن الجاحظ بما طرحه من اهتمام بالنثر العربي وموضوعاته كان قد شغله ما شغل بيئته يومئذ من الصراع بين الموالي والعرب . ولذلك كان كتابه البيان والتبيين موسوعة أدبية استطاعت أن تثير الانتباه لمسائل نقدية ولكنها لم تكن قضية الجاحظ الأولى في كتابه ، بخلاف ما طرحه ابن سلام في كتابه عن الشعر والشعراء الجاهليين والاسلاميين فقد كان ابن سلام يستقطب وجهات النظر النقدية في طبقات الشعراء وفي النصوص المعزوة إليهم من خلال ما انتهى اليه الرأي لدى اجماع المثقفين العرب .وفي هذا النطاق من

تمحيض الذوق الأدبي للصفوة المثقفة التي كان عقبا لها، فإنه راح في مصنفه يثير الشكوك، وهو يقف أمام النصوص حول أصالة النسبة بين الشعر والشاعر الذي يعزى إليه. وهي إثارة للشك كانت مفتتح من جاء بعد ابن سلام، من النقاد. مهدت لهم، لأن يوغلوا في تفاصيلها، وأسبابها، ومذاهبها، ويبنوا عليها، أحيانا، كثيرا من اليقين. أو يكتفوا بترداد منهجها من غير أن يتوصلوا الى وسيلة لتفاديها. حاشا رجال تدوين الحديث الشريف (2).

2 . شكوك ابن سلام في صحة بعض الشعراء الذين قبله

لقد دخل ابن سلام الى موضوعه بتفصيل قضيتين قال فيهما كلمته بجهير القول كانت الأولى في عرض خطته بسبيل تصنيف الشعراء وفق ما قره علماء بيئته. وكان ذلك موضوع الجزء الأول. أما القضية الأخرى فهي الإبانة عن رأيه فيما هو قبله من شعر، هو مدعو الى نسبته لذويه، الأمر الذي يحمل على اعتبار ابن سلام صاحب موقف واضح بخصوص عزو الشعر. أعلن عنه في غير وجل خمس مرات وهو يدخل الى طرح طبقاته. استخدم في إحداها لغة التقرير بوجود شعر موضوع ثم أعلن، بلسان من يقرر ويتهم، عن هذا الموقف في مرتين اثنتين وقبل ذلك حاجج بما يدفع به عن موقفه بعد أن قرر واتهم وحاجج دفعة واحدة في فقرة سابقة. فمما قرره قوله :

«وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في

---

2 - راجع مصطفى صادق الرافعي، ج 1، ص 277 - 234

عربيته . ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب الى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي .

وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه» (3) .

ثم قرر واتهم بقوله : «فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم ، وأشعارهم وأرادوا أن تلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال (4) . وقال ابن سلام كذلك : «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية . وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره . ويزيد في الأشعار » (5) ويحاجج ابن سلام في الفقرة التاسعة بما يشبه ما تنتهي به هذه الفقرة «فيقول : «اخبرني أبو عبيدة عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة (وهو

---

3 - راجع مصطفى صادق الرافعي ج 1 ص 277 - 234

4 - الفقرة 49 من الطبقات وانظر الفقرة عند الحاتمي 816

5 - الفقرة 51

وال عليها) فقال : ما أطرفتني شيئا ، فعاد إليه فانشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى فقال : ويحك ! عدم الحطيئة أبا موسى (6) لا أعلم به وأنا أروي شعر الحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس (7) ».

وفي فقرة أخرى يقرر ابن سلام ما يراه من وضع الشعر ويتهم ويحاجج في دفعة واحدة فيقول : «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه ، محمد بن اسحاق بن يسار ... وكان من علماء الناس بالسير ... فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف» (8) ومضى ابن سلام في اتهام ابن اسحاق بالغفلة فيقول عنه «أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا» (9) أي لا بقية لهم . وقال أيضا : «وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمودا فما أبقى» (10) وقال في عاد «فهل ترى لهم من باقية» (11) وقال : «قروناً بين ذلك كثيرا» (12) وقال «ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله» (13) .

إن هذه الشكوك التي أعلن عنها ابن سلام في صحة بعض الشعر

---

6 - مي الحلبة : يمدح أبي الحطينة الخ أنظر الفقرة 813 من الحلية وثمت المعنى أسلم واصبح

7 - نعض العقرة 52

8 - رقم 7

9 - الانعام 45

10 - النجم 50-51

11 - الحاقة 8

12 - الفرقان 38

13 - إبراهيم 9

الذي قبله ، تعد من المهام الأساسية التي واجهت النقاد الأوائل للأدب . والاعلان عنها من ناقد أول يشير إلى مدى استخدام عقله وفطنته الى ما هو بصدد نقده فإلى أي مدى تمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته على ممارسته للنقد في أوائل الأعمال النقدية بالأدب العربي.

قبل مناقشة هذا الموضوع فإن من الضروري الحديث عن أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين لما في ذلك من محاولة الإحاطة بالبواعث العلمية والحوافز المجتمعية التي أهابت بابن سلام أن يستخدم احتمالات الشك فيما هو بصدد عزوه لذويه .

3 - أسباب الوضع في الشعر

إن الإجابة عما أمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته (أو عدم تطبيقها) على ممارسته النقدية في كتابه إنما يشفى فيها عمله النقدي في صلب الكتاب ولكن من الضروري قبل ذلك التعرف على أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين لأن فيها محاولة الإحاطة بالبواعث العلمية والحوافز المجتمعية التي أهابت بابن سلام أن يستخدم احتمالات الشك - ان صح انه استخدمها - فيما هو بصدد عزوه لذويه .

1 - ان الغاية من العناية بالشعر لدى الرواة لم تكن مجرد الجانب الفني منه فذلك جانب قيم من جوانب أخرى متعددة كانت سببًا في الوضع العمد ، والنحل والانتحال ، لقد كان الشعر ديوان العرب - كما لا نحتاج الى القول - سجل مفاخرها بذكر أيامها وأنسابها وأحسابها ، ولذلك كان هدف الوضاعين ولا سيما بعد العصر الجاهلي .

وربما كان تأويل ذلك يتمثل في أن القبائل العربية في ظلال الإسلام

قد شغلها عن الاحتفال بحفظ الشعر الجاهلي ثورة الاسلام الجديدة بما فيها من نتائج الحرب ومشاغل العراك ، وبما قد فرضته تعاليمها من قيم جديدة . ولئن لم يطل البعد بين ما كان يحتفل به العربي في الجاهلية القبيلية وبين ما يحتفل به في عصر الأحزاب السياسية في صدر الاسلام . فإن ذلك جملة ما دفع بالرواة الى الوضع والنحل والانتحال . وفي قريش بالذات بدأ الوضع في الشعر فإنها كانت أولى القبائل العربية عرضة للتفاخر والتناصر بين بعضها لبعض ، واجهة التفاخر والتخادل فيما بينها وبين قريناتها القبائل العربية الأخر . وذلك كله بسبب ثورة الإسلام وعلاقة قريش بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

2 - كما كانت كلمات الشعر وبناؤه اللغوي فيما بعد صدر الاسلام الغاية من الوضع حيث كان عصر التدوين لعلوم اللغة العربية وآدابها في القرن الثاني من أسبابه ، فعرف رواة محترفون لهذه الغاية من بينهم محمد بن عبد الملك الفقسعي راوية بني أسد . مثلا للرواة الوضاعين داود بن متمم بن نويرة مثلا للشعراء المتزيدين في أشعار الآباء .

وحفز على ذلك الجدل بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة للاستشهاد على الرأي ولم يفلت من تقبل الوضع والاستناد اليه الكسائي ولا سيبويه .

3 - كما كانت الخلافات المذهبية بين علماء الكلام وبين مفسري القرآن سببًا آخر على الوضع ، أو تقبل المنحول . وقد كان المدونون يبحثون عن الشاهد من الشعر للقناعة المشتركة لدى الجميع بأن العلم أو الخبر الذي لا شاهد له من شعر الأول لا عبرة به ولا أساس له من الصحة . ،لذلك كانت الغاية أحيانًا تبرر الوسيلة . وقد تورط في ذلك إخباريون ، على رأسهم محمد بن إسحاق بن يسار الذي حاسبه ابن سلام حسابًا

عسيرا في مقدمة طبقاته . وكان الشاعر سهل بن أبي غالب الخزرجي يزعم بأنه يروي أشعار الجن وينشدها في مجالس هارون الرشيد ، وقد علق الرشيد على ما يسمعه مرة : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبًا، وإن كنت لم تره فقد وضعت أدبًا .

- كما كان الادعاء وحب الاستئثار بالعلم سببًا حمل عدداً من الرواة على التزيد في الأشعار ونحل الشعر لغير صاحبه . وقد عرف من الكوفة حماد الراوية (155هـ) بذلك كثيراً فقال فيه المفضل الضبي «سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ في راويته أم يلحن ؟ قال : ليته كان ذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟

5 - كذلك كان الملق للحاكم من أسباب الوضع كالذي يرويه ابن سلام عما فعله حماد هذا من تخرص على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري والي البصرة حينما نحل الحطيئة شعراً في مديح جد بلال .

6 - كما كان الزهو والخيلاء سببا للوضع أو لإقراره في مثل جواب بلال لحماد «ولكن دعها تذهب في الناس» . مع أنه قال قبل ذلك على رواية الحاتمي (14) «ويحك يمدح أبي الحطيئة ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطيئة كله» .

7 - كما عرف خلف الأحمر (180 م) في البصرة يضع الشعر وينحله

14 - فقرة 813 من حلية المحاضرة ولديه المعنى أسلم واوضح

الفحول من المشهورين . فقد وضع القصيدة المعروفة بلامية العرب .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

وعزاها الى الشنفرى . ووضع شعرا ونحله لتأبط شرا زعم أنه رثى به خاله الشنفرى وقد قال الأصمعى : سمعت خلفا يقول : "أنا وضعت على النابغة القصيدة التي فيها :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وينسب أبو عبيدة الى أبي عمرو بن العلاء الزيادة في شعر الحارث بن حلزة ، كما ينسب الأصمعى الى ابن دأب عيسى بن يزيد وضع الشعر في المدينة .

8 - وقد دأب المحدثون على الوضع ونسبة ما يضعونه من شعر الى المشتهرين مثل خلف

9 - ومن ذلك ما يقرضه الشاعر ، ثم يتهيب عرضه قبل أن يعرف رأي النقاد فيه ، فإذا ما عرفه ، لم يعد بعد ذلك يملك وحده التصرف في صحة عزو ما قاله .

10 - ومن أسباب الوضع أيضا : الحسد والعبث والتلبيس وذلك للكيد أو للإساءة أو للتشويه . ومن ذلك عزو شعر للبحتري في صفة الذئب لبعض العرب ، أو نسبة كلام فج لثعلب .

11 - ومما يدخل مدخل المنحول وليس بذلك اختلاف الروايات الذي ينشأ عن عادة النطق وفطرة التلفظ ففي بيت للهذلي ان ذؤيب رواية أبي عمرو بن العلال :

دعاني إليها القلب إني لأمره مطيع فما أدري أرشد طلابها

بينما يرويه الأصمعي :

عصاني إليها القلب الخ .

وربما أدى الى الاختلاف في الرواية الاعتماد على الحفظ وحده ، وقد يحفظ الشاعر كلمات يحرص على وزنها فيبعث ألفاظا أخرى مقومة للوزن وإن لم تكن محافظة على أصل المعنى من مراد الشاعر .

12 - وقد يكون السبب في انتحال الاسم تعدد الرواة أو نسيانهم ، أو اختلافهم . وإن القصيدة الواحدة قد تستجمع هذا كما في بائية كعب بن سعد الغنوسي (15) التي يرثى بها أخاه أبا المغوار فقد روى أبو علي القالي في أماليه (16) بأن بعض الناس يروي هذه القصيدة لكعب بن سعد الغنوي ، وبعضهم يرويها بأسرها لسهم الغنوي وهو من قومه وليس بأخيه ، وبعضهم يروي شيئا منها لسهم والمرثى بهذه القصيدة يكنى أبا المغوار ، واسمه هرم وبعضهم يقول اسمه شبيب ... وهؤلاء كانوا يختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرهم وزيادة الأبيات ونقصانها . وفي تغيير الحروف في متن البيت وعجزه وصدره.

---

15 - شاعر اسلامي أخباره في الآلئ 771 ومعجم الشعراء 228 (2) 2 / 141

16 - 2 / 148

اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي

الأستاذ محمد الأوراغي
كلية الآداب - الرباط

0 . تـــقــــــديم

اقتران لفظة التاريخ باللغة له معنيان ، لأحدهما يستعمل التاريخ اللغوي ، وهو الذي يتناول كل دراسة توسل اللغة ، وتتخذها ذريعة لاقتناص المعرفة بوقائع غير لغوية ، وللآخر راسمة اللغويات التاريخية ، التي تصدق على أعمال تعالج اللغة ذاتها بوصفها موضوعًا للتحليل التاريخي. وغايتنا من التقديم تحليل هذين المعنيين بالقدر الموضح لأوجه الائتلاف والاختلاف بينهما .

يستند التاريخ اللغوي الى مقدمة تقول : للغة بنية تعكس بنية غيرها، وغيرها ذهن بشري أو واقع خارجي ، لكن إسناد الطابع المرآتي إلى اللغة يغري الكثير من فروع المعرفة على توسيل اللغة إلى غيرها ، وهو ما يدفعنا إلى ضرورة سبر أقسام هذا المعنى وإقصاء غير المناسب لأحد المتراكبين في راسمة (التاريخ اللغوي) .

من جملة ما يُستبعد لعدم مناسبته للمفهوم من اللغة نذكر مختلف الأعمال المتميزة باستثمار قواعد اللغة في تحليل مضامين الأقاويل المدونة وغيرها من والرموز الدالة . لأن أي عمل من هذا القبيل ينتمي إلى حقل معرفي ينفرد بموضوع ، يمكن أن يستعين بقواعد اللغة في دراسته أو بغيرها

من وسائله المنهجية . وما كان كذلك ليس من التاريخ اللغوي في شيء . أما المستبعد لعدم مناسبته للمفهوم من التاريخ فينحصر في مختلف الدراسات اللغوية التي تروم الكشف عن الثابت الذي لا يتغير من القوانين المنتمية إلى غير اللغة ، أعمال من هذا القبيل تنتسب الى اللغة ، لأنها تتخذها موضوعاً ، لا إلى التاريخ لأنها تسعى إلى التمثيل لبنية لا تتحول، وبفقدها للشرط الأخير لا تدخل في ما صدق التاريخ اللغوي .

ولتحرير العبارة بالمثال الموضح لما لم ينتسب الى اللغة أو الى التاريخ فلم يجز انضاؤه إلى المركب منهما نذكر دراسات أدبية تلجأ أحياناً الى مفاهيم لغوية و سميائية لتحليل أقاويل تشكل نصًا فنيًا أو غيره ، وأخرى نفسية توظف معطيات لغوية للكشف عن نمو نفسية الفرد . كربط ولادة اللغة لدى الطفل بتكون المسافة التي يتخذها من الواقع المعيش (1) مثل هذه الدراسات قد تنتسب الى التاريخ ، لأنها تتناول مثله موضوعاً متحولاً متبدلاً وإن اختلفت طبيعة المتحول في كليهما ، لكنها لا تنتسب إلى اللغة . وبعكس ذلك «فلسفة اللغة العادية» (2) ، التي تتخذ من دراسة اللغة العادية وسيلة لإدراك ظواهر الواقع ، ومثّلها «الأنحاء الفلسفية» على اختلاف صورها المتلاحقة المتشكلة حاليًا في نموذج النحو التوليدي التحويلي ، إذ لم يتردد شومسكي صاحب النموذج في اعتبار نحوه بديلا للإحيائيا فرعها الذري المختص بدراسة البنية العضوية للذهن البشري، لأنه يعتقد أن «بنية اللغة تعكس بدقة متناهية العقل حتى صار

---

1 - للتوسع في العلاقة بين ولادة اللغة ومفارقة الواقع لدى الطفل انظر الفصل الثاني من كتاب Anıka Lemaı Lacan p 99

2 - رائدا هذه المدرسة أستين وسورل ، في وصف منهجية الأول ورد في مقدمة كتابه : Quand dırc c'est faıre ما معناه «لأستين منهجية ، بل وسيلة لإدراك الوقائع والظواهر ، أو تجربتنا الواقعية إنه يطرق الواقع من جهة اللغة العادية ... فلسفة ترمي من وراء تناول اللغة دراسة الواقع . وردد الثاني في مواضع غير قليلة من كتابه Les actes de langage أن موضوع فلسفة اللغة الواقع ومنهجيتها اللغة» .

علـم اللغـة لا يخـتلف فـي شيء عن عـلم العـقل ، أي الـعلم الـذي يدرس طبيعة العقل الـبشري و إواليات. فكان النحو بداية لتـحليل طرق العقل (3) ».
مثل هـذه الأعمال تنتـسب الى اللغـة ، لأنها تدرس بنـيتها ، لا إلى الـتاريخ لأنها تتوخى من المدروس التمثيل لقوانين وأبنية قارة لا تتبدل .

بإقصـاء ما سرد من أقـسام المعانـي المحتملة لـم يبق للـتاريخ اللـغوي سوى الدراسات الـتي تتخـذ من بنيـة اللغة مـوضوعًا ، ومن الـكشف عن تـعاقب أطوار الـناطقين بـها هدفاً . إذن كـل عمل تـوسل بدراسة الـلغة الى تحـديد الأطوار الكـسبية المتـعاقبة على الـناطقين بالـلغة المدروسة وجـب انضواؤه الى التاريخ اللغوي كما سيتضح بأمثلة في مبحثه .

أما اللـغويات التـاريخية فـهي متميـزة من جهة عـن التاريخ الـلغوي باعـتبارهـا تتخـذ اللغـة موضوعـا وهدفا لـلدراسة ، ومـن جهة أخـرى عن اللغويـات المسرحة من أي وصف بحكـم أن هذه الأخيرة ُتسكّن الـلغة عن طريـق التجريـد ، وتفصـلها بذلـك عن عوامـل التغـيير ، بخـلاف الأولى إذ تحافظ في تناولها للغة على تفاعل بنيتها مع العوامل المتحكمة في تغييرها، وهي فـي ذلك تـستـند الـى مقدمـة مفـادها أن المـوضوع الـذي يكـون مادة التاريـخ يمثل أفعـالا بشرية محـكومة بإرادة الإنسـان وقدراته الذهـنية (4) ، واللغة ، بوصفها ملكة صناعية (5) ، تشكل مادة للتاريخ .

---

3 - مثل الكلام المثبت أعلاه يتكرر في أغلب كتب شومسكي الكثيرة . يكفي القارئ غير المختص كتابه La linguistique Cartesienne لتكوين فكرة واضحة عن الأنحاء الفلسفية .

4 - من خلال المقارنة بين دراستين للغة ، دراسة تلاحقية diachronie و أخرى ترامنية synchronie ، اثبت إنكلر أن اللغة موضوع لتحليل تاريخي وليست موضوعا لتحليل مجرد ، للمزيد من التفصيل انظر : R. Engler, l'apport de Genève, pp 115-141, dans la linguistique génétique, Histoire et théories

5 - اعتبر ابن خلدون وغيره من المفكرين العرب «اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ... وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها» المقدمة ، ص 285 ، انظر أيضا الفارابي ، إحصاء العلوم ، ص 111 وكل صناعة فهي «ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال إدارية بروية تنحو تماما مقصودا ، ابن سينا ، البرهان ص 192 .

مما تقدم يجب الاحتفاظ مرحليا بأن للغة بنية متغيرة ، وأن انتقالها عبر أطوار متلاحقة ينفلت للملاحظة ويصعب إدراكه وضبطه . لأن الدارسين للغة والمتكلمين بها لا يكونون عبر تاريخها الطويل سوى حلقة من سلسلة بحيث يشاهدون تلك الحلقة لا السلسلة (6) . أضف أن تبدل اللغة لا يحدث صدفة ، وإنما تحكمه مبادئ ثابتة ، لكن مبادئ تغير اللغات ليست ذاتية التأثير ، بل تحتاج الى حفّاز لتمارس مفعولها على اللغة. ومُحرّضها لا يخلو إما أن يكون المتكلم بها ، وإما أن يكون اللغوي الواصف لها . والفرق بينهما أن الأخير يعجل بالتغيير ، عن طريق إلحاحه المستمر على تحريض المبدأ المسؤول الذي يمكن من تهييء بديل يعوض المقصود بالإفناء ، على هذا الأساس وجب أن تتفرع اللغويات التاريخية الى فرعين : أحدهما يضم الدراسات التي تلاحق أطاريح اللغويين الموجهة لتحاليلهم اللغوية باعتبارها صنفاًمن عوامل التحريض المؤثرة في تطوير اللغة في أحد الإتجاهين (7) . ويضم الفرع الآخر دراسات ترصد ما اختفى من اللغة وما ظهر بديلاً لمنقرض وبأي المبادئ يمكن ربط كل تغيير محتمل يلحق أحد مستويات اللغة ، كما سيتضح بأمثلة في المبحث الثاني من هذه الدراسة .

---

6 - راجع فيما أنشاه أعلاه C Buridant, Définition de la Diachronie, dans la linguistique génétique

7 - قديما تنبه الفارابي الى ما للغويين من تأثير في التعجيل بتغيير اللغة فقال في تحديد مهامهم بعدما وصف عدتهم المعرفية : فهؤلاء هم الذين يتأملون ألفاظ هذه الأمة ويصلحون المختل منها ، ينظرون الى ما كان النطق به عسيرا في أول ما وضع فيسهلونه ، والى ما كان بشيع المسموع فيجعلونه لذيذ المسموع ... وينظرون الى أصناف التركيبات الممكنة في ألفاظهم ، والترتيبات فيها ، ويتأملون أيها أكمل دلالة على تركيب المعاني في النفس وترتيبها ... فتصير عندها ألفاظ تلك الأمة أفصح مما كانت، فتكمل عند ذلك لغتهم ولسانهم ، ثم يأخذ الناشئ هذه الأشياء عن السالف ، كتاب الحروف ، ص 144

1 . التاريخ اللغوي

ينتمي الى التاريخ اللغوي الدراسات المتميزة بالخاصيتين : 1) مقاربة بنية اللغة بمنهجية واردة من أجل 2) استصدار أحكام تخص أطوار الناطقين بها وأحوالهم المتبدلة . وهكذا يمكن أن يتوصل ، باستعمال منهجية اللسانيات السلالية في الدراسة المقارنة بين مجموعة من اللغات ، إلى إثبات القرابة العرقية بين الناطقين بها ، وإرجاعهم ، لحاجة في النفس، إلى أصل واحد ينحدرون منه انحدار لغاتهم من لغة أصل غابرة .

ولعل ضمان الاستقرار للتوسع الأنجليزي في آسيا كان وراء اختلاق راسمة «اللغات الهند أروبية» في أواخر القرن الثامن عشر . وتضم هذه المجموعة لغات ، اعتبرها المستشرق الانجليزي وليم جونس ، تنحدر لقرابتها من أصل واحد غابر ، وهي الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية اللغة القديمة المقدسة في الهند (8) ولا يستبعد أن يكون التحديد المسبق للهدف المراد تبريره بدراسة لغوية وراء التخلي المبكر عن اللسانيات السلالية . إذ سرعان ما أغرقت برواسم جديدة . من قبيل «النحو التاريخي» و «النحو المقارن» و «اللسانيات التلاحقية» (9) بل لم يعد أحد يطمئن الى ثبوت القرابة بين لغات من خلال التشابه الصوتي والدلالي بين بعض الكلمات .

ومن المحتمل أن يُجعل ضمن أهداف المقارنة بين لغات في إطار نظرية للنحو الكلي إثبات علاقة تفاضلية بين أقوام . كأن تنعت لغة البعض

8 - للمزيد من التفصيل أنظر الفصل الأول من كتاب J. Lyons, linguistique générale

9 - لتحديد الفوارق بين بعض الرواسم أعلاه انظر

Christian peeters, "grammaire historique et linguistique génétique" dans la la linguistique : génétique, pp. 67-72

بكونها طبيعية تشخص الصور الكلية للفكر البشري ، منها تستنبط قواعد النحو الكلي التي تحكم الأنحاء الخاصة باللغات الأخرى ، والتي لم تذعن فهي شاذة غير طبيعية ، تعكس الذهنية الغريبة لأهلها الناطقين بها ، ومثل هذه الأحكام المعيارية والاستخفافية تتردد بكثرة في أعمال النحاة التوليديين .

يدل على علاقة التفاضل بين أقوام وجود كلمات في لغات للتقليل من المتكلمين بغيرها ، مثل (بربر) [10] التي تعني ، في اللاتينية والإغريقية واللغات المنحدرة منهما ، الأجنبي البدائي الذي لا يبين . ومثلها كلمة (عجم) في عربية الجاهلية التي تقابلها كلمة (عرب)، كما في قوله : (ولا يرى مثلها عجم ولا عرب) [11]. فالأول يخلط في كلامه ولا يبين فلم يفهم عنه الثاني . أما في عربية الإسلام فقد صارت كلمة (عجم) تدل على غير المبين بأي لغة تكلم ، أو صمت ، فيقال للصبي ما دام لم يتكلم صبي أعجم، ويقال صلاة النهار عجماء أي لا يجهر فيها بالقراءة ، ذكره ابن فارس في معجمه أسفله .

ويشهد أيضًا لعلاقة المفاضلة تقارض اللغات المتفاوت أهلها رفعةً . إذ تضطر أحيانا اللغات الى التشقيق المتفاوت لبعض المعاني المعجمية . وفي هذه الحالة كل لغة تحتفظ بما لديها أصلاً لمعنى شقيق تقترضه مع لفظته ومكانته من إحدى ضرائرها ، أما موقع المعنى الشقيق بالمقارنة مع مكانة المعنى الأصل فتحددها علاقة التفاضل بين اللغتين المتقارضتين . إذ

---

10 - للمريد من التوضيح انظر ص 24 من كتاب EcoUmberto, la recherche de la langue parfaite

11 - علل ابن فارس إطلاق لفظة العرب على الناطقين بالعربية ، ولفظة العجم على الناطقين بغيرها فقال : «العجم الذين ليسوا من العرب ... كأنهم لما لم يفهموا عنهم سموهم عجما ... والعين والراء والباء أصول ثلاثة : أحدهما الإبانة والإفصاح ... وأما الأمة التي تسمى العرب فليس ببعيد أن يكون سميت عربا من هذا القياس . لأن لسانها أعرب الألسنة وبيانها أجود البيان» .

يحتل مرتبة عليا إذا كانت اللغة المقترضة في مرتبة دنيا ، وتكون له مرتبة دنيا إذا كانت المقترضة في مرتبة عليا . يوضح المثال (1) في الطرة (12) أسفله علاقة التفاضل القائمة بين المعاني الأصول (أ) في اللغة الفرنسية ، والمعاني الشقائق (ب) المقترضة مع ألفاظها من العربية . يستعمل المتكلم بهذه اللغة الألفاظ (أ) إخبارا عن حياده إزاء معانيها ، لكنه إذا قصد الحط من قيمها اضطر الى استعمال شقائقها (ب) المقترضة من لغة تقع في مرتبة دون مكانة الفرنسية باعتبار الناطقين باللغتين .

هذه العلاقة التراتبية يمكن ملاحظتها أيضاً بين فصيح اللغة الواحدة وعاميها . كأن يعدل متكلم عن اللفظة الفصيحة ليستعمل بدلها لفظة عامية إذا قصد التقليل من المعنى الأصل لتحقيق غرض التحقير ، وبعكس هذه العملية يحقق غرض التعظيم .

الكشف عن الطابع المميز للأمة في فترة من تاريخها هدف لكثير من الدراسات اللغوية . أوضح مثال يشخص هذا الصنف لغويات الفترة الرومانسية بألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر . إذ نسب الى هنبلت ، وهو رجل دولة وأشهر لغوي ألمانيا في الفترة المذكورة ، دفاعه عن فرضية تقول بالارتباط الشديد بين اللغة والطابع القومي الى درجة اختلاط العرق الآري باللغات الجرمانية . تبنيه لهذه الفرضية تركه يعتقد أن لكل لغة بنية خاصة تكيف تفكير أهلها ، وتعكس أسلوبهم الخاص في العبارة (13) .

---

12 - المتعاقبة (أ) في المثال (1) تمثل الأصول لفظا ومعنى للشقائق (ب) المقترضة .

1) (أ) ... fort, chef, chien

(ب) ... Cadour, caid, clebs

13 - للتوسع في الموضوع أنظر كتابي لاينس وشومسكي الآتيين Lyons, linguistique générale

Chomsky, la linguistique cartésienne

عملاً بهذا التوجه المتميز بالتحام اللغة بمستعمليها نجد الخليل في النص الآتي يتناول في خطاب واحد اتصاف العربية وأهلها بالحكمة . يقول : «إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه : فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست ، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها ... فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا» (14) محتوى هذا النص يكشف عن الانطلاق من فرضية واحدة مفادها : إن إتقان بنية اللغة أو اختلالها ليرتبطان ، بالتوالي بحكمة أهلها أو بعفويتهم ، وإذا اتضح التاريخ اللغوي موضوعاً و منهجية تعين المرور الى تناول شريكه الموالي .

2 . اللغويات التاريخية

سبق في التقديم أن ذكرنا أن هذا القسم من الممارسة المعرفية يتميز بخاصيتين : أولا اتخاذ ما يشكل حقل اللغة موضوعا للدراسة وهدفًا ، فلا يتجاوزه طلباً لغيره . ثانياً التزام الحياد بالإمساك عن التدخل في الموضوع كاصطناع سكونه عن طريق تجريده ، وعزله عن عوامل التأثير في تغيره ، بإدماج الخاصيتين نحصل على عبارة تقربنا أكثر من تصور دقيق لهذا الفرع ، فنقول ، اللغويات التاريخية : ممارسة معرفية تلاحق تغير اللغة بنية ونحواً وترصد تطورهما في الاتجاهين .

---

14 - أنظر النص بكامله في كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، ص 66

تقدم أيضا أن تحول اللغة أو تطورها لا يعزى الى الصدفة ، وإنما يحصل بفعل عوامل تمارس تأثيرها بتحفيز طبيعي من المتكلم أو اصطناعي من اللغوي ، وهو ما اقتضى تفريع هذا القسم الى فرعين أحدهما يرصد أطاريح اللغويين وتحاليلهم لمجموع الواقائع اللغوية التي تشكل نسقاً وظيفياً ينتقل من حالة إلى أخرى عبر الزمان . نخص هذا الفرع من الدراسة باسم «الملاسنة» أما الصنف الآخر فإنه يتعقب كيفية انسلال نسق لاحق من سابق ، ويحدد المندرس من وقائع النسق مقروناً بعلة اختفائه وظهور بديله الذي يعوضه . هذا الفرع من اللغويات التاريخية نخصه باسم «الملاغاة» (15).

1.2. الملاسنة

ظهر أن الملاسنة فرع من اللغويات التاريخية ، يهتم بميلاد الأفكار المنتمية الى علم اللغة ، وبتحركها بين اللغويين عبر الزمان ، ويشمل ما كان من جهة اللغة متوحداً أو متغايراً : فتكون الملاسنة متوافقة إذا رصدت الدراسة انتقال الأفكار وطرق المعالجة بين لغويين يشتركون في دراسة اللغة الواحدة ، وتكون متغايرة إذا وقع التركيز على تتبع هجرة الأفكار اللغوية وكيفيات المعالجة بين لغويين يفرقهم اهتمامهم بلغات مختلفة .

إذا وضعنا أسئلة من قبيل ، بأي لغوي تقترن مثلا فكرة التقسيم الثلاثي للكلم وهو يدرس أي لغة ، وبأي القنوات صارت الى غيره ممن

15 - الملاغاة ، معاودة واستمرار لمدلول الجذر (ل غ و) ، وتصدق على كل دراسة تلاحق تطور الوقائع اللغوية عبر الزمان . وهي المقابل العربي لراسمة Diachronic في محاضرات سوسير .

درسوا لغات مختلفة ، وهل أصاب تعديـل الفكرة في صياغتها الأصلية ، وبأي لـغوي وهـو يدرس أي لـغة اقـترن الـتعـديل المـدخل ، فـإن الأجوبـة المقترحـة لمثل هذه الأسئلة تـشكل ملاسنة متغـايرة ، لكن أسئلة مـن قبيل بأي لغوي العربـية يقترن التقسيم الـثلاثي للكلم ، ومن من نحـاة هذه اللغة تجاوز الراوية والنقل عن السابق الى فحـص مقترحه ونقده دعماً أو نقضاً، وعلى يد من صار المقترح السابق متجاوزاً ، وبأي أسلوب حصل التجاوز، أعن طريق إدماجه فـي تصور أعم أم بالانتقال به الى نمط آخر مـن التفكير في اللـغة ، فإنهـا تنتمـي وأجوبتهـا الى ملاسنـة متوافقـة ، ولنختـبر صدق الصنفين من الملاسنة بأمثلة تحققت في اللغويات التاريخية .

1.1.2 . الملاسنة المتغايرة

جـاء في كـتـاب لا ينـس المذكـور فـي الطـرة (8) أن تحليـل الـلغـات الأوروبية ظـل إلى أواخر القرن التـاسع عشر متـأثراً ، بالنحو الـذي وضعه بانيـني للهـندية ، خاصـة في مجال الدراسـة الصوتيـة والصرفيـة . إذ عنه أخذ لغويو أوروبا التصنيف المفصل لأصوات اللغة المؤسس على الملاحظة والتـجربـة ، كمـا أن الكـثير مـن مظـاهر لـغويات الـقرن المـذكور لـتعـكس بوضوح نظرية النحاة الهنود أو ممارسـتهم اللغوية . بل ذهب الى أن مبادئ لبانيني ، كالانسجام والعموم والاقتـصاد ، مازالت تبدو واضحة التأثير في أعمال لغوية حديثة .

لكنه يغـلب على القليل من الأعمـال التاريخية لعلم الـلغة في أوروبا عدم الـتثـبت في اسـتخـلاص النتـائج ، وإطـلاق الأحكام. إذا ركـزنا عـلى بعـض الأفكار الـلغويـة المتناقـلة بين ابْـلُمْفِـلْد (16) ولا يَنْـس وامْبِرتُو إيـكو

---

16 - انظر الفصل الأول من كتاب Leonarol Bloofield, le langage

لأمكن إرجاع ما ذكر من النقص في التثبت الى عدم التفريق بين ما هو (ضروري) في الملاسنة وما هو (وضعي). لأنه يكفي أن يحصل تراكم معرفي في دراسة لغة معينة لكي تظهر مجموعة من المبادئ المنهجية المتماسكة. وإذا حصل مثل ذلك التراكم حول لغة أخرى أدى الى نفس النتيجة وإن لم يحصل اتصال فاقتراض.

يلزم عن المثبت في الفقرة السابقة أن كثرة الدارسين للغة المعينة تقود الى ضرورة تفسير أوصافهم لها، أو تعليل أحكامهم عليها، ولا تفسير أو تعليل بغير الانطلاق من مبادئ عامة تحكم عدداً معيناً من الجزئيات، (التعميم من المبادئ الضرورية التي لا يخلو منها حقل معرفي). والعلل متصاعدة الى فرضية العمل الأولي التي تعتبر مصدراً لاشتقاق ما دونها من المبرهنات المتنازلة، ولا اشتقاق بغير مبدأ الانسجام الضروري لكل عمل معرفي. أما الاقتصاد في الجهد أو مبدأ الخفة فهو طبعي في الانسان المجبول على التحرك نحو الأسهل كما عبر عنه الفارابي بقوله: «فتنهض نفسه الى أن يعلم أو يفكر أو يتصور أو يتخيل أو يتعقل كل ما كان استعداده له بالفطرة أشد وأكثر، فإن هذا هو الأسهل عليه» (17). ولذلك لجأ نحاة العربية الى مبدأ الخفة لتعليل الكثير من الظواهر المنتمية الى مختلف مكونات اللغة ومستوياتها، وسوف يطول الحديث بإيراد نماذج منه (18).

نخلص مما سبق الى أن التأريخ لهجرة الأفكار اللغوية يجب ألا

---

17 - الفارابي، كتاب الحروف ص 134

18 - استعمل ابن جني مبدأ الخفة في تعليل عدد كبير من الظواهر الصرفية. إذ به فسر إهمال ما أهمل من الألفاظ (الخصائص ج 1، ص 54)، وامتناع تراكب التصويتات المتولدة عن أبنية تتشكل في حيز واحد، كالحقليات (ابن جني، المرجع السابق، وسر صناعة الإعراب، ج 1، ص 75)، وامتناع اجتماع ساكنين في الوصل (ابن جني، المنصف، ج 1 ص 10. للاستزادة من النماذج المذكورة أنظر محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ص 141.

يدخل في الاعتبار المنتمي الى الضروري . كالمبادئ التي نسبها لا يَنْس إلى بانيني ، وعنه صارت الى غيره من لغويي هذا العصر ، ومن قبيل الضروري المفسر بالواقع المنعكس في اللغة ، التقسيم الثلاثي للكلم المعلل بالواقع في قولهم : «الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة لا غير ... ودليل الحصر أن المعاني ثلاثة : ذات ، وحدث ، ورابطة للحدث بالذات . فالذات الاسم ، والحدث الفعل ، والرابطة الحرف ... ولا يختص انحصار الكلمة في الأنواع الثلاثة بلغة العرب ، لأن الدليل الذي دل على الانحصار عقلي ، والأمور العقلية لا تختلف باختلاف اللغات» (19) . معنى هذا أن كل من تأمل في اللغة باعتبارها نسقاً رمزياً سينتهي لا محالة الى ذكرٍ للأقسام الثلاثة بصورة أو بأخرى . لذا لا يجوز أن يُعزى التقسيم الثلاثي إلى لغوي بعينه ونقله عنه إلى غيره المعاصر له أو المتأخر عنه .

يلزم عما تقدم أن تنحصر الملاسنة المتغايرة في «الوضعيات» باعتبار هذه الراسمة تتناول كل ما يضعه لساني من المفاهيم الإجرائية منتمياً إلى نظرية معدة لوصف اللغة . يمكن توضيح هذا الصنف بمثال «العامل» بوصفه مفهوماً إجرائياً ينتمي إلى فصٍ يتولى ، داخل نظرية للنحو ، مهمة إسناد العلامات المعربة عن الأحوال التركيبية .

ينشأ العامل عن قيام علاقة تركيبية بين عنصرين ، أحدهما عامل يجلب الحالة فعلامتها للآخر القابل لهما ، وهو بهذا المعنى ينسب الى سيبويه ، بحسب المتوفر من كتب النحو المنشورة ، وقد يرفعه مختص في

---

19 - ابن هشام ، شرح شذور الذهب ، ص 21

تاريخ النحو العربي الى أحد المتقدمين عليه (20)، وبهذا المعنى انتقل العامل، عن طريق معربين كيوسف عون وغيره إلى نظرية العمل والربط لشومسكي (21)، مع فارق لازم عن اختلاف النحويْن المترتب عن اختلاف اللغتين، إذ يتحدث كل من سيبويه وشومسكي عن أحوال تركيبية واحدة كحالة الرفع وحالة النصب وحالة الجر (22). وبما أن الأخير يصف لغة من النمط التركيبي سيضطر الى الحديث عن مبدأ الجوار القاضي بأن يكون العامل رأس مركب عجزه معموله، ولا يشترط ذلك سيبويه، لاهتمامه بلغة من النمط التوليفي، إلا في حالة الجر، لأن الجار ومعموله مركب واحد. وإذا كان الفعل المتعدي في نحو سيبويه يجلب حالة الرفع للفاعل وحالة النصب للمفعول فإن هذا العامل في نحو شومسكي لا يجلب إلا حالة النصب للمفعول. أما حالة الرفع فيجلبها للفاعل صرفة الزمن المتضمنةُ لأمارة المطابقة اللاصقةِ بالفعل، وما ذكرناه هنا قليل من كثير لأن الغرض والقصد توضيح الملاسنة المتغايرة في الوضعيات بالتمثيل.

20 - أرخ الكثير من المفكرين العرب للعلماء، كل في مجال تخصصه، لكنهم غفلوا عن التاريخ للعلوم، فلم يهتموا برصد ميلاد الأفكار في حقل معين وملاحقة تنقلها بين المشتغلين داخله اهتمامهم برجالات العلم. أهمل التاريخ للغة العربية وعني بتسجيل الحياة الثقافية والاجتماعية لعلمائها، ذكر الانباري النحاة متلاحقين من غير أن يحدد سهم كل واحد، وصدر كتابه بأول من وضع شيئا من النحو، وهو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وختمه بذكر شيخه ابن الشجري. وجاء سيبويه حلقة في سلسلة النحاة إذ أخذ النحو «عن الخليل بن أحمد، وأخذه الخليل عن عيسى بن عمر، وأخذه عيسى بن عمر عن ابن أبي اسحاق، وأخذه ابن أبي اسحاق عن ميمون الأقرن، وأخذه ميمون الأقرن عن عنبسة الفيل، وأخذه عنبسة الفيل عن أبي الأسود الدولي، وأخذه أبو الأسود عن أمير المؤمنين علي عليه السلام» أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء، ص 406، وللقفطي طريق آخر، إذ ذكر أن سيبويه أخذ عن الخليل عن أبي عمرو بن العلاء عن نصر بن عاصم عن أبي الأسود عن علي، انظر كتابه، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج 1، ص 6، ولم ينسب أحد مفهوم العامل الى غير سيبويه ممن سبقه.

21 - أنظر الفصل الثالث من كتاب شومسكي نظرية العمل والربط Chomsky, théorie du gouvernement du liage, p 261

22 - انظر سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 2. ولما ذكر من الأحوال يستعمل شومسكي على التوالي Cas nominatif, cas objectifs, et cas oblique

2.1.2 . الملاسنة المتوافقة

يأتلف هذا الفرع مع السابق (1.1.2) في الاهتمام برصد ميلاد الأفكار النحوية وملاحقة تنقلها بين المشتغلين داخل ميدان اللغة ، ويختلف معه في كون الأول يلاحق هجرة الأفكار وانتقالها بين نحاة يدرسون لغات متغايرة ، بينما الثاني يتتبع أفكار نحاة يتوافقون في دراسة لغة واحدة . لتحديد هذا الفرع بمثال يمكن أن نقتفي ثنائية الكلام والقول في لغويات العربية ، أو نزيد عليها المفهوم من الاستثناء المتصل والمنقطع .

(أ) ثنائية الكلام والقول

هذه الثنائية تداولها نحاة العربية بالمعنى المعبر عنه بقول ابن ملك في ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ‏ ‏ ‏ ‏ واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحده كلمة والقول عم ‏ ‏ ‏ ‏ وكلمة بها كلام قد يؤم

من محتوى البيتين يعني هذا المبحثَ كونُ الكلام يصدق على ما كان من الألفاظ مستقلاً بالفائدة لا يفتقر إلى غيره ليتم معناه . بينما القول يستغرق المفيد وغير المفيد من الألفاظ المركبة .

تمييز الكلام والقول ، استناداً الى علاقة الانتماء القائمة بين خاص (الكلام) وعام (القول) ، أسسه ابن جني (23) ثم انتشر في كتب النحو بعده، ويظهر مما ختم به الباب أنه لم يكن يريد من إطلاق الكلام على المفيد من اللفظ التام ، وإطلاق القول على الناقص والتام سوى الرد على المتكلمين ونقد تصورات فرقهم للكلام على الخصوص .

23 - أنظر ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، ص 17-32 ، تجد مثل قوله : «أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه» سموا كل ما مذل به اللسان من الأصوات قولا ناقصا كان أو تاما» عبارات ابن جني في هذا الباب تكاد تتكرر بألفاظها في مفصل الزمخشري في شرحه لابن يعيش .

وإذا كان لابد من كلمة تفصل بين التصورين للثنائية فإن النظرة الفاحصة لتكشف عن كون النقاش الدائر بين المتكلمين في مسألة خلق القرآن أساسه العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، أو بين اللفظ والمعنى. المعتزلة (24) لا يجوزون وجود المعنى مع عدم اللفظ لما بينهما من التعلق. فأطلقوا الكلام وأرادوا به ملابسة المعاني المنظومة للتصويتات المتراكبة تركيباً متدرجاً عبر مستويات اللغة. وبما أن الأشاعرة (25) يجوزون إمكان الفصل بين الدال والمدلول انتفى المانع من إطلاق الكلام على المعاني المنتظمة قبل أن تلابسها الألفاظ المعبرة عنها.

يهمنا مما ذكر حديث المتكلمين عن تصورين للكلام متوازيين، إذ يطلقه بعضهم و يريد به وجه العبارة الحسي الملابس لوجهها المعنوي، ويقصره آخرون على الوجه المعنوي قبل أن تباشره الألفاظُ المعبرة عنه. فحصلنا بذلك على وجود وجهين متوازيين متطابقين، أحدهما دلالي معنوي يكون سببا للآخر الصوتي الذي يكون دليلاً على السابق. على الوجه الدلالي المجرد يطلق نظار من مختلف الحقول المعرفية اسم الكلام، وعلى الوجه الصوتي المصوغ مقترناً بالوجه المعنوي يطلقون اسم القول ولما بينهما من الموازاة والمطابقة يتم أحدهما بتمام الآخر وينقص بنقصانه.

على علاقة الموازاة المثبتة بين الكلام والقول يحمل وصف سيبويه (26)

---

24 - يستدل القاضي عبد الجبار على أن الكلام يصدق على ملابسة المعنى لأصوات اللغة المبنية على وجه مخصوص فيقول: «فصل في أن الكلام هو الصوت المقطع الواقع على بعض الوجوه وإبطال القول بأن الكلام غير الصوت يدل على ذلك استحالة وجود الكلام المعقول عاريا من الأصوات المقطعة، واستحالة وجود الأصوات المقطعة عارية من الكلام، ولو كان أحدهما غير الآخر لم يمتنع ذلك فيهما على بعض الوجوه» المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج 7، ص 21.

25 - بعد أن ذكر الجويني بمفهوم الكلام عند المعتزلة عقب فقال: وذهب أهل الحق الى إثبات الكلام القائم بالنفس، وهو الفكر الذي يدور في الخلد، وتدل عليه العبارات تارة، وما يصطلح عليه من الاشارات ونحوها أخرى» الارشاد الى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص 105.

26 - أنظر سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 62، و ص 471.

لهما لا على علاقة الانتماء كما أوّلَهُ ابن جني في الموضع المشار اليه من كتابه الخصائص . ثنائية الكلام والقول ، كما حدد سيبويه قُطْبَيْها ، يمكن استثمارها على نطاق واسع لمعالجة مسائل لغوية ، وهي على النقيض من ذلك في تصور ابن جني ، إذ لم يثبت أن لوحظ استعمالها في غير موضعها ، وهو ما يدل على كونها مشكلا مغلوطا هَبَّ ابن جني الى اختلافه لإخراج آراء المتكلمين من الملاسنة المتوافقة ، كما يظهر بوضوح من قوله : «وقد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضع ، وضيق القول فيه عليهم حتى لم يكادوا يفصلون بينهما ، والعجب ذهابهم عن نص سيبويه فيه ، وفصله بين الكلام والقول ، ولكل قوم سنة وإمامها» (27) .

بما تقدم يتضح دور الملاسنة في الكشف أولاً عن التأثير المتبادل بين الأنظار النحوية أيا كانت اللغة أو اللغات المدروسة . وثانياً عن كيفية تسرب الخطأ الى المفاهيم النحوية المغلوطة التي تثقل النحو ، الأمر الذي يقضي بإقصائها ، وإعادة صوغها صياغة واردة .

(ب) الاستثناء المتصل والمنقطع

الاتصال والانقطاع في الكتاب من رواسم الإعراب ، لا يستعملهما سيبويه إلا لوصف إعراب التابع . إذا قامت علاقة التبعية بين متراكبين احتمل التابع الاتصال ، إذا طابق إعرابه إعراب المتبوع ، والانقطاع إذا لم يطابقه ، كما يتضح من المقارنة بين الجملتين المواليتين :

(1) ما حضر المدعوون إلا خالد

(2) ما حضر المدعوون إلا خالدا

---

27 - ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، ص 32

بما أن للخاص (خالد) بعد (إلا) إعراب العام (المدعوون) قبلها كان الاستثناء في الجملة (1) متصلاً ، وهو في الجملة (2) منقطع ، لأن العامل (حضر) لما انشغل بالعمل في العام (المدعوون) تكونت إمكانية قطع امتداد أثره الى الخاص (خالداً) بعد (إلا) ، و بذلك يكون الانقطاع وصفاً لمركب ناظر مركباً آخر حالة تركيبية لا علامة إعرابية ، و يكون الاتصال وصفاً لمركب ناظر آخر حالة تركيبية وعلامة إعرابية .

ولا يحصل الاتصال أو الانقطاع ، كما تحددا ، إلا بتوافر شرطين أولهما : قيام علاقة الانتماء الواجبة (28) بين العام أو المستثنى منه والخاص أو المستثنى ، لأن وجوب الانتماء أساس بنية (إلا) الاستثنائية . وثانيهما شغل العامل بذكر العام وقد نفي عنه ما أُدْخِل فيه الخاص . لأنه بغير مثوله لا شيء يشغل العامل عن التسلط مباشرة على الخاص بعد (إلا) ، كما يظهر من الجملة (3)

(3) ما حضر إلا خالد .

وبعد مثول العام ، كما في الجملة (3) ، تنتفي التبعية أساس الاتصال أو الانقطاع . مع المبرد (285 هـ) بدأت ثنائية الاتصال والانقطاع تأخذ معنى جديدا يستند إلى أساس دلالي (29) ، يمثل في علاقة الانتماء ($\in$) ، أو عدمها ($\notin$) . فإن انتمى الخاص بعد (إلا) الى العام قبلها كان الاستثناء متصلا بغض النظر عن إعرابهما ، وإذا لم ينتم إليه فهو منقطع ، وعليه فإن

---

28 - اشترط سيبويه ضمنيا وأصوليون تصريحا أن يكون الخاص منتميا الى العام على «سبيل الوجوب لا على سبيل الصحة ، من الأول قوله تعالى : (والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ...) إذ ما بعد (إلا) واجب الانتماء الى الانسان قبلها ومثل الثاني قول الشاعر :
وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير والعيس
لأن ما بعد (الا) ليس واجب الانتماء الى الأنيس قبلها ، لكنه يصح على سبيل المجاز . وفي حالة الصحة لا تكون (إلا) في نسق الاستثناء . لأن «الاستثناء يخرج ما لولاه لوجب دخوله تحته على جهة الشمول والجمع» ، أبو الحسين البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، ج 1 ، ص 220 . انظر أيضا سيبويه، الكتاب ، ج 1 ص 363 «باب ما يختار فيه النصب لأن الآخر ليس من نوع الأول» . إذ لم يستعمل كلمة استثناء في هذا الباب .

29 - أنظر المبرد ، المقتضب ، ج 4 ، ص 412 ، «باب ما يقع في الاستثناء من غير نوع المذكور قبله» .

الاستثنـاء من الجنس متصـل ومن غير الجنس مـنقطع (30) ، وبهذا المـعنى وصلا الى ابن السراج (316 هـ) الذي يرتكز هو الآخـر ، من أجل التفريق بينهما ، على العلاقة الدلالية القائمة بين المفردات المعجمية قبل أن تتراكب في بنـية قولية عـلى صورة الاستـثناء (31) ، ثم الى الزمـخشري (538 هـ) ، وغيره ممن جاء بعده .

ولم نهتـد الى نحوي أو بلاغي أو أصولـي ، ممن رجعنا الى أعـمالهم ، أهمـل المفهـوم الثانـي للثنائيـة المؤسـس على عـلاقة الانتـماء الدلالـية أو عدمها ، وذلك من أجل إحياء مفهومها الأول القائم في كتاب سيبويه على امتداد إعـراب المتبوع الى تابـعه أو انقطاعه ، وهـو ما يعبر عنـه بوضوح إذ يقول : «هـذا باب النصـب فيما يكـون مستثنـى مبدلا ... يقـول : (ما مررت بأحـد إلا زيدا) و (مـا أتانـي أحد إلا زيداً) . وعـلى هـذا (ما رأيـت أحداً إلا زيداً) ، فتنـصب (زيداً) على غيـر (رأيت) . وذلك أنك لم تجعـل الآخر بدلا من الأول ولـكنـك جعلـته مـنقـطعا ممـا عمـل في الأول (32) » . وإذا اتضح مفهوما الـثنائية تعين المرور الـى المفاضلة بينهمـا ما لم يكن لقطبـيها معان فرعية استأثرت باهتمام ناظر.

---

30 - بالمعى المذكور للقطبين وصلت الثنائية الى النحاة المتأخرين ، كابن هشام فقال : «وإن كان المستثنى منه مذكورا فإما أن يكون الاستثناء متصلا ، وهو أن يكون المستثنى داخلا في جنس المستثنى منه ، أو منقطعا ، وهو أن يكون غير داخل» . شرح شذور الذهب ، ص 280 . أنظر أيضا كتابه ، شرح قطر الندى وبل الصدى ، ص 244

31 - أنظر ابن السراج ، الأصول في النحو ، ج 1 ، ص 290 ، «باب الاستثناء المنقطع من الأول» .

32 - سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ص 363 .

قبل النظر فيما يترجح به أحد المفهومين يحسن أن نجمل القول ، مع الكشف المباشر عن وجه الخلل ، في مفاهيم أخرى فرعية انفرد الأصوليون باسنادها الى هذه الثنائية . أحدها ينسب الى أبي الحسين البصري (33) ، إذ يطلق الاستثناء المتصل على الانجاز المتواصل لبنيته ، بحيث ينتجها المتكلم دفعة واحدة ، وإذا انجز الجملة قبل (إلا) في زمان أول وباقي البنية في زمان ثان فالاستثناء منفصل أو منقطع (34) ، وقد بين في الموضع المشار إليه من كتابه أنه لا يجوز في حق المتكلم العادي إلا المتصل فقال : «الاستثناء غير مستقل بنفسه فهو كالخبر مع المبتدأ . فكما أن الخبر إذا تأخر عن المبتدأ شهراً ، لم يستفد به السامع شيئاً ، فكذلك الاستثناء المتأخر» ، وبإبطاله المنقطعَ المنجزَ في زمانين لم يبق مبررٌ لذكر الثنائية بهذا المفهوم في إطار الملاسنة المتوافقة .

أما القرافي ، وهو من مؤسسي العلاقة الدلالية بين المفردات المعجمية، فقد احتفظ براسمة المتصل للاستثناء من الجنس ، لكنه وسع المنقطع ليشمل ، 1) ما وقع على صورة الاستثناء من غير علاقة الانتماء مثل قولهم (ما رجع الجند إلا دبابة) ، و 2) أن يسند الى ما فبل (إلا) غير ما يسند الى الذي بعدها وإن كان من جنسه ، كما في (ما رجع الجند من المعركة إلا ضابطاً هرب) ، والقسم الأخير الذي أضافه القرافي (35) يسهل إبطاله ، لأن (إلا) في نسق الاستثناء يقع بعدها المفرد أو ما في حكمه من الجملة المعمولة : (أي التي يكون لها محل من الاعراب) .

---

33 - أنظر كتابه ، المعتمد في أصول الفقه ، ج 1 ، ص 260 . «باب في تخصيص الكلام بالاستثناء» .

34 - استقى أبو الحسين البصري هذا المفهوم من آية الشعراء . إذ نزل قوله تعالى : «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون» ، وبعد مدة وقع الاستثناء فنزل قوله تعالى «إلا الذين آمنوا ...» أنظر السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول ، ص 164 .

35 - علق القرافي على أمثلة المتصل والمنقطع بقسميه فقال : «إذا قلنا قام القوم إلا زيدا ، فزيد من جنس القوم وحكمت أولا بالقيام وعلى زيد بعدم القيام وهو كنقيض الحكم فهذا متصل . وإذا قلنا : قام القوم الا فرسا ، فالحكم وإن وقع بالنقيض على الفرس الذي هو عدم القيام ، لكن الفرس ليس من جنس القوم ، فكان منقطعا ، فإن قلت قام القوم إلا زيدا سافر ، كان منقطعا أيضا» . الاستغناء في أحكام الاستثناء ، ص 382 .

3.1.2 . المفاضلة بين المفاهيم المتنافسة

بعد أن سردنا ما عثرنا عليه من المفاهيم المغمورة لثنائية المتصل والمنقطع ، حيث أن التاريخ للعلوم يقتضي أيضا الاستقراء التام لفروع الفكرة المرصودة ولتلويناتها ، تعين المرور الى المرحلة الأخيرة من الملاسنة المتوافقة المتمثلة في مسألة المفاضلة بين مفهومي الثنائية الشهيرين ، هذه المرحلة تكتسب مشروعيتها من مقدمة معرفية يمكن أن نقول في التعبير عنها :

(4) إذ تكون رأيان متغايران حول موضوع معين كان أحدهما خاطئاً أو كان الصواب في غيرهما معاً .

لكن المفاضلة بين مختلف الأنظار المتنافسة للاستئثار بالموضوع المعين تفيد إذا تقيدت بقواعد منهجية مضبوطة ، نذكر منها :

(5) إذا تعارض مفهوما ثنائية رجح القائمُ على أساس جامع المستندَ الى أساس فارق .

وعليه فإن قائل الاستثناء من الجنس متصل ومن غير الجنس منقطع يستند إلى علاقة الانتماء أو عدمها ، وهي أساس فارق بين الاستثناء وعدمه ، وليس أساسًا جامعاً بين قسمين من الاستثناء . كما أن الاستناد الى علاقة التناظر أو عدمها أساس فارق بين العطف وعدمه وليس أساساً جامعاً بين قسمين من العطف (36) ، يترتب عن المثبت هنا أن أي مفهوم لا يتفرع إلى نفسه وإلى نقيضه .

---

36 - للمزيد من التفصيل حول علاقة التناظر المؤسسة للعطف أنظر الدكتور أحمد المتوكل ، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، الفصل الثاني ، ص 175 .

بخلاف ما تقدم فإن العنصرين المتراكبين بعلاقة الانتماء الماثلين في بنية الاستثناء يشكلان أحد وجوه التبعية، وكل تابع يحتمل أن يوافق بإعرابه متبوعه، فيكون متصلاً به، وأن يخالفه، فيكون منقطعاً عنه. إن علاقة الانتماء تضمن للأداة (إلا) معناها الوضعي وتمنعها من التقارض (37). حتى إذا تكون الاستثناء ومثل في بنيته العامٌ قبل أداته «إلا» والخاص بعدها نشأ أساس جامع يسمح بالانتقال إلى تفريع المفهوم الذي يستند اليه، فنحصل على المتصل، وهو الاستثناء المنفي المشغول الذي يتبع فيه الخاص بعد «إلا» العام قبلها من جهة البدل، وعلى المنقطع: وهو الاستثناء المنفي المشغول الذي يعدل فيه الخاص بعد «إلا» عن تبعية العام قبلها من حيث العلامة الاعرابية.

(6) إذا نشأ حول موضوع معين رأيان متغايران قدم الملحوظ في ظواهر أخرى على القاصر الذي لا يتجاوز موضعه.

استناداً إلى الضابط المصوغ في العبارة (6) فإن مفهوم الثنائية المؤسس على علاقة الاعراب يفضل المفهوم الآخر المستند الى العلاقة الدلالية، لأن الأول ملحوظ أيضا في غير الاستثناء، كالبدل (38)، والنعت (39)، والعطف (40). بخلاف الثاني فإنه لم يعثر على استعماله خارج

---

37 - في معنى التقارض ذكر ابن هشام: «إعطاء «غير» حكم «الا» في الاستثناء بها ... وإعطاء «الا» حكم «غير» في الوصف بها»، مغني اللبيب، ص 778. وقد نقله السيوطي الى كتابه الأشباه والنظائر، ج 1 ص 276. وقبلها قال الزمخشري:
«اعلم أن «الا» و «غيرا» يتقارضان ما لكل واحد منهما». المفصل. ج 1، ص 200. وقد يحصل الاقتراض في اتجاه واحد كأن تقترض «الا» معنى (الاستدراك) الخاص بالأداة «لكن» فتأتي في سياقها معوضة إياها إذا كان ما بعد «الا» جملة غير معمولة، أي ليس لها إعراب توافق به إعراب ما قبلها أو تخالفه. وللمزيد من التفصيل أنظر القسم الثالث من كتاب محمد الأوراغي اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

38 - أنظر سيبويه، الكتاب، ج 1 ص 224، «باب بدل المعرفة من النكرة والمعرفة من المعرفة، وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأة».

39 - نفسه، «باب ما ينتصب في التعظيم والمدح، وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول وإن شئت قطعته فابتدأته»، ص 248.

40 - في وصف إعراب المعطوف يقول سيبويه: «ويرفع الآخر على قطع وابتداء»، ج 1 ص 24.

الاستثناء .

(7) ما يفسر بمبدأ عام مقدم على منافسه غير المؤصل .

عملا بالقيد (7) الأخير فإنه يمكن إرجاع اتصال الإعراب في بنية الاستثناء المنفي المشغول أو انقطاعه إلى عامل تداولي ، فنقول : إذا شكَّل العامُّ قبل «إلا» محطَّ اهتمام المتخاطبين وجب القطع ، كما توضحه الجملة (2) السابقة ، (ما حضر المدعوون إلا زيدا) ، وإذا كان الخاص بعد «إلا» محط اهتمامهما وجب الاتصال ، وهو ما توضحه الجملة (1) المعادة هنا (ما حضر المدعوون إلا زيد) . وبهذا العامل التداولي نتجنب أيضاً ما يذهب إليه نحاة من جواز رفع المستثنى ونصبه في مثل هذه الحالة (41) . لكنه لا يمكن إرجاع الاتصال أو الانقطاع الدلالي إلى مبدأ عام ، يمكننا من إيجاد مبرر بعدول المتكلم عن الاستثناء من الجنس ولجوئه الى الاستثناء من غير الجنس ، وعدم وجود مبدأ عام يناط به الاتصال والانقطاع الدلالي دليل آخر على فساد هذا المفهوم ونجاح منافسه .

(8) اضطراب المبني على الفاشل من المفهومين المتنافسين يومئ الى انسجام المبني على الناجح منهما .

يلزم عن تطبيق القيد الأخير من منهجية المفاضلة ظهور خطابين متباينين . أحدهنا يتناول المفهوم الفاشل ، من مميزاته اضطراب عباراته ونبو كلماتها . بخلافه الخطاب الآخر المتميز ، لارتباطه بالمفهوم الناجح ، بوضوح العبارة وتوافق معاني مفرداتها وانسجام الأفكار . من أمثلة الخطاب الأول قول المبرد في وصف إعراب المركب بعد (إلا) في مثل قوله :

---

41 - للمزيد من التفصيل أنظر محمد الأوراغي ، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، مبحث «أصول تخاطبية توجب الانقطاع والاتصال» ص 255 .

«ما جاءني أحد إلا حمارا» ... فوجه هذا وحده النصب ، وذلك لأن الثاني ليس من نوع الأول فيبدل منه ، فتنصبه بأصل الاستثناء على معنى لكن (42) » .
من مظاهر الاضطراب في عبارة المبرد نذكر : 1) لا مركب ينصب بأصل الاستثناء ، إذ كل ما ينصب فعلى تمام الكلام أو بعامل جملي (43) ».
2) قوله ، «فتنصبه بأصل الاستثناء على معنى ولكن» ينقض مبدأ ثابتا لا يتخلف أبداً ، عبر عنه ابن النحاس ونقله عنه السيوطي فقال : «كل ما تضمن ما ليس له في الأصل منع شيئاً مما له في الأصل (44) » بمعنى إذا خرج عنصر إلى باب غيره منعه ذلك أن يكون له عمل بابه ، بمقتضى هذا المبدأ الفعل (قال) لا يعمل في مكونات الجملة وهو في بابه ، كما في (قالوا هذه أنعام) ، لكنه إذا خرج الى باب (ظن) عمل ، كما في (أتقولُ العقلَ نقمةً) .

ومن مظاهر اضطراب الخطاب المتناول للمفهوم الفاشل قول ابن السراج «وليس منهاج الاستثناء المنقطع منهاج الاستثناء الصحيح (45) ». ألفاظ هذه العبارة نابية قلقة لأن التقابل يكون بين الصحيح والخاطئ لاالمنقطع إلا إذا كان بمعناه ، و أن كلمة اللاستثناء لا تطلق على بنية إلا إذا توافرت فيها جميع شروط صحتها ، وفي هذه الحالة لا مبرر لتقييد اسم البنية بوصف صحيح ، ولا تطلق أبداً على بنية ليست على منهاج

---

42 - المبرد ، المقتضب ، ح 4 ، ص 412 .

43 - للمزيد من التفصيل أنظر محمد الأوراغي ، إعراب الناسخ الحرفي ، ص 31-65 ، من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد 19 سنة 1994 ، واكتساب اللغة ، ص 252 ، مبحث «نسق (إلا) الاستثنائية» .

44 - السيوطي ، الأشباه والنظائر ، ج 1 ، ص 228 .

45 - ابن السراج ، الأصول في النحو ، ج 1 ، ص 292 .

الاستثناء ، ولذلك ما استعمل سيبويه قط كلمة الاستثناء في الباب الذي تناول فيه تراكيب استعملت فيها (إلا) بمعنى (لكن) لانعدام علاقة الانتماء .

وتزداد حدة الاضطراب في الخطاب المتناول للمفهوم الفاشل في ثنائية الاتصال والانقطاع مع ابن الناظم في شرحه لألفية أبيه (46) إذا احتفظ بعلاقة الانتماء لكلا القسمين ، وجعلها في المنقطع تقوم بين متراكبين يدل أحدهما بالمفهوم (47) ، وهي في المتصل قائمة بين متراكبين دالين بمنطوقهما ، وهَمَّ بجعل لكلا القسمين أدوات خاصة ، وجرد «إلا» و «لكن» من التقارض والتعاوض . والى هاتين الأداتين يرجع لوصف بنية بالاستثناء أو الاستدراك بشرط أن تتراكب فيها ألفاظ تدل بالمفهوم . وهكذا تحتمل الجملة (9) الآتية الاستثناء والاستدراك تبعا لتعاقب أداتيها عليها .

(9) لا عيب فيكم   إلا   أقلامكم جفت
لكن

وهذا أمر لا يجوزه النسق إذ يمنع أن يتوارد العنصران في موقع معين من البنية و هما بمعنى.

ولعل ما قدمناه هنا كاف للوقوف على أهمية الملاسنة المتوافقة ، بوصفها عملية تتعقب أفكار النحاة للكشف عن شعبها ، وتحللها لاستكناه أصولها ، وتقارن بين المتغاير لتعيين مواطن الخلل في ضعيفها ، وجوانب القوة في الوارد منها ، وبذلك لا غير يحصل للملاسن صناعة النحو .

---

46 - انظر ابن الناظم ، شرح ألفية ابن مالك ، ص 288 .

47 - دلالة المنطوق ، ودلالة المفهوم من رواسم علم الأصول . يطلق الأول على المعنى المدلول عليه بعبارة لا تحتمل ألفاظها معنى غيره ، ويطلق الثاني على المعنى اللازم عن دلالة المنطوق ، للمزيد من التفصيل أنظر الغزالي ، المنخول من تعليقات الأصول ، ص 164 «كتاب التأويل» ، ص 208 «كتاب المفهوم» ، والأسنوي ، نهاية السول في شرح منهاج الأصول ، ج 1 ، ص 194 - 205 .

2.2 . الملاغاة

سبق أن بينا أن الملاغاة ممارسة معرفية تنظر الى اللغة بوصفها مادة للتحليل التاريخي إذ تلاحق بنيتَها المتحولةَ ، وتتعقب تطورها في الاتجاهين للكشف عن العوامل المسؤولة عن انسلال نسق لاحق من سابق، وتحديد المندرس من وقائع النسق مقروناً بعلة اختفائه وظهور بديله الذي يعوضه . إذن ، من المباحث الرئيسة في الملاغاة تحديد أسباب عدم استقرار اللغات .

أسباب تغير اللغات في تصور من سبق (48) يمكن تجميعها في صنفين: 1) أسباب خارجية ، كالزمن وإن كان من العوامل الضعيفة التأثير إذا لم يربط بالعامل الثاني الذي هو الاستعمال المرتبط بالجماعة التي تمارس العمل اللغوي تكلما ودراسة 2) أسباب داخلية ترجع الى محرك واحد يتمثل في الطابع الوضعي للغة المتحقق في العلاقة الاعتباطية بين الرمز ومدلوله .

تبدل اللغة ، كما جاء في المقال المشار إليه في الطرة (48) ، لا يحدث بإرادة المتكلمين ، ولا يحصل دفعة واحدة ، إنه يحدث في مجال الكلام الفردي ، ومنه يصير الى اللغة ، وهو يمس نقطاً بعينها في النسق ليتسرب بناء على مبدأ التساند إلى غيرها لكن كيف يمكن الاهتداء الى المتغيرات في اللغة .

سبق أن ذكرنا أن تحول الوقائع اللغوية وانتقالها عبر أطوار متلاحقة ينفلتان للملاحظة ، لأن حدوث أي تغيير ببنية اللغة لا يقع تحت أعين

48 - أنظر مقال Peter Wunderli, Saussure et la diachronie, pp. 143-199, dans la linguistique génétique.

المتلاغين ، ومع ذلك يمكن التماس الجديد في النسق عن طريق المقارنة بين الاستعمال الآني للغة كما هي متصورة في أذهان المتكلمين بها وبين وصفها السابق المُدَوَّن في كتب النحو . بالمقارنة بين حاضر اللغة وماضيها تنكشف قطعُها المتآكلةُ المعوَّضة بأخرى حديثة ، ويظهر المستعمل في نسقها الحالي بديلُ المهمل المنتمي إلى نسقها السابق . وكأن تطور وقائع اللغة يخضع لمبدأ التطارد ، بحيث يؤدي بزوغ عنصر نسقي جديد إلى أُفول الطريد .

بقي أن نثير في هذا التمهيد للملاغاة أسئلة تخص أنماط التغيير الذي يلحق اللغة ، أولها يمس أصوات اللغة باعتبار هذا القطاع من أكثر فصوص اللغة قابلية للتغيير غير الإرادي . فتعايشت فيه التصويتات (49) الوظيفية بجانب بدائلها المجردة من الوظيفة ، سبب القابلية المذكورة كون فص الأصوات الأكثر ارتباطا بالإنجاز الفردي للغة ، و فيه تنعكس الاستعدادات الطبعية للمتكلمين باللغة المعنية . إذن اختلاف الأمزجة وأعضاء جهاز التصويت البشري عامل فعال في تغاير أصوات اللغات وتبدلها . وقد قرن الفارابي (50) اختلاف الأمزجة بأصل الخفة فكَوَّن منهما سبباً قوياً يولد تنويعاً في أصوات اللغة وتبدلاً .

---

49 - التصويتة المقابل العربي للراسمة الأجنبية Phonème

50 - عن السبب المذكور عبر الفارابي فقال : «إذا كانت أعضاؤهم على حلق وأمزجة مخالفة لحلق أولئك مفطورين على أن تكون حركة السنتهم الى أجزاء من داخل الفم أسهل عليهم من حركتها الى الأجزاء التي كانت ألسنة أهل المسكن الآخر تتحرك إليها فتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدل بها بعضهم بعضا على ما في ضميره» كتاب الحروف ، ص 136 .

بموازاة أصوات اللغة يأتي معجمها من حيث القابلية للتغيير ، لكن التغيير هذه المرة إرادي بحكم ما يُنشأ لتوسيعه من مؤسسات التعريب والترجمة . ولازدهار التغيير في قطاع المعجم تكونت لغة خاصة بوصف حركة مواده ، كالمولد ، والدخيل ، والمعرب ، والنقل أو استئناف الوضع ، وفي مقابل هذه الأصناف نجد الضعيف ، والمنكر ، والمتروك ، والشوارد ، والنوادر ، والمهمل (51)

ولاشتداد العلاقة بين المعجم من جهة وقطاعي التصريف والتركيب من جهة أخرى فإن التغيير الذي يمس دلالة معجمية قد يسبب في تسريب التغيير إلى فصي التصريف فالتركيب ، وهذان المكونان أقل تأثراً بعوامل التغيير.

---

51 - للتوسع في حدود الرواسم المذكورة أنظر السيوطي ، المزهر.

مصادر البحث

(أ) باللغة العربية

أبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، 1386 هـ .

أبو الحسين البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، دمشق ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، 1385 هـ

أحمد المتوكل ، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، 1406 هـ

ابن جني - سر صناعة الإعراب ، دمشق ، دار القلم ، 1405 هـ

- المنصف ، القاهرة ، البابي الحلبي ، 1373 هـ

- الخصائص ، القاهرة ، دار الكتب ، 1371 هـ

ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ، بولاق ، 1274 هـ

ابن السراج ، الأصول في النحو ، بغداد ، مطبعة سلمان الأعظمي ، 1393 هـ

ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، القاهرة ، البابي الحلبي ، 1389 هـ

ابن الناظم ، شرح ألفية ابن مالك ، بيروت ، دار الجيل ، بدون تاريخ .

ابن هشام - مغني اللبيب ، دمشق ، دار الفكر ، 1384 هـ

- شرح شذور الذهب ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ

ابن يعيش ، شرح المفصل ، بيروت ، عالم الكتب ، بدون تاريخ .

سيبويه ، الكتاب ، بغداد ، مكتبه المثنى عن بولاق ، 1316 هـ

علي بن يوسف القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القاهرة ، دار الكتب ، 1369 هـ

الأسنوي ، نهاية السول في شرح منهاج الأصول ، بيروت ، عالم الكتب ، 1982 .

الجويني ، الإرشاد الى قواطع الأدلة من أصول الاعتقاد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، 1369 هـ

الزجاجي ، الإيضاح في علل النحو ، بيروت ، دار النفائس ، 1399 هـ

الزمخشري ، المفصل في علم العربية ، القاهرة ، مطبعة حجازي ، بدون تاريخ

السيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة بدون تاريخ

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ، البابي الحلبي 1384 .
- لباب النقول في أسباب النزول ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، 1400 هـ
- الأشباه والنظائر ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ، 1406 هـ
الغزالي ، المنخول من تعليقات الأصول ، دمشق ، 1390 هـ
الفارابي - إحصاء العلوم ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1968 .
- كتاب الحروف ، بيروت ، دار المشرق ، 1969 .
القاضي عبد الجبار ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، بدون تاريخ .
القرافي ، الاستغناء في أحكام الاستثناء ، بغداد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، 1402 هـ .
المبرد، المقتضب ، القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، 1399 هـ
محمد الأوراغي - اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، الرباط ، دار الكلام 1990.
- إعراب الناسخ الحرفي ، مجلة كلية الآداب الرباط ، عدد 19 سنة 1994
(ب) بغير العربية :

Anika L., Jacques Lacan, Bruxelles, 1977
Austin J.L., quand dire, c'est faire, seuil, Paris, 1970
Bloomfield L., le langage, payot, Paris 1970
Buridand C., Définition de la diachronie, linguistique génétique pul, 1988
Chomsky N , - La linguistique cartesienne, Seuil, Paris, 1966
- Théorie du gouvernement et du liage, seuil, Paris, 1991
Engler E., L'apport de genève, linguistique génétique, pu de Lille 1988
Loyons J., linguistique générale, Larousse, Paris, 1970
Peeters C., grammaire historique et linguistique génétique, linguistique génétique Pul, 1988.
Seorle J.R., les actes de language, Her man, Paris 1972
Umberto E la recherche de la langue parfaite, seuil, Paris 1994
Wunderlil. p. Saussure et la diachronie, linguistique Génétique.pul 1988

الإسلام في إسبانيا

الدكتور علي المنتصر الكتاني

1 - وصف عام لاسبانيا

اسبانيا دولة ملكية تقع في غرب البحر الأبيض المتوسط ، مساحتها 504.750 كيلومترا مربعا ، وسكانها 40 مليون نسمة سنة 1991. وتحد اسبانيا شمالا فرنسا والمحيط الأطلسي ، وغربا البرتغال وجنوبا مضيق جبل طارق الذي يفصلها عن المغرب ، وشرقا البحر الأبيض المتوسط . وتكون اسبانيا مع البرتغال شبه الجزيرة الإيبيرية وتفصلها عن فرنسا جبال البرانس ، وتتبع اسبانيا الجزر الشرقية في البحر الأبيض المتوسط ، وهي ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرة وقبريرة ، ومساحتها 5.014 كيلومترا مربعا وسكانها 766.000 نسمة (1991) ، وكذلك الجزر الخالدات المقابلة للشاطئ المغربي على بحر المحيط ، ومساحتها 7.273 كيلومترا مربعا وتعداد سكانها 1.600.000 نسمة (1991) . ويتكون القسم القاري من إسبانيا من هضبة تحدها من جهاتها الأربع جبال عالية كشارات الثلج في الجنوب ، وأعلى قمة فيها قمة أم الحسن وعلوها 3.478 مترا فوق سطح البحر ، وفي الشرق شارات كونكة وابن الرزين ، وفي الشمال شارات وادي الرمان ، وأعلى قمة فيها قمة المنصور وعلوها 2.592 مترا فوق سطح البحر . وتتخلل هذه الجبال سهول نهرية وساحلية كانت مركزا للحضارة

الاسلامية قديما. وأهم انهار اسبانيا الوادي الكبير والواد اليانع ووادي تاجه ونهر ابره ونهر الدويرة .

وتتجزأ اسبانيا اداريا الى 17 ولاية ذات استقلال ذاتي وهي : الأندلس وأراغون واستورياش وقشتالة ليون وقشتالة مانشة وقطلونية واسترامدورة وجليقية ومرسية ونبارة وبلنسية والجزر الشرقية والجزر الخالدات وأوسكادي وقنتبرية ومجريط ولا ريوخا . وأهم مدن اسبانيا اليوم العاصمة مجريط وبرشلونة وبلنسية واشبيلية وسرقسطة وقرطبة وغرناطة . حكم اسبانيا منذ الحرب الأهلية التي دامت بين سنة 1936 وسنة 1939 ، الجنرال فرانكو . وبعد موته سنة 1975 أصبح خوان كارلوس ملكا على البلاد .

واسبانيا بلاد زراعية لكن الصناعات أخذت تنتشر خاصة في المناطق الشمالية ، ويزور اسبانيا كل سنة ملايين السواح حتى أصبحت السياحة من أهم مشاغل البلاد في مناطق مختلفة خاصة في الأندلس .

2 - تاريخ الوجود الاسلامي قبل سقوط غرناطة

كانت الجزيرة الايبيرية قبل دخول الاسلام لها تعيس تحت حكم الغزاة القوط وقد استنجدوا بالمسلمين حينما وصلوا الى المغرب ، فأنجدهم رئيس الجيوش الاسلامية في المغرب موسى بن نصير بإرسال أحد قواده وهو طارق ابن زياد على رأس جيش أغلبه من المغاربة . فساند الأهالي هذا الجيش ، وتحررت الجزيرة بأكملها بين سنتي 711 و 713 م .

وقد أصبحت هذه المنطقة الجديدة مقاطعة تابعة لولاية المغرب في الدولة الاسلامية التي كانت القيروان عاصمتها لكن المسلمين أهملوا

منطقة صغيرة في الجبال الوعرة شمال البلاد اتخذت منطلقا للغزو النصراني الذي قضى على دولة المسلمين في الأندلس مع مر العصور . هكذا وبعد الفتح أخذت الهجرة الاسلامية تنتقل الى الأندلس باعداد صغيرة من المشرق العربي ، وبأعداد كبيرة من شمال المغرب الأقصى المجاور . فكثرت اعداد المسلمين وارتفعت نسبتهم بين السكان باعتناق الأهالي الايبريين الاسلام بصفة جماعية . وعندما قدم عبد الرحمن الداخل الى الأندلس سنة 756 م كانت نسبة المسلمين قد ارتفعت ، وبذلك استطاع أن يؤسس دولة أموية قوية في الغرب اتخذ عاصمة لها مدينة قرطبة الواقعة على الوادي الكبير .

وقد أصبح المسلمون أغلبية في البلاد أيام الحكم الأموي حين وصلت الأندلس الى أوج حضارتها وقوتها ، لا تضاهيها دولة في أوروبا آنذاك: أما النصارى فعادوا أقلية صغيرة أضاعت لغتها وتعربت واتخذت الأسماء العربية أسماءا لها . لكن هذه الأقلية بقيت كطابور خامس داخل الدولة الاسلامية مستعدة للانقضاض على البلاد في حالة ضعفها والتعاون مع كل غاز ومهاجم . ونظم النصارى الخارجون عن الدولة نفسهم في امارات جبلية نائية شمال غرب شبة الجزيرة الايبيرية ، ووصلت الدولة الأموية الى أوجها أيام عبد الرحمن الناصر الذي حكم البلاد 49 سنة بين 912 و 921 .

وبدأ الضعف يسري في الدولة الأموية أيام حفيد الناصر حين سيطر على الحكم حاجبه المنصور بن أبي عامر . وكان المنصور هذا من أحسن القواد ومن أبرع رجال الدولة . فأعاد للبلاد قوتها الأولى ووحدها تحت راية الإسلام من جديد ، لكن أبناء المنصور لم يكونوا في مستوى أبيهم ولا أحفاد الناصر في مستوى جدهم . زد على ذلك أن المجتمع الاسلامي

الأندلسي أصبح مجزأ عنصريا . فالمنصور بن أبي عامر اضطر الى تقوية جيشه باعداد كبيرة من البربر المغاربة والمماليك السقالبة من فرنسا وايطاليا وشمال أوروبا ، اعتنقت الاسلام عند وصولها الى الأندلس .

فأصبحت في البلاد أربعة عناصر اسلامية : العرب والبربر والايبيريون المسلمون والسقالبة المماليك . فعندما ضعفت الدولة الأموية ، أخذت هذه العناصر تتطاحن مع بعضها البعض فانهارت الدولة الأموية سنة 1031 م وتجزأت الأندلس الى مجموعة من الدويلات العنصرية تحت حكم ملوك الطوائف قضت على الوحدة الأندلسية. وأصبح عدد هذه الدويلات الاسلامية الأندلسية 23 دولة ، منها العربية كبني عباد في اشبيلية وبني هود في سرقسطة ، ومنها البربرية كبني الأغطس المكناسيين في بطليوس وبني ذي النون الهواريين في طليطلة ، ومنها السقلبية كبني مجاهد وبني غانية في شرق الأندلس .

و لما أخذت الدول النصرانية تلتهم الدويلات الاسلامية ، استنجد الأندلسيون بالمغاربة . فعبر الى الأندلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بجيش عظيم هزم به القوات المسيحية في معركة الزلاقة سنة 1086 ، ثم ضم الأندلس الى المغرب وقضى على ملوك الطوائف ، غير أن النصارى احتفظوا بالأراضي التي احتلوها ، مثل طليطلة والثغر الأوسط ، ولما ضعفت الدولة المرابطية أخذت الأندلس تتجزأ ثانية . فاستنجد المسلمون بالموحدين المغاربة سنة 1145 م فأنجدوهم بعد أن ضاعت مناطق أخرى في شرق الأندلس مثل سرقسطة .

وضعفت الدولة الموحدية وانهزم المسلمون انهزاما فادحا سنة 1212 في معركة العقاب على يد القوات النصرانية ، وأصبح تدخل الدولة

المغربية المرينية متواصلا لانقاذ ما تبقى من الأندلس ، لكن المرينيين لم يكونوا في قوة المرابطين والموحدين ، وأصبح المغاربة يخوضون معارك دفاعية مع النصارى لأول مرة في التاريخ على أرض المغرب . وسقطت مدن الاسلام الواحدة تلو الأخرى . وكانت الفاجعة الكبرى بسقوط قرطبة سنة 1236 واشبيلية سنة 1248 م . وكاد يكون ذلك آخر عهد الأندلس لولا عبقرية محمد الغالب ابن الأحمر الذي استطاع أن يجمع الكلمة حوله في جبال الأندلس الجنوبية . وبقيت الأندلس تشع بنورها في ذلك الجزء الصغير الى سنة 1492 . واستنجد الأندلسيون بالمسلمين ، ولكن هذه المرة لم يكن هناك من يجيب ، بل بكى المسلمون في الشرق والغرب على الأندلس بكاء العاجز ، وندبها الشعراء من أهلها ومن غيرهم الى يومنا هذا كالشاعر الرندي صالح بن شريف المعروف بأبي البقاء الذين نظم قصيدة مطلعها :

لكل شئ إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش انسان

الى أن قال

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له

هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الاسلام فارتزأت

حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية

وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه

ونهرها العذب فياض وملآن

قواعدكن أركان البلاد فما

عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الالف هيمان

على ديار من الاسلام خالية

قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترشي وهي عيدان

ثم يستنجد بالمسلمين ويصف حالة الأندلسيين في يد النصارى يباعون في أسواق الرق فيقول :

يامن لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم

واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما

كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة

والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب اسلام وايمان

ولنأخذ فكرة على هذا التقهقر الاسلامي في الأندلس بالأرقام من الجدول رقم (1) حيث بينا مساحة الأراضي الاسلامية في الأندلس عبر العصور بالكيلومترات المربعة .

الجدول رقم (1) : مساحة الأندلس عبر العصور

العصر	السنة الميلادية بالتقريب	المساحة بالكيلو مترات المربعة
عهد الولاة	740	700.000
عهد الامويين أيام الناصر	940	440.000
عهد المنصور بن أبي عامر	1000	580.000
عهد المرابطين	1100	250.000
عهد الدولة النصرية	1450	30.000

3 - الإسلام في اسبانيا بعد سقوط غرناطة

عندما كان الاسلام يحكم اسبانيا تحت اسمها الاسلامي (الأندلس) كان معظم السكان مسلمين وكان كلما استعمر النصارى القادمون من الشمال أراض اسلامية جديدة هاجر كثير من المسلمين عنها وأتى النصارى بمستعمرين من المقاطعات النصرانية الشمالية . وبقيت تحت الحكم النصراني مجموعات اسلامية كبيرة كانت تعرف تحت اسم «المدجنين» ، وكان هؤلاء هم أصحاب الخبرة في البلاد ، غير أنهم كانوا يعاملون معاملة العبيد .

ولما وقعت مدينة غرناطة ، آخر المدن الاسلامية تحت قبضة النصارى عام 1492 م . عقد هؤلاء معاهدة مع المسلمين يلتزمون فيها باحترام دينهم ومعتقداتهم . ولكن عندما استتب لهم الأمر نقضوا العهود وأجبروا المسلمين على التنصر . ولكن الاسلام في اسبانيا لم ينقرض بضياع غرناطة ، فلقد حافظ المسلمون على دينهم سرا جيلا بعد جيل وقاموا في كل هذه الأثناء بتعليم أطفالهم الدين الاسلامي . وكان كلما اكتشف أحد منهم حكمت عليه محاكم التفتيش بالاحراق حيا . وهؤلاء المسلمون في السر ، والنصارى في العلانية واسما ، سماهم الاسبان «الموريسكوس» . ولقد الفوا كتبا باللغة الاسبانية والحروف العربية ، وهي اللغة التي تسمى بالعجمية ، في سيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتفسير القرآن وتعاليم الاسلام ، ولازالت تلك الكتب موجودة في المكتبات الاسبانية) . وحاول هؤلاء المسلمون الهجرة بدينهم الى المغرب العربي كلما سنحت لهم الفرصة ، فكان يصل منهم سيل متواصل الى الشواطئ المغربية . وفي عام 1568 ، ثار المسلمون في جبال البشرات ، جنوب غرناطة ، تحت زعامة البطل المسلم «فرناندو دي بالور» الذي غير اسمه الى محمد ابن امية .

ودامت الثورة ثلاث سنوات استبسل فيها المسلمون . لكنهم هزموا بعد ذلك ، واستشهد الكثير منهم بما فيهم زعيمهم محمد بن أمية رحمه الله ، وهرب الكثير منهم الى المغرب .

وقد ذكر الأمير شكيب ارسلان في كتابه «الحلل السندسية» (الجزء الأول) ، قصة بعض الموريسكيين ، وكيف كانوا يكونون جمعيات سرية تعلم بعضها البعض الاسلام . كما جاء الباحث العصري محمد عبد الله عنان بقصة موريسكي آخر اسمه الشهاب الحجري الذي فر بدينه سنة 1597 م من ضواحي غرناطة ، وذهب الى مرسى شنتمرية بالبرتغال ، وتنكر كاسباني من اشبيلية ، وركب بارجة برتغالية الى مدينة الجديدة التي كانت تحت الاحتلال البرتغالي ، ومنها هرب هو وجماعة معه الى مدينة آزمور المغربية .

وبقي الاسلام حيا في الاندلس بعد فشل ثورة جبال البشرات وتابع الاسبان مطاردتهم للمسلمين وحرقهم أحياء كلما اكتشفوا انهم على دين أجدادهم ، ولم ينطفئ أمل هؤلاء الأندلسيين في استرجاع بلادهم ، فأخذوا يستنجدون بالعثمانيين ، لكن لم تأت أي نجدة . وكان آخر هجوم لقوة بحرية اسلامية على الشواطئ الاسبانية تحت قيادة خير الدين بربروسة ، والي الجزائر ، سنة 1535 .

ولما يئس الاسبان من تنصير المسلمين ، أمر طاغيتهم سنة 1609 م بطرد جميع الموريسكيين عن اسبانيا ، بعد أن صادر كل أموالهم وأخذ كل أبنائهم الذين تقل أعمارهم عن الخمس سنوات . فخرج من اسبانيا حوالي ربع مليون مسلم الى الشواطئ المغربية والعثمانية ، حينئذ غيروا أسماءهم النصرانية الى أسماء اسلامية وجهروا بأسلامهم في أرض الاسلام .

ولكـن الاسلام لم يمت فـي اسبانيـا بهذه الـهجرة ، بل بـقي دفينـا في قلـوب الكثـيرين ، جـيلا بـعد جيـل . ففي سـنة 1769 م ، ضبـطت محـاكم التفـتيش مسجـدا سريا في مـدينة قرطاجـنة انشأه المسـلمون المتـنصرون ظاهرا .

4 - تكوين القومية الأندلسية في القرنين 19 و 20

قضى طرد 1609 م على تنـظيم النخبـة الموريسكية الذي حـافظ على الاسلام في الأندلـس مدة مائة وعشرين سـنة بعد سقوط غرنـاطة . ولكن الانتماء الأنـدلسي ظل دفينا فـي النفوس ، دون تعبيـر واضح الى أن غزت جيـوش نابلـيون الفـرنسـية اسبـانيا سـنة 1808 م ، وعاثـت فيها فـسادا ، فانهارت أمامها مقاومة الدولة الاسبانية وثار أهل الأندلس في قادس ضد الغزو الفرنسي بصفتهم أندلسيين ، فاستسلمت لهم البحرية الفرنسية في قادس وهزمـوا الجيش الفرنـسي في معركـة بايلن (مـقاطعة جيـان) وكونوا حكـومة سرية فـي اشبيـلية تحت اسـم «المجلس الأعـلى المركزي» ، وأعـلن الثوار في قادس في 1812/3/19 دستورا جديدا لاسبانيا كمملكة دستورية حددوا فـيه سلطـات الكنـيسة والملـك وقرروا الديمقـراطية فـي المعاملـة بين الأفـراد والجمـاعات والـشعـوب الاسبـانيـة . واعتـرف الدسـتور لأول مـرة بالأنـدلسيين كـإحدى الشعـوب الاسبانيـة ذات الشخصـية المميـزة . وظل دستور قادس مطلب الحركات التصحيحـية في اسبانيا طوال القرن التاسع عشر .

ولكن بـعد خروج الفرنسـيين ، ألغى الملك الـذي عاد في سبتمـبر عام 1812 م دستور قادس ، وأرجع اسبانيا الى استبداد الملك والكنيسة . وثار الأندلسيون سنة 1820 م ثم سنة 1823 مطالبين بدستور قادس ، وهاجموا

محاكم التفتيش وأحرقوها . وتتابعت محاولات الرجوع الى دستور قادس. ففي سنة 1831 م ، ثار الجنرال طرخوس في الجزيرة الخضراء ، وثارت مالقة سنة 1835 م وطردت ممثلي الحكومة ، وتبعت مالقة مقاطعات الأندلس الأخرى . فهزموا الجيش الاسباني ، وكونوا في بلدة أندوخر (مقاطعة جيان) «مجلس أعلى للثورة» حرر دستور اندوخر الذي أعلن حكما ذاتيا للأندلس . ولكن فشلت ثورة عام 1835 م ورغم فشلها كانت لها أهمية كبرى في بلورة الهوية الأندلسية الجديدة ، إذ تحركت الأندلس لأول مرة ، منذ ثورات المورسكيين ، كأمة واحدة ، أمام الحكم المركزي في مجريط .

ثم رجعت اسبانيا الى فسادها الأول ، وظلت الأندلس أفقر مناطقها يرزح أهلها تحت تجاوزات النبلاء الشماليين والكنيسة . فثار فلاحوها سنة 1857 م في مقاطعة اشبيلية يطالبون بأرض أجدادهم ، فقضى الجيش عليهم ، وقتل منهم من قتل ونفى من نفى . فأيقضت تلك الثورة الفلاح الأندلسي من سباته وحررته من عقدة الخوف المسيطرة عليه . تم ثار فلاحو مالقة وغرناطة سنة 1861 م ، فقضي عليهم كما قضي على اخوانهم في اشبيلية . وفي سنة 1868 م ، انطلقت الثورة من قادس وانتشرت في كل البلاد . فهزمت جيش الحكومة وهربت الملكة الى فرنسا. وطالب الثوار بتأسيس جمهورية اسبانية اتحادية تعترف بالحكم الذاتي للأندلس وبإلغاء الدين الكاثوليكي كدين الدولة الرسمي . لكن الجيش أعاد السيطرة على البلاد وأرجع الملكة عام 1873 م . وفي سنة 1874 م ، تأسس «الحزب الجمهوري الاتحادي» الذي تبنى سنة 1883 م «دستور انتقيرة» الذي خطط لإنشاء دولة الحريات الشخصية ، تفصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وأصبح دستور انتقيرة أساس

المشاريع الاتحادية التي اقترحت فيما بعد .

تتلخص أهم سمات الحركة الأندلسية في القرن التاسع عشر الميلادي في الانتماء الى منطقة واحدة (الأندلس) وأمة واحدة (الأندلسية)، والمطالبة بحقوقها ، والوقوف في وجه تجاوزات الدولة المركزية والكنيسة الكاثوليكية والاقطاع الزراعي . لكن بقيت أجوبة هامة في نفوس الأندلسيين تنتظر الجواب : هل الاندلسيون يرتبطون فقط بمصالح متصلة بمنطقتهم ؟ أم أنهم يكونون قومية تختلف عن كل القوميات الأخرى بخاصيات مميزة ؟ وإن كان الأمركذلك ، فما هي هذه الخاصيات ؟

أجاب عن هذه الأسئلة (بلاس انفانتا بيريز) الذي يعده الأندلسيون اليوم ، بما فيهم المسلمون ، أب قوميتهم ومفكر انبعاتهم المعاصر.

ولد بلاس انفانتا في بلدة قشريش (مقاطعة مالقة) في 1885/7/5 م ، ودرس في بلده وفي أرشذونة (مقاطعة مالقة) وقبرة (مقاطعة قرطبة) ، ثم التحق بجامعة غرناطة حيث تخرج في الحقوق بامتياز (سنة 1906 م . وفي سنة 1910 م عين انفانتا عدلا في بلدة قنطنيانة (مقاطعة اشبيلية) ، وعين سنة 1913 م عضوا في مجلس المحامين .

وظهرت أفكار انفانتا لأول مرة في خطاب ألقاه سنة 1914 م في اشبيلية عن «النظرية الأندلسية» ، كان أساس كتابه التاريخي عن القومية الاندلسية . وفي نفس السنة ، فتح مكتب محاماة في اشبيلية . وفي سنة 1916 ، أسس انفانتا أول «مركز أندلسي» في اشبيلية ، تبعته مراكز أخرى في مدن الأندلس وقراها ، وأصدر مجلة «الأندلس» كلسان حال المراكز الأندلسية . ومع الأيام ، تحولت تلك المراكز الى مدارس لانشطة أندلسية تثقيفية وتخطيطية ، وأخذت تستعمل عبارة «الأمة الأندلسية» لأول مرة .

ثم تبلور الفكر القومي الأندلسي في اجتماع رندة عام 1918 م في النقطتين التاليتين :

1 - الاعتراف بالأندلس كبلد وقومية ومنطقة ذات حكم ذاتي ديمقراطي على أساس دستور انتقيرة.

2 - اختيار العلم الأخضر والأبيض ، علما للأمة الأندلسية ، وهو علم المسلمين الأندلسيين التاريخي .

ثم أسس انفانتا في اشبيلية دار نشر ومكتبة ، نشر فيها عددا من كتبه ، كما أسس مركز الدراسات الأندلسية ، وفي سنة 1920 م ، ظهر كتاب «المعتمد ملك اشبيلية» ، وهي قصة مسرحية تاريخية عرف فيها انفانتا بجذور الهوية الأندلسية الإسلامية .

وفي سنة 1923 م ، تحولت اسبانيا الى الحكم الدكتاتوري ، فأقفلت الحكومة المراكز الأندلسية واتهمت القوميين الأندلسيين بمقاومة الدولة واسكتت القوى المعادية للكنيسة . فركز انفانتا في التفكير في مصير الأندلس وجذور الهوية الأندلسية ، فانتقل الى أغمات بالمغرب حيث ضريح المعتمد بن عباد ، فقرر اشهار اسلامه هناك ، ثم حاول بعد اسلامه ربط الحركة الأندلسية بالحركات الاسلامية والعربية .

وبعد انهيار الدكتاتورية ، رجع انفانتا للحياة العامة بلغة جديدة ، يمجد فيها التاريخ الاسلامي كأساس للهوية الأندلسية ، ويطالب الأندلسيين باستعادة هويتهم ، وإزاحة هيمنة الكنيسة عنهم ، وشارك القوميون الأندلسيون سنة 1930 في مؤتمر «الشعوب التي لا دول لها» بالهند ، ثم التقى انفانتا بالحركات التحررية العربية عبر مجلة «الأمة العربية» في جنيف (سويسرا) التي كان ينشرها الأمير شكيب أرسلان

واحسان المجابري .

لكن لم يعش بلاس انفانتا ليرى انتصار أفكاره ، إذ بعد أيام من انفجار الحرب الأهلية الاسبانية ، قبض عليه اتباع كتائب الجنرال فرانكو وأعدموه رميا بالرصاص في اشبيلية يوم الاثنين 1936/8/10 ، فمات شهيدا ، رحمه الله ، وهو يصرخ مرتين : «عاشت الأندلس حرة» .

5 - التنظيمات الاسلامية الأولى المعاصرة

غاب الإسلام ، ظاهرا ، عن أرض الأندلس منذ عام 1609 م وحفظ في القلوب وأصبح التنصير شرطا للإقامة في اسبانيا . وقد خف هذا الوضع بعد الحرب العالمية الثانية وهجرة عدد من أهل منطقة الحماية الاسبانية بشمال المغرب الى اسبانيا كجنود مع جيش الجنرال فرانكو . وتكاثرت أعداد الوافدين الى اسبانيا الى أن وصل عددهم سنة 1971 م حوالي 90.000 نسمة (0,3 في المائة من السكان) ، منهم حوالي 13.000 ممن تجنسوا بالجنسية الاسبانية ، ولم يكن من بينهم سوى أفراد قلائل من أصول اسبانية أندلسية أو غير أندلسية ، وقد وصل هذا الرقم الى حوالي 350.000 مسلم سنة 1991 م (0,9 في المائة من مجموع السكان) ، ومنهم حوالي 80.000 مسلم حاصلين على الجنسية الاسبانية ، معظمهم من أصول مغربية ، وحوالي عشرة آلاف منهم ممن اعتنق الاسلام من أهل البلاد وأولادهم . ومعظم ما تبقى من المغاربة و يأتي بعدهم بأعداد أقل أهمية الجزائريون والتونسيون والمشارقة و سكان أفريقيا جنوب الصحراء وباكستان وإيران الخ .

ولأول مرة سمح قانون الجمعيات بتاريخ 1964/12/24 م للجمعيات

الدينية غير الكاثوليكية بالوجود. وفي 1967/6/28 م، أصدرت الحكومة الاسبانية قانونا جديدا يسمح بحرية الأديان، أصبح معه من الممكن تأسيس جمعيات إسلامية لأول مرة بعد سقوط غرناطة. واستفاد من هذين القانونين الطلبة المسلمون في الجامعات الاسبانية. إذ بعد زيارة أبو الحسن الندوي لاسبانيا سنة 1965 م اقترح على الطلبة تأسيس جمعية اسلامية فأسسوها في غرناطة سنة 1966 وسجلوها رسميا بوزارة العدل الاسبانية سنة 1971 تحت اسم «الجمعية الاسلامية في اسبانيا». وفي 1974/4/22 م، عدل نظامها لتمكينها من بناء المساجد والمراكز الاسلامية عبر اسبانيا، فكانت هذه أول جمعية إسلامية تأسست في الوقت المعاصر في اسبانيا. وقد فتحت بعد ذلك فروعا لها في عدة مدن اسبانية.

ابتدأت الجمعية نشاطها في شقة متواضعة في غرناطة، ثم انتقل مقرها الأساس الى مجريط في شقة كذلك. ثم بنت الجمعية مسجدا ومركزا اسلاميا متكاملا في حي تطوان بمجريط، وهو أول مسجد بني حديثا في العاصمة الاسبانية. أما مراكز المدن الأخرى فكلها شقق اشتريت و أجرت. ومعظم أعضاء هذه الجمعية طلبة من سوريا وفلسطين، تخرجوا بعد ذلك، وتزوج كثير منهم بإسبانيات واستقروا في البلاد وحصلوا على جنسيتها.

والى سنة 1978 م، ظلت هذه الجمعية داخل الجامعات كجمعية طلابية. ثم أخذ معظم الطلاب يتخرجون ويتزوجون، فأخذت الجمعية تكتسب طابعا لجمعية جالية اسلامية. وتركز دورها الاعلامي في اصدار دويتين بالاسبانية كل شهرين: العروة الوثقى والاسلام. وفي نفس هذه السنة انفصل «المركز الإسلامي بإسبانيا» عن هذه الجمعية. وتتكون الجمعية المنفصلة كذلك من قدماء الطلاب العرب المشارقة، ويقع مركزها

الأساس في مجريط في شقة بشارع الونسو كانو. وللجمعية فرع في برشلونة (قطلونية) والجزر الخالدات وغرناطة واشبيلية ومالقة بالأندلس.

وفي سنة 1990 م، كلفت رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة «المركز الاسلامي بإسبانيا» بإدارة مسجد الملك عبد العزيز بمربلة (مقاطعة مالقة) بالأندلس. وقد ابتدأت فكرة بناء هذا المسجد سنة 1979 بقرار من الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود، وانتهى من البناء عام 1981 م. ومن أهم أنشطة «المركز الاسلامي في اسبانيا» المحاضرات واللقاءات وتوزيع الكتب الاسلامية وإحياء الشعائر الدينية. وقد أسس «المركز الاسلامي باسبانيا» مدرسة ابن رشد في غرناطة التي تم افتتاحها عام 1985 م بـ 74 تلميذ.

وفي 1973/6/28، قدم عمدة مجريط للهيئات السياسية الاسلامية قطعة أرض مساحتها 1,500 متر مربع بإحدى أحياء مجريط الجديدة لإقامة مسجد جامع عليها. وانتهت المدة المحددة ولم يبن على الأرض شيء فاستعادت البلدية الأرض. ثم بعد تعهد السفراء المسلمين ببناء المسجد، قدمت البلدية أرضا أخرى بضواحي مجريط الشرقية مساحتها 30.465 متر مربع. وفعلا تبنت المملكة العربية السعودية مشروع المسجد الذي انتهى بناءه سنة 1990 م تحت إشراف سفارتها. وقد أصبح هذا المسجد أكبر مركز اسلامي في اسبانيا إذ يتسع لـ 830 مصل وبه مكاتب وقاعة محاضرات ومركز ثقافي ومكتبة. وتدير هذا المركز رابطة العالم الاسلامي.

6 - الطريقة الدرقاوية في غرناطة والجماعة الاسلامية في الأندلس

لم يبدأ الأنـدلسيون وباقي الاسـبان في العودة الى الاسـلام وتكوين الجمـاعات الاسـلاميـة المنـظمـة الا في أواخـر السـبعينـات . وكان الـدافع للاسلام اتجاهان : اتجاه صوفي واتجاه قومي اندلسي .

أما الاتجاه الصوفي فكانـت بدايته في نـفس السنـة التي توفي فـيها فرانكو سنة 1975 ، عندما توجه عدد من شباب بلدة بورتيانو (مقاطعة قلعة رباح) الـى بريطـانيـا حيث الـتقوا بـرجل اسكـتلاندي اسـمه الـشيخ عـبد القـادر، كان قد اعتـنق الاسلام في مـكناس بـالمغرب علـى يد الشيـخ ابن حبيب ، شيـخ الطريقة الدرقاوية . فأمـرهم الشيخ عبد القادر بـالتوجه الى قرطبـة سنة 1977 م فانـضـم اليهـم هناك عدد مـن الراجعين الـى الاسلام . وفي سنة 1979 م ، قررت الجماعة الانتقال الى اشبيـلية ، لكنها اصطدمت مع الشرطة لمعـارضتها احتفالات «الأسبوع المقـدس» ، فقررت الاتجاه الى مقاطعة أولبة ثم الى غرناطة سنة 1980 م حيث اعلنت ان اسمها «جمعية عودة الاسـلام الى اسبـانيـا» وفي 1980/9/22 م ، سجـلت الجـمـعيـة بوزارة العدل الاسبانية تحت اسـم «الجمعية الـدينية لنشر الاسلام في اسبـانيا» ، واستـأجرت عمارة فـي الحي القديم مـن غرناطـة ، وأقامت فيـها مسجـدها ومكاتبـها ومشاريعها الاقـتصادية . وأقامت أول نـشاط لها علني بـالمدينة عنـدما أقـامت صـلاة عيـد الفـطر بـحدائـق قصـر الحمـراء سنـة 1400 هـ (13 /1980/8 م) ، وحضر هذه الـصلاة حوالي 200 ملسم اسـباني ، رجالا ونساء وأطفالا .

وأخذت أعـداد أفراد الجماعـة تتضـاعف ، فابـتدأت ترسل وفـودا الى البلاد العـربية ، وشرعت في إقـامة المشاريع الاسلامـية كإقامة مسـجد في حي البيازين الذي لم ير النور الى اليوم ، وشراء بيت كبير في نفس الحي ،

حولته الى زاوية للطريقة الدرقاوية ومركزا اسلاميا ، وقد بيع مؤخرا . وتكاثر أعضاء الجمعية الى عدة مئات ، وأخذ الطابع الاسلامي يظهر بوضوح في غرناطة ، ونظمت الجمعية مؤتمرات اسلامية كما نشرت مجلة اسلامية اسمها «البلاد الاسلامية» .

لكن ما كادت تشتهر هذه الجماعة حتى أخذت تتقهقر لأسباب متعددة ، منها داخلية ومنها خارجية ، الداخلية كطريقة تنظيمها المبنية أساسا على المركزية المطلقة حول الشيخ عبد القادر ، والأسلوب الخشن والعنيف في تعامل الجماعة مع الغير ، ومطالبة الجماعة المنضمين اليها بالانسحاب من المجتمع الاندلسي الذي تعده كافرا ، واتهام الجماعة لكل من سواها من المسلمين بالضلال والكفر. والأسباب الخارجية ، أدت الى تبعثر آراء أعضائها حول القومية الأندلسية والتصوف بسبب تأثير مسلمي الخارج ، فكثرت الانشقاقات .

ونتج عن هذه الجمعية الأم عشرات الجمعيات الاسلامية عبر الأندلس . وغير أتباع الشيخ عبد القادر الباقون اسم الجمعية واسم مجلتها باسم جديد هو «المرابطون» ، وارتبطت الجماعة بشكل أوثق بالمراكز التابعة للشيخ عبد القادر في بريطانيا والدنمارك والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلاد . أما في اسبانيا فلهم ثلاث مراكز رئيسية : إشبيلية (الأندلس) وبالمة ميورقة (الجزر الشرقية) وبلباو (اسكادي)

أما «الجماعة الاسلامية بالأندلس» ، فقد انبثقت عن تجربة أندلسية بحتة ، وتكونت كنتيجة طبيعية للحركة القومية الاندلسية ذات الجذور الاسلامية . وتعد هذه الجماعة نفسها حركة اسلامية ذات أصالة في أرض الأندلس ، وترى في بلاس انفانتا مؤسسها الأول وأبوها الروحي . ففي

سنة 1981 م ، أشهر انطونيو مدينة ، أحد الشباب المتشبعين بالقومية الأندلسية ، اسلامه وسمى نفسه عبد الرحمن والتحق بـ «جماعة اشبيلية الاسلامية» المكونة من أفراد من المجموعة الأولى ، وبعد شهور التحق به العشرات من زملائه . وانشقت هذه المجموعة عن «جماعة اشبيلية الاسلامية» سنة 1982 م ، وكونت «الجماعة الاسلامية بالأندلس» وأقامت مركزا جديدا في اشبيلية .

ثم انطلقت «الجماعة» من اشبيلية ، وفتحت مراكزها في غرناطة وشريش ومالقة والمرية ومرسية وغيرها من المدن . وتنظمت هذه الجماعة على أساس شوري لا مركزي ، فلها مجلس أعلى يتكون من ممثلي فروعها في المدن المختلفة ، يرأسه رئيس منتخب ، وتؤخذ فيه كل القرارات بالتشاور .

وقامت الجماعة بأول نشاط لها علني سنة 1983 م بتنظيم حفل ثقافي إسلامي أندلسي على مستوى رفيع في اشبيلية تخليدا لذكرى المعتمد بن عباد . فكان حفلا رائعا حضره عدة آلاف من أهل اشبيلية وجارتها طريانة . ثم نظمت الجماعة في نفس السنة أسبوعا ثقافيا بالتعاون مع جامعة مالقة. وفي سنة 1984 م أقامت الجماعة حفلا معاكسا في غرناطة لذلك الذي تقوم به الكنيسة والدولة احتفالا بسقوط المدينة من يد المسلمين . وكان لمظاهرة المسلمين المعاكسة صدى كبيرا في الصحافة . وقد حضره عدة آلاف من أهل غرناطة . ثم عقدت الجماعة مؤتمرها العام في ضواحي غرناطة لتدشين انطلاقة جديدة . وفي سنة 1985م ، نظمت الجماعة المؤتمر الدولي الأول للمسلمين الأوروبيين في اشبيلية بهدف توحيد جهود الدعوة الى الاسلام من طرف أهل البلاد في أوروبا .

وفي سنة 1986 م اشترت الجماعة بيتا في قرطبة وحولته الى مركز اسلامي وقررت أن تكون قرطبة مركزه ، ومنذ سنة 1988 م ، أخذت الجماعة تهتم بالشتات الأندلسي فأقامت مؤتمرا عالميا له في بلدة قسطلة ، بمنطقة جبل طارق ، كان له صدى كبيرا في اسبانيا .

وأهم انجاز للجماعة تأسيسها سنة 1994 م لـ «جامعة ابن رشد الاسلامية» بمدينة قرطبة وأول مسجد حديث بالمدينة. وقد ابتدأت هذه الجامعة بإعطاء دروسها سنة 1995-1996 م . والجامعة كانت ضرورية لأن الأعداد الهائلة التي تنضم الى الجماعة وتعتنق الاسلام تحتاج الى توعية اسلامية . وقد أرسلت الجماعة العشرات من أفرادها الى جامعات البلاد الاسلامية ، ولكن النتيجة كانت أقل من المرغوب فيه . لذا تقرر فتح جامعة اسلامية في الأندلس كمؤسسة اسلامية لنشر الدعوة بين أهل الأندلس .

7 - المنظمات الاسلامية بالأندلس

تتكون منطقة الأندلس من ثمان مقاطعات ، وهي من الغرب الى الشرق ، أولبة واشبيلية وقادس وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة والمرية. ولم يفتح في هذه المنطقة مركز اسلامي الا سنة 1974 م ، على يد المسلمون في مدينة غرناطة . ومنذ ذلك الحين تكاثرت المراكز الاسلامية والمساجد إلى أن وصلت الى 38 في أوائل سنة 1996 م حسب الجدول رقم 2 . وهي في تزايد مستمر .

الجدول رقم 2 : المساجد والمراكز الاسلامية في الأندلس سنة 1996

المقاطعة	الأندلسية	المغربية	الأخرى	المجموع
أولبة	1	1	-	2
اشبيلية	3	1	1	5
قادس	1	2	-	3
قرطبة	4	-	-	4
جيان	-	-	1	1
مالقة	2	1	2	5
غرناطة	9	-	1	10
المرية	2	5	1	8
المجموع	**22**	**10**	**6**	**38**

ومن بين هذه المراكز ، 22 مركزا أسسه الراجعون الى الاسلام من بين الأندلسيين ، و 10 مركزا أسسه المغاربة المقيمون في الأندلس و 6 أسسه غيرهم من المسلمين القاطنين في الأندلس .

ففي مقاطعة أولبة يوجد مصلى في عاصمتها اسسه المغاربة في سنة 1992 م . وفي نفس السنة قررت بلدية قرية المنستير تحويل مسجد قلعتها العتيق الى العبادة الاسلامية ، واستدعت «الجماعة الاسلامية في الأندلس» لتدشينه . وقد تكونت جماعة اسلامية في تلك البلدة الجبلية حول ذلك المسجد .

أما في مقاطعة اشبيلية ، فكل مراكزها الاسلامية موجودة في العاصمة . فأول جمعية اسلامية تكونت في اشبيلية هي «جماعة اشبيلية

الاسلامية» سنة 1981 ، ولها مركز مستأجر . كما فتحت «الجماعة الاسلامية في الأندلس» مركزها سنة 1983. ثم بعد سنين أسس المرابطون مركزا لهم في اشبيلية . وكل هؤلاء من الراجعين الى الاسلام . ومن جهة أخرى فتح في أوائل التسعينات المغاربة مركزا اسلامية لهم ثم فتح المسلمون العرب الشرقيون مركزا آخر . فيكون مجموع المراكز الاسلامية في مدينة اشبيلية خمسة ، وكلها بيوت وشقق مستأجرة .

أما في مقاطعة قادس ، فقد فتحت «الجماعة الاسلامية بالأندلس» مركزا لها في مدينة شريش سنة 1985 م ، واشترت بيتا سنة 1990 م وحولته الى مسجد . كما قام المغاربة سنة 1992 م ، باستئجار محل حولوه الى مركز اسلامي في نفس المدينة ، وقام المغاربة بفتح مصلى سنة 1990 في مدينة الجزيرة الخضراء ، فيكون عدد المراكز الاسلامية في مقاطعة قادس ثلاثة .

أما في مقاطعة قرطبة ، فلقد اشترت «الجماعة الاسلامية في الأندلس» بيتا سنة 1986 م وحولته الى مسجد ومركز اسلامي . وفي سنة 1994 بنت الجمعية أول مسجد في المدينة بعد رجوع الاسلام لها ، وهو ملحق بجامعة ابن رشد الاسلامية التي أسستها الجماعة . وفي نفس المدينة مسجد آخر كان قد بني بعد الحرب العالمية الثانية ، وتحول الى مخزن لمعدات الحديقة العامة المحيطة به الى أن أعطته البلدية لجمعية اسلامية قامت برعايته . كما تكونت في بلدة المدور جمعية اسلامية أخرى حول الدكتور عبد السلام منصور اسكوديرو . وبهذا تكون في قرطبة أربع مراكز اسلامية ومساجد ، كلها للأندلسيين .

أما في مقاطعة جيان فقد أسس الباكستانيون المقيمون في بلدة

قزلون (لينارس) جمعية اسلامية تحت اسم «جمعية جيان الاسلامية» ، ولها مصلى . وهي الوحيدة في هذه المقاطعة حسب علمي .

أما مقاطعة مالقة ، فلقد فتحت الجماعة الاسلامية بها مركزا سنة 1986 م ، واشترت بيتا سنة 1988 م ، حولته الى مركز اسلامي . وفي سنة 1996 م ، هدم هذا البيت لبناء مسجد ومركز إسلامي على أرضه . وأسس عدد من المسلمين الأندلسيين «جمعية مالقة الاسلامية» في مالقة واشتروا بيتا حولوه الى مركز اسلامي ، كما فتح المغاربة مركزا اسلاميا ببلدة تور مولينوس . وبنى الاخوة السعوديون مسجدين ، أحدها مسجد الملك عبد العزيز في مربلة ، والثاني في بلدة سهيل . وبهذا يكون عدد المراكز الاسلامية في مقاطعة مالقة خمسة ، وهي في زيادة مستمرة. وبهذه المقاطعة بلدة قصر بنيرة التي تحتفل سنويا بالمولد النبوي الشريف ، وبها بلدة «بلانويبا دي لا كنسبسيون» التي اعتنق عمدتها، سليم سيلفا ، الاسلام.

ويوجد في مقاطعة غرناطة أكبر عدد من المراكز الاسلامية ، أحداها للطلبة العرب والباقية كلها للأندلسيين والاسبان العائدين الى الاسلام ، ومعظمها منبثق من «جمعية عودة الاسلام الى اسبانيا» التي تحدثنا عنها سابقا . وتوجد معظم هذه المراكز في مدينة غرناطة ، وفي حي البيازين بالذات . ويوجد مركز اسلامي واحد في بلدة أرجبة في جبال البشرات . وعدد هذه المراكز حوالي عشرة .

أما في مقاطعة المرية ، فلقد فتحت «الجماعة الاسلامية بالأندلس» بها مركزا سنة 1988 م ، وهو عبارة عن مركز مؤجر . كما فتح في أوائل التسعينات عدد من المسلمين الأندلسيين التابعين للطريقة النقشبندية

مركزا في بلدة لوشر بالبشرات . وقد نظم المغاربة أنفسهم وفتحوا خمس مراكز ، إحداها في مدينة المرية وأربعة في مدن المقاطعة الأخرى ، كما نظم السنغاليون أنفسهم وفتحوا مركزا اسلاميا في المقاطعة .

8 - المنظمات الاسلامية في قطلونية

قطلونية منطقة ذات حكم ذاتي تقع على حدود فرنسا لم يمكث الحكم الاسلامي فيها طويلا ، لكنها أصبحت اليوم ثاني منطقة من حيث التواجد الاسلامي بعد الأندلس ، يسكنها حوالي ثلث مسلمين اسبانيا ، منهم حوالي 80.000 مغربي و 20.000 إفريقي و 20.000 من جنسيات أخرى ، وحوالي 10.000 على الأقل يحملون الجنسية الاسبانية ، منهم عدة مئات من أهل البلاد . والفرق بين قطلونية والأندلس هو أن معظم التنظيم الاسلامي في قطلونية يرجع فيه الفضل لجهود المغاربة ، بينما نجد أن مجهود الأندلسيين في منطقة الأندلس كما رأينا هو الذي أفضى إلى هذا. أما سكان قطلونية ، فيبلغ عددهم حوالي 6.200.000 نسمة أي أن المسلمين يكونون بها حوالي 2 في المائة ، وقطلونية مكونة من أربع مقاطعات ، هي برشلونة وجرندة ولاردة وطرقونة ، وبها حوالي 20 مسجدا ومركزا اسلاميا تتوزع على المقاطعات الأربع حسب الجدول رقم 3 ، وهي في تزايد مستمر ، ويمكن تقدير عددها سنة 1996 بحوالي 40 مسجدا ومصلى .

الجدول رقم 3 : المراكز الاسلامية في قطلونية سنة 1996

المقاطعة	إسبانية	مغربية	أخرى	المجموع
برشلونة	1	10	4	20
جرندة	-	2	1	3
لاردة	-	1	-	1
طرقونة	-	1	-	1
المجموع	**1**	**19**	**5**	**25**

وفي سنة 1992 م ، افتتحت أول مقبرة اسلامية في المنطقة ببلدة ساردنيولة بمقاطقة برشلونة . كما سمحت الحكومة المحلية القطلونية للمسلمين بالذبح على الطريقة الاسلامية سنة 1991 .

لا شك أن الفضل في الانبعاث الاسلامي في منطقة قطلونية يعود لجماعة التبليغ . ولم يظهر هذا الانبعاث بزخمه الحالي الا بعد سنة 1990 م. وأول مصلى فتح في المنطقة كان من مبادرة الراهبة الكاثوليكية تيريزا لوسادا حيث فتحت سنة 1976 م مركزا للصلاة سمته «دار الثقافة» في مدينة برشلونة حرصا منها على «ادماج المهاجرين المغاربة » . وبقي هذا المصلى مفتوحا الى سنة 1980 حين فتح الطلبة المسلمون «المركز الاسلامي» في شارع مرديانة ببرشلونة بمساندة من رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة . فأصبح هذا المركز هو النواة الأولى لانتشار الاسلام في قطلونية .

وفي نفس السنة ، أسست الودادية المغربية مصلى للمغاربة في شارع بالمس ببرشلونة ، تلى ذلك تحول المركز الثقافي الباكستاني في شارع هنبتل ببرشلونة الى مسجد طارق بن زياد . فأصبح هذا المسجد

مركز نشاط جماعة التبليغ ، وكاثر فيه المغاربة اخوانهم الباكستانين ، وأصبح النواة لتأسيس مساجد أخرى في منطقة قطلونية . ولم يفتح مصلى في مدينة لاردة سنة 1989 م . وفي نفس السنة ، فتح مصلى ببلدة روزس بمقاطعة جرندة (مسجد أبو بكر) . أما مقاطعة طرقونة ، فقد فتح بها أول مصلى سنة 1991 م في بلدة سان بيزانتي دي كالديرس .

والجدير بالذكر أن لقطونية شخصية خاصة بها داخل الدولة الاسبانية ، فلها لغتها الخاصة وهي القطلانية . والعلاقة بين القطلانيين والمغاربة الذين يكونون معظم أعضاء المجتمع المسلم في المنطقة علاقة جيدة . لكن هناك أقلية صغيرة من العنصريين الذين يتبجحون بمحاربة المسلمين وأحيانا لا يتورعون عن الاعتداء عليهم . فمثلا كان امام مسجد روزاس بمنطقة جرندة ضحية عدوان عنصريين قطلانيين في شهر فبراير سنة 1990 م .وفي 1991/8/8 م ، خرج بعض سكان بلدة انغلس ، بمقاطعة برشلونة ، في مظاهرة ضد مشروع فتح مصلى ببلدتهم .

أما الحكومة القطلانية ، فابتدأت بموقف يكاد يكون معادي لما صرح جوردي بوجول ، رئيس الحكومة المحلية ، في 1989/11/2 م يتهم فيه الاسلام بأنه لا يمكن أن يستوطن في قطلونية . ولقد أدى هذا التصريح الى رد فعل قوي من طرف المسلمين . فرد عليه امام المركز الاسلامي ، أبو سعيد (وهو من مصر) باسمهم . ولقد تحسن موقف الحكومة القطلانية نحو الاسلام بعد هذه «الحادثة» .

ومنذ سنة 1990 م أخذ المسلمون يصلون صلاة عيد الفطر جماعة في ساحة عامة من ساحات برشلونة مما جعل الاسلام يظهر للزائر بوضوح ولكن منطقة قطلونية لا زالت تنتظر بناء أول مسجد بها . إذ ليس

فيها ولا مسجد واحد مبني بهندسة اسلامية في الوقت الذي نجد في الأندلس أربعة مساجد جديدة ، وعلى الأقل مسجدين قديمين استرجعا لصلاة المسلمين ولكن الاسلام في قطلونية لا زال في بداية الطريق .

9 - المنظمات الاسلامية في باقي اسبانيا

أما التواجد الاسلامي في المناطق الاسبانية الأخرى فهو يزيد أو ينقص كما هو موضح في الجدول رقم 4 الذي يبين عدد المساجد وأماكن الصلاة بها سنة 1996 .

الجدول رقم 4 عدد المساجد وأماكن الصلاة في المناطق الاسبانية.

المنطقة	الاسبانية	الأخرى	المجموع
الأندلس	22	16	38
قطلونية	1	21	22
مجريط	2	8	10
بلنسية	-	6	6
الجزر الخالدات	-	4	4
إوسكادي	1	3	4
مرسية	1	2	3
الجزر الشرقية	-	3	3
اشتورياس	1	1	2
قشتالة مانشا	-	1	1
قشتالة ليون	-	1	1
أراغون	-	1	1
استرامادورا	-	1	1
جليقبة	-	1	1
نبارة	-	1	1
لاريوخا	-	1	1
	-	1	1
المجموع	**27**	**72**	**100**

نرى أن عدد المساجد الآن في اسبانيا يناهز المائة ، منها الثلث أسسه الراجعون الى الإسلام . وتعد اليوم منطقة مجريط هي المنطقة الثالثة بعد الأندلس وقطلونية من حيث التواجد الاسلامي . كانت أول جمعية أسست بمجريط هي «الجمعية الاسلامية في اسبانيا» وقد انتقلت من شقة الى مسجد ومركز إسلامي متكامل في حي تطوان بالعاصمة الاسبانية هو مسجد «أبو بكر الصديق» ، وهو أول مسجد بني في مجريط . وفي سنة 1978 م انفصل عنها عدد من الأعضاء وأسسوا «المركز الاسلامي في اسبانيا» كما سبق الذكر . كما أن السفارات الاسلامية في مجريط وعلى رأسها سفارة المملكة العربية السعودية بنت مسجدا كبيرا في اسبانيا» كما سبق أن ذكر كذلك ، وبمجريط كذلك جمعية اسلامية اسبانية أخرى اسمها «المعهد الغربي الاسلامي للثقافة» ، وحوالي خمسة محلات للصلاة أسسها المغاربة.

ومنطقة بلنسية هي المنطقة الرابعة من حيث التواجد الاسلامي . وبها حوالي ستة مراكز اسلامية ، أهمها «المركز الاسلامي ببلنسية» ، وهو متكامل وبه مدرسة وقاعة للمحاضرات ومسجد للصلاة وبيت للإمام ، بني سنة 1992 على أرض تبرعت بها بلدية بلنسية . كما يوجد بمنطقة بلنسية مسجد آخر وعدة أماكن للصلاة في مدينة بلنسية .

وهناك تواجد اسلامي واضح ومتنامي في المقاطعات التالية : اوسكادي والجزر الخالدات ومرسية واشتورياس ، إذ يوجد في كل واحدة من هذه المناطق أكثر من مصلى واحد ، وبها كلها (عدى الجزر) مركز مؤسس من طرف الاسبان الراجعين الى الاسلام . أما المناطق الاسبانية الثمانية الأخرى فيوجد في كل واحدة منها مصلى واحداً على الأقل .

ويتوقع أن تتزايد عدد أماكن الصلاة في إسبانيا الى مائتين قبل دخول القرن الميلادي الواحد والعشرين . أما المساجد المبنية على هيأة مسجد فعددها الآن في كل اسبانيا ثمانية : 4 بالأندلس و 2 بمجريط و 2 ببلنسية ، ويتوقع أن تتضاعف عددها في السنوات الخمس القادمة .

10 - الخاتمة :

بالنسبة لمعظم دول غرب أوروبا ، خاصة فرنسا ، فالإسلام جديد في اسبانيا ، إذ لم يكن له وجود يذكر قبل 1980 م ، بينما تأسست أول الجمعيات الإسلامية في السبعينات ، وظهرت جمعيات أخرى كثيرة في الثمانينات بظهور اعداد هامة وفاعلة من الراجعين الى الاسلام في منطقة الأندلس . وفي 1989/7/14 م اعترفت بالبروتستانتية واليهودية . وبهذا أصبح للمسلمين نظريا في إسبانيا حقوق على الدولة الاسبانية ومساندة مالية من طرفها تكمن في عدم دفع الضرائب ، ودفع الدولة رواتب معلمي الدين الإسلامي للمسلمين في مدارس الدولة ، والحق في تأسيس المدارس الاسلامية ، والزواج على الطريقة الاسلامية ، الخ ...

ولكي تحصل الجماعة الاسلامية على هذه الحقوق كان عليها أن تنظم نفسها في اتحاد عام يجتمع في «اللجنة الإسلامية الاسبانية» للتفاوض مع الدولة الاسبانية على هذه الحقوق . وهكذا اجتمعت حوالي 30 جمعية اسلامية في «الاتحاد الاسباني للمنظمات الدينية الاسلامية» (FEERI). لكن هذا الاتحاد أخذ ينحاز ضد بعض الجمعيات الاسلامية ، خاصة الاندلسية منها ، فتجزأ الى اتحادين ، ولكن الوضع لا زال غير مرضي لمعظم مسلمي اسبانيا ، إذ أن «اللجنة الاسلامية الاسبانية» لم تقم بشيء يذكر للحصول على حقوق المسلمين ، خاصة فيما يخص تعليم اللغة

العربية والاسلام في المدارس العامة .

لكن فـي الحقيقـة لم يظهر الاسـلام في اسبانيـا بشكل واضـح الا في هذا العقد الأخير من الـقرن العشرين . إذ أصبحت مراكز الصـلاة تتكاثر حتى وصلـت للـمائـة كما فـتحـت أول جامـعة أبـوابها وهـي «جامـعة ابـن رشد الاسلامية» في مدينة قرطبة العتيقة .

ويتوقع أن تتـزايد أعداد المسلمين في الـعقود القادمة باعتـناق الاسلام أهل البلد وبهجرة المـسلمين ، وبهذا سنرى حقبة جديـدة من الوجود الاسلامي في أرض الأندلس العتيقة بعد طول الحصار .

المراجع

1 - علي المنتصر الكتاني «الصحوة الاسلامية في الأندلس اليوم ، جذورها ومسارها» كتاب الأمة ، قطر، عام 1412.

2 - علي المنتصر الكتاني «انبعاث الاسلام في الأندلس «مجمع البحوث الاسلامية ، الجامعة الاسلامية العالمية ، اسلام أباد ، باكستان ، 1992 م.

3 - محمد عبد الله عنان «دولة الاسلام في الأندلس» القاهرة (مصر) عام 1969 م.

الأعجمية الموريسكية

الدكتور الحسين بوزينب
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب - الرباط

إن ما اصطلح على تسميته بالأدب الأعجمي الموريسكي هو عبارة عن مجموعة مخطوطات عثر عليها صدفة في أكثر من مناسبة بعد إخفائها قديما في تجاويف جدران المنازل وبين السقوف وفي المغارات وكذا في مخابئ أخرى . إننا هنا أمام أدب هجين تمتزج فيه العربية والإسبانية في شتى المستويات بشكل لا أضن أنه عرف قبل هذا بين اللغة العربية ولغات أخرى ، وقد تمخض هذا المزيج عن نتاج معبر أيما تعبير وممثل أيما تمثيل لكيان أصحابه ولهويتهم الثقافية . فمع هذا الأدب نجد أنفسنا أمام كتابات إسبانية اللغة وعربية الخط تتخللها مصطلحات عربية إسلامية وتراكيب إسبانية معربة ، والكل محفوف بغطاء صوتي موريسكي يصعب نعته بالعربي أو بالإسباني . فهذه اللغة الموريسكية تعكس بوفاء كبير شخصية مجموعة إنسانية متميزة داخل الجزيرة الإيبيرية أو جزيرة الأندلس كما كان يسميها الموريسكيون . فهذه المجموعة كانت تشعر بخصوصية تجاه مواطنيها المسيحيين في إسبانيا وكذا تجاه أولئك الذين مثلوا بشكل من الأشكال عنصرا عضويا في وجودهم . وأقصد بالخصوص العنصر البربري العربي الإفريقي الشمالي . فمع الأوائل كانوا يتقاسمون

الأرض (1) وكانت العقيدة الإسلامية وجزء من الثقافة يجمعهم بالآخرين . وكان هؤلاء المورسكيين يعتبرون أنفسهم من نبت الأندلس وبالتالي أصحابها الشرعيين . غير أن زمام الأمور قد فلتت من أيديهم ولم تعد لهم قوة لاسترجاع ما ضاع . ولكن مع ذلك فإن أملهم ما زال معقود لاسترداد ما فقد . وفي هذا الصدد سنجد أن الدين الاسلامي بكل مكوناته من عقيدة وتقاليد وأعراف ... كان يمثل عنصرا حاسما لإذكاء الأمل في مستقبل كان يظهر لهم في صورة أفضل مما كان عليه حاضرهم وكان الإسلام ، زيادة على ذلك ، يجسد عنصر الوحدة بين شتى الجماعات المورسكية .

إن الثقافة المورسكية التي كانت ملزمة بالنظر إلى داخل بيتها لإرضاء حاجيات أبنائها ، كانت مجبرة في نفس الوقت بالنظر إلى الخارج لتواجه خطرا مزدوجا يتمثل من جهة في تهجمات الثقافة التي كانت تتربص بها الفرص للقضاء عليها وأقصد هنا الثقافة الإسبانية المسيحية ، ومن جهة أخرى في الموقف غير المكترث لكثير من المورسكيين بسبب انهزام هممهم وبرودة عاطفتهم الدينية ، الشيء الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى مغادرة صفوف الإسلام .

فبالنظر إذا إلى هذا الدور المتشعب للثقافة الموريسكية ، حاولنا إيجازها إجماليا في جوانب ثلاثة هي : التثقيف أو التعليم والدفاع

1 - انظر ما قاله Pedro de Valecia الذي يورده L. Cardaillac في بحثه :
"Vision simplificatrice desgroupes marginaux par le groupe dominant dans l'Espagne des XVIe et XVIIe siècles".. **Les problèmes de l'exclusion en Espagne (XVIe et XVIIe siècles).** Paris Publication de la Sorbonne, pg. 22
«ففيما يرجع الى البنية الطبيعية أي كل ما يخص الذكاء والطباع والهمة يجب اعتبار جميع هؤلاء المورسكيين إسبانيين كغيرهم من سكان إسبانيا»

والترفيه.

1) إن الجانب التنقيفي يتميز بسمات الحقبة التي قدر لهذه النقافة أن تعيشها وسط وضع مطبوع بالممنوعات وبالترصد للقضاء عليها. إن الخطر كان موجها بالدرجة الأولى إلى العنصر الأكثر حيوية في المجتمع الموركسي أي العقيدة الإسلامية. لهذا سنجد أن كتب القرآن والحديث وباقي الكتب المخصصة لتعليم الإسلام التي يحتفظ بها اليوم في عدة خزانات إسبانية وغير إسبانية كانت تركز اهتمامها في الجوانب الأساسية التي كانت تتطلب الصيانة والإنقاذ. إنه لذا دلالة كبرى أن نجد كتابا قرآنيا كذلك الموجود في الخزانة الوطنية بمدريد تحت الرقم 5078 يحتوي فقط على بعض الآيات من سور (2) مختلفة تظهر لأول وهلة وكأنها جمعت بطريقة عشوائية خصوصا وأن الكتاب خال من كل تقديم أو تعليق. ولكن تحليل مضمون هذه الآيات سيبين لنا أن جمعها قد خضع لاختيار دقيق تبعته بعد ذلك ترجمتها إلى الأعجمية بهدف تعليمي محض لغرس العقيدة الإسلامية، آخذين بعين الاعتبار الوضعية التي كان يعيشها الموركسيون بسبب الملاحقة والإضطهاد من قبل محاكم التفتيش المسيحية. ومن أجل توضيح ما ذكرناه سابقا سنقدم فيما يلي بعض النماذج التي لا تحتاج الى تعليق لتوضيح ما قلناه آنفا:

إن هذا المخطوط الذي فقد بعض أوراقه الأولى يبتدئ بالآية 163من سورة البقرة:

«وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»

وتتبعها الآيات 255، 256، 257 من نفس السورة:

---

2 - وهذه السور هي التي تحمل الأرقام الآتية: 2، 3، 9، 26، 28، 30، 33، 36، 59، 67، 78، 79، 81، 82، 83، 84، 89.

«الـله لا إلـه إلا هـو الحي الـقـيوم لا تـاخـذه سـنة ولا نـوم لـه ما فـي السـموات وما فـي الأرض من ذا الـذي يشفـع عنده إلا بـإذنه يـعلم مـا بين أيديهم وما خـلفهم ولا يحيطون بـشيء من علمه إلا بما شاء وسـع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم» .

«لا إكراه فـي الدين قـد تبين الـرشد من الـغي فمـن يكفـر بالطـغوت ويؤمـن باللـه فقد اسـتمسـك بالعـروة الوثقـى لا انفصـام لها والـله سمـيع عليم».

«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»

ويقفز بعد ذلك الى الآيات 284، 285، 286 .

«لله ما في السموات ومـا في الأرض وإن تـبدوا ما فـي أنفسـكم أو تخفوه يـحاسبكم به اللـه فيغفر لمن يشـاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير»

«آمن الرسول بمـا أنزل إليه من ربه والمؤمـنون كل آمن بالله ومـلائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالـوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»

«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسـينا أوأخطأنا ربنا ولا تحمـل علينا إصرا كما حمـلته على الذيـن من قـبلنـا ربنا ولا تحـملـنا ما لا طـاقة لـنا به واعـف عنا واغـفر لـنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» .

فممـا يمكن ملاحـظته من خـلال قراءة هذه الآيات أن مـواضيعهـا هي

تلك التي تكون الشغل الشاغل للموريسكيين أي :

- وحدانية الإله وبالتالي الرفض التام للإشراك الذي يكمن بالنسبة للموريسكيين في عقيدة الثالوث المسيحي المقدس (3) .

- تسامح الإسلام الذي يقابله التشدد الذي عاملتهم به السلطات المسيحية وبالخصوص محاكم التفتيش الكاثوليكية .

- التشبث بالإسلام وهو النور الذي يضيئ به الإله المومنين الذين لا يزيغون عن الطريق السوي .

- قيمة الإيمان في الإسلام .

- الانتصار على الكفار (أي المسيحيين)

وبقية المخطوط تسير في نفس الاتجاه مع المشاغل الرئيسية للموريسكيين .

وفيما يرجع الى كتب الحديث (4) فإنها تعكس نفس المشاغل التي وجدناها في كتب القرآن . وقد أبرز الأستاذ عبد الجليل التميمي(5) تشبث الموريسكيين بالهوية الإسلامية باستنادهم الى الحديث النبوي، وقد اعتمد

---

3 - انظر L. Cadaillac Morisques et Chrétiens, Paris, Ed. Klincksieck, 1977 pg 225
إن الإختلاف حول عقيدة الثالوث المقدس لمن المواضيع التقليدية في الجدال الإسلامي . ويكفي أن نذكر فيما يرجع الى الجدال الإسباني العربي أن ابن حزم القرطبي سيخصص في القرن التاسع إحدى مؤلفاته ضد المسيحيين لانتقاد الثالوث المقدس . وفي القرن الثالث عشر سيجد القرطبي يخصص فصلين من كتابه في الجدال لتفنيد هذا المعتقد . واسبانيا الموريسكية (...) لم تكن لتخرج عن هذا التقليد».

4 - إننا سنعتبر النص حديثا إذا كانت له صفة الحديث بسند الى النبي محمد (ص) أو كان متواترا كحديث ، ولا ندخل في اعتبارات الصحة والوضع والضعف وما إلى ذلك من المعايير الخاصة بعلم الحديث .

5 - A TEMIMI "Attachement des morisques a leur religion et a leur identité a travers les hadiths dans deux manuscrits morisques" in **Religion , identité et sources documentaires sur les morisques andalous,** 2ème tome, Tunis, Publication de l'Institut Supérieur de Documentation, 1984, pp 155-161

على مخطوطين من خزانة مِيغَايْل أَسِينْ بمدريد (6) لاظهار هذا التشبث. «فقراءة هذين المخطوطين، يقول التميمي، الذين يكملان بعضهما البعض (أحدهما مترجم إلى العجمية) لم يكن يعطي للموريسكيين المضطهدين حماية وسلاما فحسب، بل كان بالنسبة إليهم كمشغل أمل يمكن أن يعيد إليهم الثقة من جديد ويوطد بينهم روابط الجماعة ويزودهم بالقوة من أجل التضحية والقتال» (7). وفي ما يلي بعض هذه الأحاديث (8) :

- «أفضل جهد المومن القتال بإسم الله»
- «من أخذ منه متاعه فهو شهيد»
- «الاسلام يتقدم ولا يتأخر»
- «من صلى في دين غير الإسلام فهو كاذب»
- «من تشبه بغيرنا فليس منا»
- «العمائم تيجان العرب»
- «من أحب العرب أحببته ومن أبغضهم أبغضته»
- «المسلم لا يرث الكافر والكافر لايرث المسلم. لا تنصلوا من آبائكم فلا يتنصل الا الكافرون»
- «من غادر الجماعة مات موت الكفار»
- «الثقة بالمستقبل تزيل القلق والحزن»

---

6 - يتعلق الأمر بالمخطوطين 29 و 54 من الفهرس المنشور سنة 1915. فالمخطوط رقم 29 ألفه موريسكي من نهاية القرن السادس عشر وهو نسخة من مجموع أحاديث نبوية جمعها العالم المصري إبن عبد الله محمد بن سالم بن أبي جعفر القضائي المتوفى سنة 455 للهجرة / 1061 للميلاد مع ترجمتها الى الأعجمية الموريسكية. وأما صاحب المخطوط رقم 54 فأندلسي وهو أبو العباس محمد الطجيبي الأندلسي المعروف بالإقليشي. وقد درس في بلنسية وعاش في دانية ثم في أقليش وبعدها في مصر حيث توفي سنة 550 هـ / 1155 م.

7 - أنظر A. TEMIMI, "Attachement ..." pg. 157

8 - نظرا الى أن المرجع الذي أخذنا منه هذه الأحاديث كتب بالفرنسية ولم نتوفر على إمكانية الرجوع الى المخطوط الأصلي، فقد حاولنا أن نقدم هنا معنى الأحاديث وليس نصها العربي.

- «بدأ الدين غريبا وسينتهي غريبا . طوبى للغرباء»
- «إن الله إذا أراد خيرا لأمة ، ابتلاها»
- ... الخ .

إن اختيار هذه النماذج لم يكن مجانيا كما لاحظنا من خلال قراءتها. والأمثلة من هذا القبيل موجودة بكثرة .

ولدينا مخطوط آخر وهو الحامل للرقم 5267 في الخزانة الوطنية بمدريد ، يتضمن كثيرا من النصوص التي وجدناها في **تنبيه الغافلين** للسمرقندي وهو كتاب تداوله الموريسكيون بكثرة وترجموه الى عجميتهم . وقد وجدنا كذلك أحاديث أخرى وردت في البخاري ومسلم ومالك .. الخ . وأحاديث لم نستطع العثور على أصولها العربية إلى حد الآن . ولكن رغم تعدد مصادر الكتاب فإن الغلبة تبقى للسمرقندي . وقد لاحظنا فيما يرجع الى النصوص الواردة في السمرقندي أنها لا تتبع نفس تسلسل مخطوطنا بل توجد مبعثرة عبره . فمثلا مخطوطنا يبتدئ بحديث يوجد في الصفحة 154 من نسخة **تنبيه الغافلين** (9) التي استعملناها والمتداولة اليوم في السوق . وبعد ذلك يأتي حديث آخر سنجده في الصفحة 83 ثم آخر في الصفحة 157 ويتبعه آخر في الصفحة 159 و بعدئذ سنجد حديثا آخر في الصفحة 147 ثم آخر في الصفحة 8 ... الخ و تتخلل هذه الأحاديث في مخطوطنا أحاديث أخرى عثرنا عليها في البخاري ومسلم ... الخ.

إن هذه الطريقة التي سلكت في نسج هذا المخطوط والتي اعتمدت عدة مصادر لتذكرنا بكيفية تحضير الدروس لدى الأساتذة . لهذا أتساءل :

---

9 - نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي . تنبيه الغافلين . الدار البيضاء . دار الكتاب (بدون تاريخ)

ألم يكن لهذه المخطوطات الأعجمية المورسكية دور تعليمي كما لدروسنا في الوقت الحاضر ؟ إن هذه المنهجية الكامنة في صهر أقسام متعددة من مصادر مختلفة تطبع الأدب الأعجمي الموريسكي باعتباره أدبا تقليديا، وتجد مبررها هنا في الحاجة الماسة لتقديم تعليم خاص تمليه ظروف تاريخية خاصة كذلك.

2) والمظهر الثاني للأدب الأعجمي المورسكي في التقسيم المقترح سابقا يكمن في الدفاع عن الإسلام أمام المسيحية. ويتمثل بالخصوص في تلك الكتابات التي تقدم لنا الجدال الديني بين المسلمين والمسيحيين حول حقيقة العقيدتين. وقد ألف الأستاذ لوي كاردياك من جامعة مونبوليي بفرنسا كتابا (10) شيقا حول هذا الموضوع جمع فيه وعلق على العديد من النصوص التي كتبت في الجدال الديني الذي دشن قبل المورسكيين بكثير (11). غير أن هؤلاء وجدوا فيه جهازا للدفاع عن هويتهم الثقافية.

لقد كانت نصوص الجدال الديني موجهة في نفس الوقت للمسلمين وللمسيحيين. فرسالتها بالنسبة للمسلمين كانت رسالة تلقينية وتثقيفية. بينما كانت تتوخى بالنسبة للمسيحيين البرهان على أفضلية الدين الإسلامي وتفوقه على المسيحية المتبعة من قبلهم.

إن المخطوطات التي تطرقت الى موضوع الجدال الديني مع المسيحيين قليلة جدا بالمقارنة مع تلك التي تجمع الحكايات والسير والقرآن والنصوص الفقهية وما الى ذلك من المواضيع التي تطرق لها المورسكيون. ولكن في الحقيقة يمكن اعتبار الأدب الأعجمي الموريسكي في حد ذاته

---

10 - Louis Cardaillac **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640).** Paris, librairie Klincksieck, 1977, 543 pp.

11 - أنظر الهامش 3). وكذلك L.P. Harvey في (Textes de litterature religieuse des moriscos tunisiens) ضمن المؤلف: **Etudes sur les Moriscos andalous en Tunisie,** Madrid, IHAC, 1973 pg 200

مجادلة ضد المسيحيين . إنها مجادلة تظهر في مضمون الكتابات وتمتد لتشمل كذلك لغة هذه الكتابات . ففي مناسبة سالفة (12) تكلمنا عن كيفية تحكم الدين الإسلامي في لغة الموريسكيين وخضوع مختلف المصطلحات الإسلامية الى قصدية تحاشي المغالطة مع المقابلات المسيحية . لهذا سنجد أن لفظة الله لا تقابل أبدا باللفظة الإسبانية Dios ولا الصلاة بـ oración ولا الإمام بـ sacerdote ... الخ . لأن الإسبانية في ذهنية الموريسكيين لغة المسيحية كما أن العربية لغة الإسلام وهم كانوا يبحثون عن التميز عن المسيحيين في كل شئ ، في العادات وفي اللغة وحتى في اللباس ، فيقول أحدهم : «لا تستعمل عبارات وتقاليد المسيحيين ولا لباسهم ولا تتشبه بهم ولا بالمذنبين الأشرار والجهنميين . عليك بالحفاظ على أقوال وعقائد وأعراف و تقاليد ولباس ذلك النبي السعيد محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته فمن أجل العناية الإلهية العليا أعطى هذه النعمة العليا » (13) .

إذا أردنا أن نصف الخطاب الموريسكي باستعمال المصطلحات السياسية الحدينة فسيمكننا أن نقول أن هذا الخطاب خطاب «ملتزم» و «مناضل» حيث نجد أن لكل كلمة دلالة الإلتزام ولا تستعمل جملة إلا بقصدية معينة يمكن أن ننعتها اليوم بالسياسة .

وبالإضافة إلى اللغة ، فإن شتى حركات وتصرفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم تمثل بالنسبة للمسلمين رموزا يقتادون بها ويجعلونها قاعدة في سلوكهم اليومي .

---

12 - أنظر مقالنا «الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية الموريسكية » المقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للجنة العالمية للدراسات الموريسكية . تونس 1984 .

13 - أنظر المخطوط الأعجمي للخزانة الوطنية بمدريد ، رقم 5301 الصفحات v 3 و 4r .

هكذا سنجد إذا أن مواضيع الجدال متعددة بين المورسكيين والمسيحيين. ويأتي في الدرجة الأولى موضوع الثالوث المقدس وهي عقيدة لم تكن أبدا لتحظى بالقبول والفهم من لدن المورسكيين عندما كان يعرض عليهم الدين المسيحي (14)، وهذا ليس بغريب أن يحدث مع أتباع ديانة لا تقبل بأي وجه من الوجوه إشراكا مع الإله الواحد الأحد مهما كانت طبيعة هذا الإشراك، وتعد المشركين بأقسى العقاب. زيادة على هذه فالمورسكي لم يكن منطقه يستطيع أن يستوعب «وجود ثلاثة آلهة وهذه الآلهة الثلاثة تكون شيئا واحدا وهذا الشيء الواحد ثلاثة أشياء، فهذا يتناقض مع العقل والإدراك» كما يقول موريسكي إلتجأ إلى تونس بعد تهجيره من إسبانيا (15).

وهناك نقطة جدال ثانية بين المورسكيين والمسيحيين تكمن في هوية المسيح، وهو نبي يقدسه الطرفان. وبطبيعة الحال ففي هذا الموضوع سنجد المورسكيين يتبنون ويدافعون على الوجهة الإسلامية (16) التي تعتبر المسيح ابن مريم (عيسى ابن مريم) ونبي الله أي رسول. بينما سنجد المسيحيين يعتبرونه ابن الله. والمورسكيون كانوا يرفضون فكرة تجسيد الإله في الإنسان بحيث كانوا يعتبرن هذا مناقضا تماما لطبيعة الإله. ويرفضون كذلك مسألة صلب المسيح. فبالنسبة للمورسكيين وتمشيا مع القرآن كانوا يقولون بصلب شخص آخر شبه بالمسيح.

14 - أنظر L. Cardaillac المرجع السابق ص 227.

15 - أنظر L. Cardaillac المرجع السابق ص 227.

16 - أنظر L. Cardaillac المرجع السابق ص 228: «لقد كان الموريسكيون يعرفون النصوص القرآنية معرفة جيدة غير أنهم كانوا يفسرونها أحيانا تفسيرا مغايرا تماما (لما هو معتاد).

ومن ناحية أخرى سنجد الكنيسة موضع جدال عندما «وجد فيها الموريسكيون مؤسسة شرعوية متمسكة بالشكليات ومن وضع الإنسان ، تحاول أن ترتكز على الإنجيل ، بينما نجد أن تنظيمها ومبادئها الأساسية قد خلقتها بنفسها . والكنيسة قد حورت الإنجيل حسب مبتغاها كما غيرت ما كان متعارف عليه» (17) .

وسنجد أحيانا أخرى أن الجدال بين المسلمين والمسيحيين لا يتخذ عقيدة ما كمنطلق وإنما يتموقع في مجال شرح الألغاز وكشف الأشياء الباطنية بغرض إبراز تفوق دين على آخر كما هو الحال في «حديث شرجيل ابن شرجون» (18) حيث نجد أن هذا الشخص وهو «مسيحي أتى من بلاد الشام لم يعرف إسمه أبدا وكان من أقوى المدافعين على الدنيا ، صاحبه خمسون من رؤساء الأديرة أو الرهبان» (19) . توجه الى أبي بكر«بأسئلة معاكسة (قال) وجدتها في كتابات لوالدي ولجدي . فإن أنت أظهرتها أمامي كما هي عندنا سنعرف أن محمدا نبي ورسول وأن دين الإسلام دين الحق وغيره لا شئ» (20) .

إن الأجوبة على تساؤلات هذا المسيحي سيقدمها علي بن أبي طالب وليس أبو بكر أي سيقدمها الشخص المقلد بالقدرات الخارقة للعادة بين الشيعة والذي كان بالتالي يستطيع اكتشاف الأسرار والخفايا . فبهذا نجد أن اسم أبي بكر وهو رجل يرمز إلى إجماع المسلمين السياسي قد ترك

---

17 - أنظر L. Cardaillac المرجع السابق ص 309

18 - Ottmar Hegyı, **Cinco leyendas y otros relatos moriscos (Ms 4953 de la Bibl. Nac. Madrid)**, Madrıd, Editorıal Gredos, 1981. Pg 73

19 - المرجع السابق ص 73-74 .

20 - المرجع السابق ص 74-75

جانبا . هكذا إذا سنجد عليا يجيب على كل الأسئلة المطروحة كـ : «ما هو قصدي لما خرجت من أرض الشام ؟ ولماذا أتيت هنا ؟ وأشرح لي معنى «والضاريات ضروا» ؟ وماذا يقول الديك في قوقه والكلب في عوائه والحمار في نهيقه ... ؟» زيادة على كشف إسم شرجيل ابن شرجون الذي لم يكن أحد يعرفه دون صاحبه .

3) فيما يرجع الى الجانب االترفيهي في الأدب الأعجمي فسنراه يتجلى بالخصوص في مجموعة من الروايات والقصص والحكايات المترجمة من العربية أو أحيانا من الإسبانية (21) . إن هذه الكتابات التي كانت تمثل متعة للموريسكيين جسدت كذلك ملجأ ثقافيا كان ينقلهم الى المحيط الثقافي العربي الإسلامي الذي كانوا يشعرون بارتباط قوي نحوه وكانت وسيلة تمرر عبرها التعاليم الدينية والأخلاقية الإسلامية .

وكنموذج من الرواية الترفيهية الصرف يمكن أن نعتبر قصة حب باريس وبيانا (22) التي تحكي غرام إبنة خليفة فرنسا بيانا والفارس النبيل باريس . إننا هنا أمام قصة فروسية مليئة بالمبارزات والمغامرات تتوسطها عملية عاطفية نموذجية . إنها لحكاية كلاسيكية لحب ثابت ومطارد تتخللها ذكريات الحروب الصليبية المعتادة والسفر اللازم الى الشرق .

لقد اعتبرنا هذه الرواية رواية ترفيهية صرف لأن العناصر الإسلامية التي تعالج عادة في الأدب الأعجمي سنجدها تختفي هنا . فمع قصة حب باريس وبيانا نحن أمام رواية فرسانية غربية نموذجية حيث المبارزات والمغامرات والحب المطارد ... الخ تكون ثوابت الرواية ، بينما نجد أن

---

21 - أقول مترجمة من الإسبانية لأن في الحقيقة رغم تطابق اللغتين الإسبانية و الأعجمية الموريسكية ، سيبقى هناك فرق بينهما في جوانب كثيرة تجعل من الأعجمية الموريسكية ، كما أشرنا الى ذلك في حينه ، لغة لا هي بالعربية الصرفة ولا بالإسبانية الخالصة ، بل مزيج منهما وإن كانت الكفة ستميل الى الجانب الإسباني .

22 - A. Galmés de Fuentes, Madrid, Ed. Gredos, 1970

موضوع الإسلام الذي لا يظهر إلا نادرا لا يحتل إلا مكانا جانبيا وهو خال من المواصفات التي تطبعه في الأدب الأعجمي الموريسكي. فالفرصة الوحيدة التي يرد فيها الكلام عن المسلمين بطريقة مباشرة في الرواية هي حين سيذهب باريس لانقاذ الخليفة وسيخدع حراس السجن الذين كانوا قد سمحوا له أن يتكلم مع الخليفة. فقد قال لهم:

« - أيها السادة، إنكم قد أدخلتم علي سرورا كبيرا بعدما تركتموني أقابل هذا الرجل. غدا سأذهب في حال سبيلي وأريد أن أقضي ليلة مرحة معكم. فقد قدم لهم طعاما بكثرة وخمرا جيدا بوفرة، وما أن غلب عليهم النوم حتى سقط الجميع في السكر. فبالنوم والسكر بدا الجميع وكأنهم موتى. وبعدئذ أخذ باريس مفاتيح السجن منهم ففتح الأبواب ...» (ص 207).

فكما لاحظنا من خلال هذا النص فإن الموريسكي الذي ترجمه لم يستعمل مقص رقابته مع هذه الفقرة التي تقدم صورة سلبية بعض الشيء عن المسلمين، كما لم يستعمله مع فقرات أخرى تظهر بطريقة غير مباشرة كراهية الخليفة للإسلام، عندما قال: مشيرا لباريس

«فإذا أخرجني من هذا السجن سأجعله سيدا على منطقة خلافتي بأكملها وذلك فقط لأموت في أرض المسيحيين» (ص 206)

ولكن مع ذلك فإننا سنراه أحيانا أخرى يتدخل لتلافي بعض العبارات المسيحية التي لم يكن الموريسكي يستصيغها، فهذه العبارات سنجدها في كل من الترجمتين الإسبانية والكطلانية وتغيب في الأعجمية:

الترجمة الإسبانية	الترجمة الكطلانية	الترجمة الأعجمية
قولوا له أن لا يكون لديه شك فإنني مستعد للقسم على جسم المسيح (ص 29)	(يجب) أن لا يخامره شك فإنني مسرور لأقسم على جسم المسيح الطيب (ص 29)	قولوا له أن لا يكون لديه شك فإنني سأقسم (ص 37)
وأرجع الراهب هذا الجواب الى باريس . ثم أمر بتقديس جسم المسيح (ص 29)	وأرجع الجواب إلى باريس ثم قدس الراهب جسم المسيح الطيب (ص 29)	ثم أرجع الراهب هذا الجواب لباريس (ص 37)
وهناك أقسم الخليفة أنه سيقوم بإنجاز كل الأشياء التي سيطلبها منه . وكبرهان على المودة تقبل ذلك القربان المقدس (ص 29)	وأقسم الخليفة على جسم المسيح المقدس أنه سيقوم بإنجاز كل الأشياء التي يريدها باريس . وكبرهان على العهد والصداقة تقبل القربان (ص 29)	وهناك أقسم الخليفة بأنه سيفعل كل ما سيأمره كبرهان على المودة (ص 37)

إن هذه التساهلات والرقابات المحتشمة تنم على أن الأسبقية هنا قد منحت للترفيه قبل أي اعتبار آخر . والترفيه في هذه الحالة كان بالأدب المسيحي الذي لم يكن الموريسكيون غرباء عنه . فمؤلف المخطوط S 2 (23) الذي وصفه خَيْمَا أُلِيبَارْ أَسِينْ بعبارة «المعجب بلُبَا» (أي بالأديب والروائي والمسرحي والشاعر لُبَا دَا بَاغَ) لنموذج معبر جدا عن النفوذية الثقافية بين الشطرين المسيحي والموريسكي . إن هذا الموريسكي الذي يظهر معرفة

23 - مخطوط من مجموعة Gayangos محتفظ به في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد .

واسعة بشعر لُبَا دَا بَاغَ والذي كان يتذوق كذلك غنائية غَرْثِلَسُ دَا لَبَاغَ حيث كان معجبا به ، والذي استطاع أن يبرز العمق الأخلاقي والنقدي في قسم من الرُّمَنْثَارُ (24) الإسباني ربما كان يمثل نموذج المورسكي المثقف والمنفتح على الأدب الإسباني المسيحي الذي كان يعيش قرنه الذهبي ، والمتذوق للمسرح والفن الإسبانيين (25) .

ولدينا من ناحية أخرى مجموعة من القصص الخرافية والحكايات التي ظهرت في الوسط الثقافي العربي مع بداية الإسلام ، استعملها المورسكيون كأدب ترفيهي بعد ترجمتها الى الأعجمية .

إن هذا الصنف من القراءات الموريسكية المتوفرة لدينا بأعداد أكبر من الصنف السابق ، كانت لها مهمة مزدوجة . فمن جهة كانت تمتع المورسكيين ببطولات ومغامرات فضائية أو بقصة حب ممنوع أو قصة تعس يتأمل عبد سفر خيالي مشاهد الحب والسعادة ... الخ . ومن جهة أخرى كانت عبارة عن أرضية لتقديم مجموعة من التعاليم الدينية والأخلاقية والتاريخية الإسلامية للمورسكيين وفرصة لاسترجاع أمجاد الإسلام الماضية وكذا قصص الأنبياء قبل الإسلام.

كتاب المعارك الذي حققه الأستاذ البَرْغَلْمَاسْ دَا فُوَانْتَاسْ (26) يجمع عددا من الروايات تدور حول المعارك التي كرست الانتصارات

---

24 - romancero إسم يطلق على مجموعة من القصائد الغنائية القصصية الإسبانية التي ظهرت بعد حروب الإسبان وملوك الطوائف بالأندلس ، وأشهر مجموعة منها تلك التي تتميز بالصبغة الملحمية وهي «رومنثيرو السيد» الذي لقبه أعداء العرب بالسيد لأنه قاد جيوش الإسبان إلى النصر ضدهم (يوسف محمد رضا. المعين قاموس عربي إسباني، زوق مصبح كسروان، لبنان 1993)

25 - أنظر M. de Epalza y R. Petit. **Etudes sur les Moriscos andalous en Tunisie.** Madrid IHAC, 1973, pp 213-214

26 - A. Galmés de Fuentes **El libro de las batallas**. Madrid, Ed. Gredos, 1975.

الإسلامية الأولى ومكنت هذه الديانة من إخضاع «الكفار» وإرساء قواعدها . إن هذه الروايات التي تتوفر على قاعدة تاريخية واقعية تقدم الأشياء بشكل خيالي ومبالغ فيه يجعل منها خرافات خارقة للعادة ليس لها من التاريخ سوى أسماء بعض أبطالها وتصميم مصغر للأحداث المروية . إن المبالغة المشار إليها سابقا تجد شرحها في السمو الذي خص به الشيعة شخصية علي بن أبي طالب ، البطل الذي ينفرد تقريبا بالدور الأول في هذه الروايات ، الزعيم غير المنازع لهذا المذهب المضطهد بشدة من قبل الأمويين ثم العباسيين .

إن تداول هذه الروايات بين الموريسكيين ، وهم مالكيي المذهب ، لا يمكن أن يبرر بتبعية مذهبية وإنما سيجد شرحه في إرث ثقافي إسلامي مشترك إحتمى فيه المورسكيون من الإضطهاد الممارس عليهم من قبل محاكم التفتيش الكاثوليكية وفي عودة الى زمن أمجاد الإسلام الذي لا يقهر .

ومن العناوين التي نصادفها في **كتاب المعارك** حيث يبرز علي بمؤهلاته الخارقة للعادة «معركة الأشيب بن حنقر» (27) التي يتدخل فيها علي بن أبي طالب ، كعادته ، عندما يحذق الخطر بالمسلمين أو يهزمهم أعداؤهم . ففي الحالة التي بين يدينا نجد أن المسلمين عندما اقتربوا من حسم المعركة لصالحهم ، يتدخل رجل مسن من زمرة الأشيب وينصح هذا الأخير بإرسال مبعوث الى محمد ليدعوه الى عراك مع صنمهم ويوعده بالدخول الى الإسلام إذا هزمه ، وقد تولى الشيخ إيصال الكتاب شخصيا لمحمد حيث خاطبه بما يلي:

---

27 - المرجع السابق . ص 245-256

« - يا رسول الله . يقول لك الأشيب أن تبعث عليا ليبارز صنمنا . فإذا هزمه سنومن بالله ربنا وسنتخذك رسولا ونبيا صادقا .

وبعدما استمع إليه النبي (صعم) توجه نحو علي فقال له : ما رأيك يا علي في هذا الأمر ؟

- إنني ذاهب إليه يا رسول الله ولو كان هناك من الجان الكثير . فسار علي على رأس ألف فارس وقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

- إذهب يا علي فكسره وفتته فإن الله سيعينك عليه .

فسار علي وامتثل أوامر النبي (صعم) . وبعد ذلك خرج الأشيب الى ضواحي المدينة وأمر بإحضار الصنم فأحضر . وها هو علي يأتي ومعه ألف فارس وعندما اقتربوا من الصنم إذ بالشياطين يحيطون به حتى علت سحابة من الغبار وتكدرت الأرض وخرجت جموع غفيرة من الشياطين والجان . ولما رأى الصحابة المرافقين لعلي تلك الجموع الغفيرة هربوا عن آخرهم وتركوا عليا وحده . فلما رأى علي ذلك نزل من فرسه وقال :

- أنا علي ، الفارس المعزز في كل مكان ، الصارم والمنتصر المشهور بعون الله ربي . يا قوم الجان ! هيا ، أثبتوا أمامي وذوقوا العذاب حتى ترون ما سألحقه بكم .

فهاجم الجان وصارعهم وقتا طويلا حتى هزمهم ففروا عن بكرة أبيهم ولم يبق جن منهم أمام علي .

ثم تقدم علي نحو الصنم فأسقطه على الأرض وبرجليه ركله وبذي الفقار سيفه قطعه وفتته حتى لم يبق منه شيء . ولما رأى الأشيب ما فعل علي بالصنم دخل الإسلام بين يدي علي كما دخله قومه وفرسانه وأبناء عمومته . (ص 255 - 256)» .

ومن الحكايات ذات العمق الأخلاقي والمحتوية على تعاليم إسلامية ، لدينا مثلا «حديث العربي والجارية» (28) التي تحكي القصة التي يشير إليها القرآن في الآيتين 8 و 9 من سورة التكوين : وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» والتي تتعلق بفتاة موءودة بسبب تهجمها على معتقدات والديها والإيمان بالله . فقد قالت لأبيها :

«يا أبتاه ! إنك تعيش في الخطأ وفي الكذب لأن صنم اللاة والعزى لا يملك قوة ولا علما ، لا ينفع ولا يضر ولا يحمي . ياأبتاه ! إن ربي ورب أمي وربك أنت وربُ الصنم الأكبر هو الله الذي خلق السماوات والأورض وخلق الإنسان وكل الأشياء» .

وأمام هذا التهجم أشارت الأم على أب الفتاة بقولها :

«خذ تلك الفتاة بين يديك واذهب بها الى أرض خلاء فاذبحها وآت لي بقلبها وكبدها قبل أن تفسد علينا ديننا»

وبعدما قام الأب بما أشارت به عليه زوجته وأراد أن يعود إلى منزله إذ بنار حامية تشتعل حوله بلهيبها المهول ، ما كان ليفلته منها إلا دخوله الإسلام . لهذا قرر الدخول في الإسلام . وبذلك انطفأت النار. وبعدئذ ذهب ليعلن إسلامه أمام محمد ويحكي له ما جرى له مع إبنته . وسيذهب النبي والصحابة الى المكان الذي دفنت فيه الفتاة وبإذن الله ستبعث من جديد . سيسأل النبي الفتاة مسامحة أبيها ، وسيكون جوابها الرفض ما دام لم يومن صادقا بالله وبمحمد . وسيخبرها الرسول بأنه قد فعل ذلك ، فتسامحه . ثم سيضع الرسول أمامها إختيار البقاء مع أبيها في الدنيا ، لكن جوابها كان : «لن أبدل الجنة بمتاع الدنيا» .

28 - أنظر O. Hegyi المرجع السابق ص 185-196

وهناك حكاية أخرى تطرقت الى موضوع الخلاف بين أب وابنته بسبب الإيمان ، وهي «الجارية أركين» (29) .

إن هذه الفتاة هي ابنة ملك إسمه الجفر وكان يعبد صنما من الذهب . وكانت هذه الفتاة قد طلبت من أبيها أن يعبد الله الأحد ويتخلى عن عبادة الأصنام فجازاها بقطع يديها ونفيها الى غابة كثيفة ومخيفة .

إن التناقض في العقيدة ليس هو نقطة الإختلاف الوحيدة بين الأب وابنته في هذه الحكاية بل هناك جانب آخر مفجع أكثر من الأول ويكمن في نوايا الأب في ارتكاب المحارم تجاه ابنته :

«كانت الفتاة وسيمة وجميلة جدا . ولما بلغت سن الرشد عشقها الملك أبوها وطلب حبها . ولقد أدركت هذه الفتاة العفيفة والمحتشمة باندهاش أن كل ملاطفات أبيها وحبه كانوا خارج نطاق المشاعر الأبوية وتحكمهم نية الفسق» (ص 5) .

فما رأيناه من بتر ليدي الفتاة ونفيها كان إذا لعدم رضوخها لنوايا والدها الفاسق وليس فقط بسبب الاختلاف حول العقيدة .

هكذا إذا وبعد نفيها الى الغابة سنرى أن مأساة أركين ستخفف بظهور ظبية بيضاء ستقودها الى «مغارة جميلة الصنع» وستوفر لها الطعام فكانت تطعمها بفمها وتلحس بلسانها مكان قطع يديها حتى شفيت من الجرح . وبعد هذا سيأتي أمير انطركية الذي سيغرم بأركين التي سيتزوجها بعد ذلك . ولكن والدة الأمير سوف لا ترضى على هذا الزواج وستستغل

---

29 - أنظر
A Galmés, "L'le-yeísmo y otras cuestiones lingüísticas en un relato morisco del siglo XVII" en Estudios dedicados a Menéndez Pidal, Madrid, 1956

فرصة خروج ابنها الى الحرب لتأمر خدامها بإرجاع أركين الى الغابة التي كانت بها سابقا . وهناك في الغابة ستستعيد يديها بعد استجابة الإله لتضرعها إليه . وإثر عودة الأمير من الحرب قالت له أمه أن أركين بمجرد ذهابه الى الحرب غادرت القصر وحملت معها إبنها هاربة الى الغابة . فبعد كل ما فعلته لا داعي إذا ليشغل باله بها . ولكن الأمير الذي لم يصدق ما قالته أمه ، خرج باحثا عن أركين وعن ابنه . وعندما وجدها اندهش بالسعادة لما رأى أن يديها قد كبرت من جديد . وهكذا رجع بهما الى القصر الملكي ليعيشوا هناك معا ، بينما ذهبت الأم لتعيش في قصر جميل في مكان آخر . وبعد ذلك سيقوم الأمير بحملة ضد الملك الجفر والد أركين الذي سيهزمه بسهولة وسيقضي على وثنيته العنيدة . وأخيرا تجدر الإشارة الى أن أركين لا تألو من ذكر الله في لحظات الحزن أو الفرح وذلك مرددة عبارة «ليله يلا الله» (لا إله إلا الله) .

ومن الحكايات التي تتضمن مرجعيات إسلامية بصفتها من الخصوصيات الثابتة في معظم النصوص الأعجمية الموريسكية يمكن الإشارة الى قصة «تميم الداري» . وإذا تركنا جانبا تلك المرجعية الإسلامية الثابتة فالقصة قد تستهوينا باعتبارها نموذجا رائدا لما يسمى اليوم بأدب الخيال العلمي وبسبقها في هذا الميدان الذي يجلب إليه العديد من محبي المغامرات الفضائية وأسفار سكان الاجرام الاخرى . وقصة «تميم الداري» تذكرنا بسيناريو فيلم سْبِيلْبَارْغْ الأمريكي «لقاءات من النوع الثالث» أو بالعكس ، الفيلم يذكرنا بقصة تميم الداري . فقصتنا تروي احتجاز شخص واختطافه من باب منزله والذهاب به الى الأجواء العليا فوق كائن يطير ، وبعد وقت معين سيرجع هذا الشخص الى المكان الذي اختطف منه بالضبط ، وكل ذلك كما سيحدث في الفيلم الأمريكي بعد قرون طويلة .

إن المورسكيين عندما ترجموا هذه القصة لم تكن نيتهم هي الترفيه بقصة عربية خيالية فحسب ، بل كانوا يتوخون كذلك تماثل واقعهم المعاش وإبرازه رمزيا من خلال قصة رجل أرغم بدوره على مبارحة أرضه ودينه قسرا لا لشيء إلا لعقيدته أو لأفكاره كما نقول اليوم . لا ننسى أن المورسكيين كانوا محط اضطهاد وتهجير وتعذيب وتقتيل من قبل خصومهم في العقيدة . لهذا نؤكد على الجانب الرمزي في قراءة النصوص الأعجمية المورسكية بإحضاره دائما .

لقد حاولنا التطرق الى بعض الجوانب من الثقافة الموريسكية من خلال نماذج من كتاباتهم التي استطاعت أن تفلت من رقابة محاكم التفتيش لتصل إلينا وتأتمننا على تاريخ وفكر أصحابها . فلو طلب منا اليوم أن نحكم على هذه الثقافة أو نصنفها لوضعنا شرطا مسبقا لذلك وقضينا بترك المصطلحات التقييمية التي تنظر الى الأشياء نظرة عمودية لأن هم الثقافة الموريسكية لم يكن في «النمو» بل في «البقاء» . لهذا يجب أن تبعد عليها نعوت مثل «منحطة» (30) و «فقيرة» ... الخ . إنني أظن أن ما يجب مساءلة الثقافة الموريسكية حوله هو مدى توفقها في الحفاظ على الهوية الإسلامية لتلك الجماعة التي لم تكن تركن أبدا الى راحة العيش في ظل خصوصيتها وكانت تعيش وشبح المطاردة وراءها ، مطاردة عقيدة لم تقنعها فلم تقبلها . إن هذه الثقافة لن تجيبنا أبدا عما طرحناه عليها من

---

30 - L.P Harvey, "El Mancebo de Arévalo y la literatura aljamiada". **Actas del Coloquio Internacional sobre Literatura Aljamiada y Morisca. Madrid,** Ed. Gredos, 1978. pg 23
«فيما يخص الإرث الإسباني العربي ، تجدر الإشارة الى أن الأمر يتعلق بثقافة منحطة . ويمكن أن نقول أن ثقافة ما منحطة عندما لا تستطيع تجديد بنياتها الخاصة ، فتشل وتموت بعد فترة قد تقصر أو تطول» .
- أنظر كذلك :

A. domínguez Ortiz (y B Vincent). **Historia de los Moriscos.** Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente, 1979, pg. 124 :
« (...) يمثلون ثقافة ذات تقليد عريق ولكنها وصلت الى أوج انحطاطها وانحلالها»

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وهو السميع العليم وحسبنا
الله ونعم الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم
سبحان الله [illegible]
سبحان من تعزز بالعظمة
وقهر العباد بالموت [illegible]

[illegible]
سبحان الذي سخر لنا هذا
وما كنا له مقرنين وإنا
إلى ربنا لمنقلبون

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد الكريم
وآله وسلم وشرف وكرم

الدعاء [illegible]
[illegible]

انوا سلم



تارساو أرذانّ

تاب تات تاث

تاج تاح تاخ

تاد تاذ تار

تاز تاط تاك

تاك تال تام

بما حبيب

إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل ثاعشر :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء

من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم. أعيذ نفسي بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد. أعيذ نفسي بالله رب الناس ملك الناس إله الناس من شر

مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه

الدكتور أحمد شحلان
كلية الآداب - الرباط

ملاحظة لابد منها

لا يحق لنا أن نزعم بأننا نستطيع أن نتناول في هذا المدخل مضمون العنوان الذي عنونا به بحثنا هذا، تناولا مفصلا ودقيقا وشاملا، لأن مقولة العنوان كانت مادة غزيرة لسلسلة متواترة من تراثنا التاريخي منذ العصر الأندلسي وإلى اليوم، كما كانت مطلبا كرست له أجيال من الباحثين المختصين، الوقت الطويل والجهد الكبير. لذلك فرغبتنا في هذا المدخل، هي أن نرسم خطاطة للمسرح الذي أثمرت تربته حضارة فريدة أفسحت المجال للفكر الإنساني في امتداداته المختلفة. ومن تلك الإمتدادات ما أنتجه العصر الذهبي العبري الذي بنى صرح ثقافته من مكونات فكرية عربية إسلامية، فأنتج هو أيضا تراثا أرخ له اليهود بلغتهم، وأرخت له تلك السلسلة التاريخية المشار إليها أعلاه، وستكون هذه هي مواضيع بحوثنا في المقبل من الأعداد إن شاء الله (1). فما هي إذا عناصر مكونات هذا المجتمع الأندلسي الفريد ؟

---

1 - سنعرض للتراث العربي العبري التاريخي وبعض الدراسات الهامة المكتوبة بالعبرية تحليلا ومقارنة، في المقبل من أعداد المجلة، إن شاء الله

1 - العرب

كانت النواة الأولى للعرب الذين وصلوا الأندلس تتكون من القيسيين والكلبيين ، ممن وفد مع موسى بن نصير ، ثم جاءت بعدهم دفعة أخرى مع الحر ابن عبد الرحمن الثقفي سنة 94 هـ . ومنذ ذاك تتابعت الهجرات ، واستجلب عبد الرحمن الأول أجنادا سوريين ، استقروا فيما بعد في جنوب وغرب الأندلس . وسمي أولئك الوافدون مع ابن نصير **البلديين** ، في حين سمي الوافدون مع بلج بن بشير **الشاميين**.

استقر العرب بصفة عامة في مدن السهول الخصبة ، خصوصا في منحدر الوادي الكبير وقرب منحدرات أنهار التجه وشنيل وإبره قرب مرسيا ، واستقر العدنانيون القيسيون حول طليطلة والهذليون في منطقة أريولة وأكثر التميميين والقيسيين في منطقة إشبيليا وبلنسيه . وتوزع القحطانيون اليمنيون في عديد من الأماكن. واستقرت الأرستقراطية الحميرية في قرطبة وبطليوس وإشبيليا وألبيره ومرسيا ، وتوزعت منازل العرب الشاميين في أماكن متعددة ، فنزل جند دمشق كورة (ضاحية) ألبيره وجند الأردن كورة جيان وجند مصر كورة باجة وبعضهم بكورة تدمير [2]. وعدهم مؤلف ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، في الجنس الأول والثاني من ساكنة الأندلس حيث قال : «الجنس الأول دخل إليها من بني هاشم الجم الغفير، من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وجراثيمهم ومواليهم الجم الغفير، من سائر البلاد التي ذكرنا» [3] .

---

2 - لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، [تحقيق محمد عبد عنان] ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1973 ، ج 1 ، ص 103-105 . وانظر أيضا جمهرة أنساب العرب لابن حزم فهو يذكر فيها القبائل العربية ويذكر المنازل التي استقرت بها .

3 - ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم ، مؤلف مجهول [تحقيق عبد القادر زمامة] مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث والرابع ، السنة الأولى ، 1964 ، ص 55 (سنحيل إليه بـ زمامة).

2 - البربر

تدفقت جموع البربر على الأندلس ، وكان أكثرها من زناتة ، مع الطلائع الأولى للفتح ، ثم تبعتها قبائل صنهاجة أيام ضعف الدولة الأموية، وازداد هذا العنصر سلطة في عهد المرابطين ، حيث احتلت قبائلهم كثيرا من المدن ، وخصوصا الثغور منها : «ولما فتح الموحدون الأندلس واستولى يوسف على شرقها ، أنزل زناتة في بلنسيا وصنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسيا ، وأهل تنمل في لورقة ، وكوميا في ألمرية وبرشلونة. وعندما استرجع باجة سنة 570 أرسل مع أهلها قبيلا من الموحدين بأولادهم وعيالهم ليسكنوا معهم فيها. وفي سنة 616 أرسلت مجموعة من كوميا الى الأندلس» (4)

وعدهم صاحب أعيان فاس من الجنس الثالث ممن دخل الأندلس حيث قال : «الجنس الثالث دخل إليها من برابرة المغرب وافريقيا . ومن كان منهم من أهل الحاضرة استقر في القرى» (5) . ومن بيوتاتهم التي ذكرها ابن حزم في جمهرة الأنساب : وزداجة وملزوزة وامغيلة ومكناسة وازناتة ومديونة وهوارة ومصمودة وأوربة وزواوة وصنهاجة (6) .

3 - السقالبة (الصقالبة) أو الموالي

وهم الخدم المستجلبون من الشمال ، وأصلهم من أسارى أسرَتهم الجيوش الجرمانية في حروبها مع السلافيين ، ثم حملوا الى الأندلس

---

4 - ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب [تحقيق كولان وليفي بروفسال] [ج 4 ، تحقيق إحسان عباس] ، دار الثقافة ، بيروت ، 1967 ، ج 4 ، ص :69

5 - رمامة ص 55

6 - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب [تحقيق عبد السلام هارون] دار المعارف بمصر ص 498 - 502 .

وبيعوا بها. والبعض منهم كان من أسرى القراصنة الذين كانوا يطوفون في مياه الأبيض المتوسط. واستجلب اليهود، من كان منهم خاصا بخدمة الحريم ، من فرنسا ، خصوصا من VERDUN (7). ويقول ابن حوقل : «ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي أفرنجة وجليقة وخدم الصقالبة ... والصقالبة قبيل من ولد يافث ... فنصف بلدهم بالطول يسببيه الخراسانيون ... والنصف الشمالي يسببيه الأندلسيون من جهة جليقة وإفرنجة وانكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير، باق على حاله ...» (8) . وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة ، وصار لهم ذكر وصيت . يقول ابن عذارى المراكشي : «... وكانوا أبهى حلل المملكة وأخص عددها ، عني الخلفاء بجمعهم واالاستكثار منهم» . وبلغوا حظوة عند الحكم ما بعدها حظوة ، فعلى الرغم مما ظهر منهم من أمور قبيحة فإنه كان يقول : «هم أمناؤنا وثقاتنا على الحُرَم ، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم ، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم «وازدادت سطوتهم بعد موت الحكم حتى ظنوا أن «لاغالب لهم وأن الملك بأيديهم» كما يقول ابن عذارى (9) . وجاء في النفح : «إن عدد الفتيان الصقالبة بالزهراء ، بلغ ثلاثة عشرة آلاف وسبع مائة وخمسين فتى ... وعدة النساء ... الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاث مائة وأربعة عشر امرأة» (10).

---

7 - E. Lévı-Provençal, l'Espagne musulmane, Parıs, 1932 , p. 29 = Lévı (Provençal 2)

8 - أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الأرض ، ط 2 ، القسم الأول ، ليدن ، 1938 ، ص 110.

9 - البيان ، ج 2 ، ص 259.

10 - أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ... [تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد] مطبعة السعادة ، مصر ، 1949 ، ج 2 ، ص 103.

4 - المستعربون أو النصارى المعاهدون أو الأعاجم (Los Mozarabes)

وهم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأنـدلس في المدن والبقاع المفتوحة ، في ظل الدولة الإسلامية ، وكانوا يكونون مجموعـات كبيرة في القواعد الرئيسية مثل قرطبة وإشبيلـية وطليطلة (11) . وكان من الطبيعي أن يكون عددهم كبـيرا في كل أرجاء الأنـدلس ، ففي معاهدة فحـص غرناطـة ، متلا ، وعد المـعاهدة ابن رودمير باثني عشر ألف مقاتل ، وكانوا في منطقة جد محدودة (12) . وكان هؤلاء النصارى أو الأعاجم يـكونون طبقتين داخل المجتـمع الأندلسي ، طـبقة عليـا ، جماعهـا كبار النـصارى ووجـوهـهـم ، وطبـقة مـن العـامة. وقـد غيـر الفـاتحون مـن وضع هـؤلاء الإجتمـاعي ، ومكنوهـم من خدمة الأرض مقابـل جزء يسير مـن منتوجهـا يؤدونه للدولة ، ويحتفظون هم بجلـه ، وكانوا قبلا أقنانا مملوكين (13) . وكان كل امتيازاتها الإجتـماعية ، إذ أخـذت جل أرض الأندلس صـلحا ، وعـليه فإن أصـحابها كـانوا يبيعون ويباع منهم ، وأبناء آخر ملوك القوط حافظوا على ثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك (14) .

5 - المولدون أو المسالمة من أهل الدين

وهم سـكان الأندلـس الأصليون الذيـن اعتنـقوا الإسـلام. وعدهم صـاحب أعيان فـاس ، هم والنصـارى المعاهدة ، فـي الجنس الرابـع قال :«الجنس الـرابع من

11 - لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة [تحقيق محمد عبد الله عنان] مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1973 ، ج 1 ، ص 106-107.

12 - البيان ، ج 4 ، ص 69 والإحاطة ج 1 ص 109.

13 - E. Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xè siècle, p. 160 = Lévi - (Provençal 2)

14 - أحمد الطاهري ، عـامة قرطبة في عصر الخلافة ، منـشورات عكاظ ، الرباط ، 1988 ، ص 148 -169 . أنظر التفصيل في = Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1950, T. 3 pp. 214-226 (Lévi-Provençal 2)

أهلها الذين دخل عليهم المسلمون ، منهم من أسلم واستقر بموضعه ، ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها، وبها بقي عقبه ، ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما . وهذا الصنف على أجناس ، منهم الروم والجلالقة وقشتالة وراغون البرمدي والعريقيين واليـنير (15) و الطوطيين من الأمم القديمة ، ومنهم أهل البريس مدينة مستقر طاغية فرانسيس ، ومنهم عجم رومية ... ومنهم من كان من اليهود مستقرا بها قبل الفتح ، وأسلم عند الفتح أو بعده، أو دخل إليها بعد الفتح وأسلم» (16) .

6 - اليـهـود

لا يعرف متى وصل اليهود أرض إسبانيا فقد زعم أنهم جاؤوا إليها مع طلائع الفينيقيين الأولى الذين قدموا مع Tharsis في القرن العاشر قبل الميلاد، كما زعم أيضا أن مجموعة ثانية منهم وردت أيام نبوخذنصر سنة 558 قبل الميلاد. ومن المؤكد أنهم كانوا موجودين في أرض إسبانيا منذ القرن الرابع الميلادي، إذ أقر المجمع الذي عقد في Ilibrow ، ما بين سنة 309 و 312 (ق م) عديدا من البنود يمنع بمقتضاها تعامل النصارى مع اليهود وكذا مخالطتهم والزواج منهم ومشاركة الطعام (17) .

وكان هؤلاء اليهود الذين استوطنوا الأندلس قبل الفتح عونا للفاتحين ، يقول المقري عن فتح طارق : «... ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة ، فحاصروا مدينتها وفتحوها عنوة ، وألفوا بها يهودا ضموهم الى قصبة غرناطة ، وصار ذلك سنة متبعة متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودا ، يضمونهم إلى قصبتها

---

15 - يذكر المحقق عبد القادر زمامة ، في حاشية 54 بأنه لم يتوصل إلى تقويم هذه الأسماء المحرفة عن أصولها .

16 - زمامة ص 55

17 - Raymond, R. Thourent, Chrétiens et Juifs à Grenade au IV siècle avant J.C.Hespéris, T. XXX (1943), pp. 201-202

ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها» (18) . وقد تحدث أسطور في كتابه تاريخ اليهود في الأندلس الإسلامية ، بتفصيل عن وجود طوائف ذات أهمية كبرى في عديد من المدن ، مثل قرطبة وإشبيلية ولسيانة وغرناطة وطليطلة وقلعة حماد وسرقسطة ، وكذا في مدن الشمال ، مثل برشلونة وطركونة وطرطوشة (19) . ولن نفصل القول في موضوع اليهود في هذا القسم من البحث ، لأننا سنخصص معظم دراساتنا المقبلة لهم ولأهل الذمة ، كما أشرنا سابقا .

هذه هي العناصر التي كونت سكان الأندلس منذ الفتح حتى السقوط ، وقد استطاعت أن تؤثر وتتأثر وأن تنتظم فيما بينها تنظيما دقيقا لم يحدث بهذا المقدار في زمن يسير إلا في هذه الأندلس (20). فهل كانت هذه العناصر تكون وحدة متكاملة أم كانت نسيجا مجتمعيا لم يستطع التخلص من خصوصياته ؟ . ينطلق الجواب على هذا السؤال من طبيعة الفتح ومسار الإستقرار والظروف السياسية التي ستطبع كل تاريخ الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية. فأرض الأندلس أرض فيئ ، فتح جلها صلحا ، وعليه فإن أصحابها الأصليين سيحافظون على كثير من أراضيهم ، وسيظل لهم وجودهم الفعلي في النشاطات المختلفة . يقول ابن حوقل : «وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية الروم» (21) . والكثير من أصحاب الأرض من غير هؤلاء ممن دخل الإسلام ، سيكونون في واقع أمرهم معظم سكان الأندلس ، وسيصبحون في مصاف العرب والبربر بعد أجيال ، وقد تستحيل التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء (22) .

---

18 - النفح ، ح 1 ، ص 10 . البيان ، ح 2 ، ص 12

19 - א• אשתור , קורות היהודים בספרד המסלמית , כרך 1 קרית ספר , בע " ס . ירושלים 1960
(أ. أشتور ، تاريخ يهود اسبانيا المسلمة ، ج 1 . 1960)

20 - Lévi-Provençal 1, p. 32

21 - صورة الأرض ، القسم الأول ، ص 111

22 - Lévi-Provençal 1, T. 1; p. 75

وكان للصقالبة الذين نيف عددهم في قرطبة وحدها على خمسة عشرة ألف نسمة (23) التأثير الكبير ، خصوصا وأنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار ، وقيادة الجيش ، وكان لهم قول مسموع في نساء القصر ولدي أهل السلطة (24) . وظل العنصر اليهودي الذي ساهم في الفتح ، كما أشرنا إلى ذلك ، نشطا يتحرك في مجالات الاقتصاد المختلفة ، ولكنه كان أيضا ذا تأثير سياسي كبير (25) .

لقد كون كل هؤلاء ظاهريا ، مجموعا ينم عن انسجام ، وكانت العامة أكثره ، إذ كان في قرطبة وحدها : «خلق لا يحصيه إلا خالقهم» (26) ، أو كما قال ابن خلدون : «ويموج بحر المدنية بالسفلة» (27). وكان على قمة كل هذه العناصر أرستقراطية عربية تتكون من نبلاء الفاتحين وبعض أكابر البربر والصقالبة ، واتخذ هؤلاء الطبقة العامة خدما في كل مجالات الحياة (28) ، وكانوا يعيشون ، سواء منهم سكان المدن أو الأرياف والحصون ، على طريقة ملاك الأراضي الكبار ، يستخدمون المولدين والعامة والفلاحين المستعربين في زراعة ضيعهم فيخصصون لهم أجرا مقدما أو يفردون لهم قسطا من المنتوج (29) . غير أنه سيكون لهذه الطبقة العاملة التي تمثلت في بقية الأجناس الأخرى ، بطبيعة الحال ، فيما آلت إليه الأمور وتبعا للتقلبات السياسية المختلفة ، وضع جديد يضعف من شأن العصبية العربية التي لم تجد لها منبتا خصبا في أرض الأندلس ، فتحللت الروابط القبلية في

---

23 - البيان ، ج 2، ص 232
24 - نفسه ، ص 259
25 - عبد الله بن بلقين، مذكرات ... المسماة بكتاب التبيان [تحقيق بروفنسال] ، دار المعارف بمصر ، 1955 ، ص 37 و 53
26 - البيان ، ج 2 ، ص 222
27 - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... [تحقيق علي عبد الواحد ج 3، ص، 878
28 - Lévi-Provençal 1, p 233
29 - Lévi-Provençal 2 T.1, p.84-85

المدن، وضعفت في البوادي لأن : «الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل» (30) . أو كما قال ابن عباد في رسالته إلى يوسف بن تاشفين :«فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ... فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر» (31) ولم يعد لكثير من أعقاب تلك البيوت الأرستقراطية ذكر، فصاروا من عامة الناس. يقول ابن خلدون :«تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة ، وأهل الدول منطرحين في الغمار ، منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما يفسد أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة » (32) .

ومما يثبت هذا الوضع الذي آلت إليه العصبية العربية أن الحكم في الأندلس ، منذ بداية الأمويين وحتى الأفول ، ظل متأثرا بما كان لكن هذه العناصر من قوة قد تزداد هنا وقد تضعف هناك ، تبعا للغلبة أو الإندحار اللذين كانا من ثمرة الإنقسامات داخل سلطة العائلة الواحدة ، أو الصراع الذي كان يحدث بين الدويلات ، أو التهديدات التي كانت ترد من قوة خارجية شمالا أو جنوبا ، زيادة على ما كانت تحدثه العناصر غير العربية من فتن أو ثورات أو تطلعات تريد بها علو كرسي السلطة . وباختصار ، فإن صيرورة الحكم في الأندلس ظلت رهينة بحركية يكاد يكون لها وحدها التأثير الكبير ، تلك هي النزاعات الداخلية والمناوشات الخارجية والصراعات السياسية. وكان لهذه الحركية مرتكزاتها الأساسية هي التي ولدت الفعل اليومي والنشاط المتأجج الذي سبك كل العناصر المكونة لسكان شبه الجزيرة الإيبيرية. وتمثلت هذه المرتكزات في الوظائف التي خص بها كل عنصر في البنية العامة التي تكون الحكم، سواء عندما كان في أوجه وجماع وحدته أو ضعفه

30 - ابن خلدون ، ج 2 ، ص 46
31 - الحلل الموشية في الأخبار المراكشية [تحقيق علوش] ، الرباط 1936 ، ص 33
32 - ابن خلدون ، ج 3، ص 878

وانحداره وتفتته.

تربعت النخبة العربية على سدة الحكم، وتقلدت مراتب الوزارة والكتابة والقضاد والشرط والحسبة والخطط والمظالم والمواريث والمباني وبيت المال وضرب السكة (33) . وشاركهم في هذه المناصب في ما بعد ، عديد من البربر الذين ارتبطوا بهم دما، وكذا بعض المولدين الذين سواهم بهم الإسلام وتضلعهم في لغة القرآن وآداب حضارته الإسلامية . وكتب التراجم والرجال الأندلسية تزخر بأسماء هؤلاء في العلم والقضاء (34) . وقد استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفا على الأرستقراطية العربية ، مما سيخلق صراعا داخليا مريرا عبر عنه ابن الفرضي في حديثه عن عبد الله بن الحسن المعروف بابن الشدي ، الذي استقضاه أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ، على وشقة وما والاها ، قال ابن الفرضي : «إنه كان منسوبا الى الكبر مزهوا شديد العصبية للمولدين منتقدا للعرب حافظا لمثالبها ... توفي 335 هـ» (35) .

أما من احترف من العرب ، فكانت حرفتهم الفلاحة والغراسة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما، وبيع العطر والشمع واللبن والفاكهة والخضر والخبز . ونشطت عامة البربر في الحواضر ، في عديد من الصنائع الجارية ، مثل ظفر الحلفاء والقنب والحبال وصناعة المحاريث والسلال والبراذع والشطاطيب وصيد الطيور وحمل الماء والبناء . ومن سكن منهم البوادي كان يجلب الى المدن

---

33 - زمامة ، ص 55

34 - ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . وأبو عبد الله محمد بن حارث الخشني ، قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966.

35 - ابن الفرضي ، ص 227

36 - زمامة ، ص 55

البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والفحم والخشب (36).

أشرنا سابقا إلى أهمية الصقالبة في دولة الأمويين ، ورأينا أن عددهم كان كثيرا في عديد من مرافق القصر وخدمة الدولة (37) حتى قال ابن عذارى : «وكانوا أبهى حلل المملكة وأخص عددها ، عني الخلفاء بهم والإستكثار منهم» (38) . فجمعوا الأموال وملكوا الأراضي والعبيد ، وتقلدوا وظائف سامية في الدولة والجيش أيام الناصر - وقد نيفت ولايته على نصف قرن - فتولى عبد الله بن بدر الكتابة ، وقند المواريث ، ودري الشرطة ، وأفلح الخيل ، وخلف الفتى الطراز ، وطرفة بن عبد الرحمن صاحب المطبخ المواريث ، ورئس نجدة حملة من الحملات العسكرية ، وأصبح قند ، وهو غير الأول ، قائدا على طليطلة ، وكان بدر الفتى الكبير صاحب السيف (39) . وأشرف عبد الله بن بدر سنة 329 على أعمال حفر قناة بين جبل سير والمسجد الكبير بقرطبة ، كما أشرف جعفر ابن عبد الرحمن الصقلبي ، حاجب الحكم الثاني ، على توسيع المسجد . وتولى الشرطة بقرطبة ثلاثة منهم هم محمد بن تمليخ ، صاحب البرد ، وأحمد بن ناصر صاحب السوق وقاضي جيان ، وخالد بن هشام الذي وزر لهشام الثاني (40) . وتعاظم أمرهم واستخدموا أحيانا في قمع الثورات وإخماد النعرات ، بل كانوا هم أنفسهم وقودا لهذه الثورات ، كما جاء في أخبار فائق النظامي وجؤذر ، أيام الحكم الثاني . وظهرت لهم عصبية عبر عنها حبيب الصقلبي أيام هشام الثاني في كتاب أسماه «كتاب الاستظهار والمقابلة على من أنكر فضائل الصقالبة » (41).

---

37 - النفح ، ج 2 ، ص 163 ، والبيان ، ح 2 ، ص 247-248

38 - البيان ، ج 2 ، ص 259

39 - البيان ، ج 2 ، ص 165 و 170 و 164 و 183 و 191 و 203 و 214 و 223

40 - Lévi-Provençal I pp 105-107

41 - البيان ، ج 2 ، ص 259 و 262 وما بعدها ، وانظر أخبار الناصر في النفح ، ج 1 ، ص 253-282 ، [تحقيق إحسان عباس 1968]

ومن اشتغل من موالي الحواضر فقد اشتغل بالصنائع وبعض المهن والتجارة وتقديم الخدمات، فمن صنائعهم الحياكة والخرازة والنسج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه. ومن مهنهم الصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم. وكانوا يتجرون في النعال والحياك والجلاليب واللحم. أما الخدمات التي كانوا يقدمونها للمجتمع، فتمثلت في ضرب الطبول والبنود والقيام بالمساجد والآذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلا وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد الى بلد (42).

واحتل المعاهدة النصارى مناصب كبيرة في الدولة والجيش (43) مثل عمر بن قومس (Comes) الذي كان كاتبا للأمير عبد الله (توفي 298) (44). وعلى الرغم من اعتراض الفقهاء على بلوغ النصارى مناصب عليا في الدولة، فإن ذوي السلطة لم يروا في الأمر بأسا، إذ تحدثنا الأخبار أن الفقهاء حثوا الأمير محمد الأول على تخيير كتابه النصارى بين الإسلام أو العزل، كحال كاتبه القومس بن أنطونين (45)، غير أن الأمير ومن جاء بعده لم يستغنوا عن كتابهم ومقتصديهم اليهود والنصارى خلال الحكم الأموي كله (46) ولاشك أن هؤلاء كانوا إداريين يدبرون أمور الإقتصاد وتنظيم الدولة وكانوا يختلفون عن كتاب الرسائل كما يفهم من كلام المقري. واسترشد أصحاب الحل والعقد في الأندلس بكبار النصارى في كثير من الأحيان، فقد أشار أرطباص - الذي عينه العرب بعد الفتح، حاكما على طليطلة ورئيسا للنصارى وزعيما لعجم الذمة ومستخرجا خراجهم

---

42 - زمامة، ص 55

43 - Lévi-Provençal 1 p. 112 et Lévi-Provençal 2, T 1, pp. 232-234

44 - Lévi-Provençal 1, T.1, p. 290 و Lévi-Provençal 2, p. 111

45 - انظر مثلا النفح، ج 1، ص 202

46 - Lévi-Provençal 2 T.1, p. 290

لأمراء المسلمين - على أبي الخطار هشام ، بتفريق القبائل الشاميين في الكور ، تخفيفا عن قرطبة (47) . كما كان المظفر يستشير أب الربيع النصراني في مهمات أمره (48) . واعتمد الناصر لدين الله سنة 329 عباس بن المنذر أسقف إشبيلية ، ويعقوب بن مهران أسقف بجاية وعبد الملك بن حسام أسقف البيرة ، في بعثة من قرطبة الى جليقة لمفاوضات رودمير في فداء محمد بن هشام (49) . ولعب هؤلاء المعاهدة دورا كبيرا في ثورة ابن حفصون حيث حاولوا التدخل بالصلح أو التخلي عن هذا الأخير (50).

ومن أسلم من هؤلاء المعاهدة النصارى ، فمن كان من البادية اكتسب البقر والغنم واشتغل بالحرث وتربية النحل . وكان أهل الجبال منهم يغرسون الجنات ويرعون أشجار الفاكهة ويقطعون الخشب ويصنعون الفحم . ومن ولي البحر منهم امتهن الصيد وجلب الحوت والسردين وصناعة السفن وآلاتها (51) .

سبق لنا أن ألمحنا أعلاه لأهمية اليهود إبان فتح المدن الأندلسية فنالوا كبير جزاء لهذا الفعل ، وأعدوا نفوسهم ثقافة وعلما ، ليقوموا بالمهمات الجسام في جهاز الدولة، فهذا حسداي بن إسحق بن شبروط يصفه ابن حيان بـ : «وحيد العصر الذي لا يُعَدَّل به خادم ملك ، في الأدب وسعة الحيلة ولطف المدخل وحسن الولوج» (52) . وحسداي هذا كان مترجما للناصر ومدبرا لإدارته العامة وجمارك المملكة ، كما كان يذهب في سفارات خطرة ، ويستقبل السفراء القادمين على

---

47 - الإحاطة ، ج 1 ، ص 103-104

48 - مذكرات ، ص 66-67

49 - ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، [نشر ـ سالمينا] ، المعهد الإسباني للثقافة ، مدريد ، كلية الآداب ، الرباط 1979 ، ج 5 ، ص 467

50 - نفسه

51 - رمامة ، ص 55

52 - المقتبس ، (مدريد) ص 366

قرطبة . وهكذا استقبل سنة 944 سفارة قسطنطين الثامن الذي ورد من بزنطة ، واستقبل سنة 956 ممثلي أطان الأول (Otton) القادم من ألمانيا. واختاره الخليفة لدى أردمو الثالث (Ordomo) عندما نزع الى الصلح سنة 955 . وهو الذي أقنع الملكة (Tota de Navarre) بزيارة العاصمة (53) . وذهب أيضا في سفارة الى أردون بن ردمير، ملك جليقة لفداء محمد بن هشام وعقد الصلح (54) . «فارتفعت به الحرب بين الملتين بين مدينة شنترين ومدينة وشقة ، فأقنع رودمير غيره من النصارى بالصلح والمسالمة» (54) . وهو الذي عقد السلم مع شنير بن غيفريد الإفرنجي صاحب برشلونة كما رضي بذلك الناصر لدين الله (56) . وكلف الحكم الثاني أبراهام بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوسي ببعثة وجهها الى ملوك الشمال (57) . ونقل ابن الخطيب عن ابن حيان قولا في ابن النغريلة المشهور ، جاء فيه : «وكان ... من أكمل الرجال علما وحلما ، وفهما وذكاء ودماثة ودهاء ، ومكرا و ملكا لنفسه ، وبسطا من خلقه ومعرفة بزمانه ... ناهيك برجل كتب بالقلمين ، واعتنى بالعلمين ، وشغف باللسان العربي ونظر فيه ، وقرأ كتبه وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي في ما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسول الله (صلع) ، والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله ، وما يريد ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتّاب الإسلام ... وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب ، وجمع إليه

---

53 - Lévi-Provençal I p. 112

54 - البيان ، ج 2 ، ص 221

55 - المقتبس ، (مدريد) ص 467

56 - نفسه

57 - أ. اشتور ، ج 1 ، ص 228-229

المعلـمين والأدباء من كـل ناحية يـعلمونـه ويدرسونه ، وأعـلقه بصـناعة الكـتابة ، ورشحه لأول حركته لكتـابة ابن مخدومه بلكّين برتبة المترشح لمكـانه تمهيدا لقواعد خدمته ، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت ، أدناه باديس إليه وأظهر الإغتباط به ، والإستعاض بخدمته عن أبيه» (58).

وقصة ابن النـغريلة في تاريخ الأندلـس كانت فصلا من أهم الفـصول التي امتزج فيها الـدهاء بالمكر ، وبررت فيها الغـاية الوسيلة ، فقد أباح ابن الـنغريلة في مهمـته في قصر باديـس كل شيء ، فقد قتـل خاله أبا الربـيع ابن الماطوني لما مالت إليه أم ماكس (59) . وأبعد كل مـن رأى فيه خطرا عليـه من القصر وألحقـه بوظائف خارج غرنـاطة ، وأوغل صدر الـرئيس على وزيـريه ابن القـروي علي وعبـد الله . وأصبح يولي ويعزل ويغني ويفقر ، إلى أن انتهت حياته بمأساة خص لها الأمير بن بلقين صفحـات عديدة من مذكراته وجاء صدى هذه الأحـداث في رسالة ابن حزم التي خصها بابن النغريلة حيث يقول : «الـلهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا ، بدنـياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصورهم ، يتـركونها عما قريب ، عن عـمارة شـريعتـهم الـلازمة لهـم ... حتـى استشـرف لذلـك أهل القـلة والـذمة ، وانطلقـت ألسنة أهل الكـفر والشرك» (60) . ويقول فـي نفس السياق ، فـي رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، إجابة لـسائل سأله : «وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فـي الأرض بفـساد . والـذي ترونـه عيـانا مـن شنـهم الـغارات عـلى أمـوال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم وإباحتهم لجندهم قطع الطريق علـى الجهـة التي يـقضـون على أهـلهـا ، ضاربون لـلمكوس والجزيـة علـى رقاب

---

58 -الإحاطة ، ج 1 ، ص 438-439

59 - مذكرات ، ص 48 و 53

60 - ابن حزم الأندلسي ، الرد على ابن النغريلة اليهودي [تحقيق احسان عباس] دار العروبة ، 1960 ، ص 45

المسلمين، مسلطـون لليهود على قوارع طريق المسلمين فـي أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام» (61).

وامتهـن من أسلم مـن اليهود بخـياطة الملـف والثياب وظفـر القيطـان ونسج العُـقُل والقـلنصـوات وصبغـها والحـجامة والـدلالة في الأسـواق وإصلاح النـعال المخروزة. أمـا الموالي مـنهم، فـقد اشتـغلوا بصـناعة الـصابون والـفانيـد وتشبـيك الفداوش والشعـرياء والترد والمقروض، وتسفـير الكتب وتزويق الخشـب وتركيب المنـاسج وضرب الـدينار والـدراهم وحلـي النسـاء وفرط الجمـان وخدمة الـزجاج وتـصفـيـة المعـادن وصـناعـة الـقـدور. وتاجـروا فـي الحوت والـشـحوم والأدويـة والأعشاب والصوف والـكتان وآلات الطرب والحلي ومواد التغـذية. ومن الخدمات التي كانـوا يقومون بها، طـبخ الأخباز والإسفنج والـشواء وعصر الزيت وحـملها وتخليص الرباع وتزليجها وخدمة الحمامات وسقاية الماء وكراء الأواني (62).

وكان لـنساء الأندلـس على العـموم، مهن اشـتهرن بهـا أيضا، من ذلـك ما ذكره ابـن حزم في طـوق الحمامـة، إذ كان منـهن الـطبيـبة والحجـامة والسـراقة ؟! والدلالة والماشطة والـنائحة والمغنية والكاهـنة والمعلمة والمستخفـة والصانعات في المغزل والنسيج (63).

ومن الأكيد أنه كـان بالأندلس صناعات كبـرى وتجارة دولية وردت الإشارة إليها في أماكن كثيرة في كتب التراجم والرجال والتواريخ، مما لم نستطع ذكره هنا نظرا لموقع الأندلس الجغرافي وغناها في باطن الأرض وظاهرها، وحوطها ببحرين عظيمين وكونها كانت مراكز لسلطة قوية في كثير من عهودها.

---

61 - نفسه، ص 173

62 - زمامة، ص 55

63 - ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف [تحقيق حسن كامل الصيرفي] المكتبة التجارية الكبرى، 1959، ص 19

إستقلالية أهل الذمة

بنيت هذه الإستقلالية على وثيقة ترجع إلى أيام عمر بن الخطاب ، وهي الوتيقة التي بعث بها القائد عبد الرحمن بن غانم إلى عمر بن الخطاب ، حين صالح القائد المذكور نصارى الشام (64) . ويتضح ، بادئ ذي بدء ، أن نصارى الأندلس لم يتقيدوا ، خصوصا في بداية الفتح ، بجل بنود الإتفاقية . ففي المعاهدة التي وقعت بين عبد العزيز بن نصير و Théodémir (تدمير) ، والتي أمّن فيها ابن نصير تدمير على نفسه وأتباعه ، وضمن له فيها حرية المعتقد ، لم يرد أي تقييد يلزم تدمير ببقية البنود (65) . وظل مضمون المعاهدة ساري المفعول حتى عهد المرابطين والموحدين ، ولم يفرض الفاتحون الإسلام على أهل الأندلس فرضا ، وظلوا يعاملون السكان الأصليين ، نصارى ويهودا ، معاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد . فقد أفتى القاضي أبو عبد الله بن يحيى ، وكان شيخ المفتين بقرطبة (ت 297) ، بإطلاق سراح صبي نصراني أسلم ثم عاد الى النصرانية ، في حين ورد الإفتاء بقتل من ارتد من أولاد المسلمين ، متى بلغ ولم ينفع فيه التأديب . وسوت لفتوى التاسعة ، في أحكام أهل الذمة بين من أنكر نبوة محمد (ص) سواء كان ذميا أو مسلما ، ولم توجب شيئا على اليهودي والنصراني الذي يشهد بأن محمدا (ص) أرسل للمسلمين ولم يرسل إلى أهل الذمة (66) . وجاء في فتوى ابن تاشفين أن الذين أسلموا خوفا يقبل إسلامهم ، وإذا رجعوا عن الإسلام لهذا السبب يعذرون «إذ لا ملامة عليه [من رجع الى النصرانية] في أن يفر من الظلم

---

64 - الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب [إشراف محمد حجي] دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ج 2 ، ص 237-238

65 - lévi-Provençal 2, T.1, pp. 32-33

66 - أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي ، وثائق في أحكام قضايا أهل الذمة [تخريج محمد عبد الوهاب حلاف] المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، 1980 ، الفتوى رقم 1 و 2. وانظر أيضا المعيار ، ج 2 ، ص 344-345

بالخديعة والتلاعب» (67) . ويرجع بروفنسال إسلام الكثير من ساكنة الأندلس الأوائل طواعية ، إلى الهروب من ثقل الضرائب ، بل يرى أن السلطة كانت تفضل أن يحافظ هؤلاء على دينهم ، لأن ذلك يوفر لبيت مال المسلمين دخلا كبيرا (68) . ولا يمكن أن نفهم ثورة مسيحي قرطبة أيام عبد الرحمن الثاني ، على أنها ثورة قام بها النصارى لأنهم أرغموا على ترك المسيحية واعتناق الإسلام ، وإنما يجب أن نفهمها على أنها ثورة المسيحيين الذين أنكروا الإسلام وحقيقة النبي كحقائق مطلقة . والأصل فيما يعرف بقضية الشهداء كان تشكيكا في الإسلام وليس دعوة الى التنصر ، وجل المحاكمين كانوا يحاكمون لسبهم الإسلام والنبي ، وليس لأنهم كانوا يؤدون طقوسهم الدينية (69) . والقضية نفسها ، كما عرضها بروفنسال تفصح عن كبير حرية في أمور الجدل الديني ، كما تبين تحرز القضاة في إصدارهم أحكامهم على المتهمين ، بل تظهر تردد الحكام أنفسهم في الموافقة على هذه الأحكام مما جعلهم يستفتون الفقهاء قبل اتخاذ أي قرار (70) . وما جاء في رسالة Louis le Pieux إلى مسيحيي Merida سنة 828 ، تظلما للخليفة عبد الرحمن وابنه الحكم ، لا يشكو من أي مضايقة دينية ، وإنما كان التظلم من ثقل الضرائب بالدرجة الأولى . وظل المسيحيون يتمتعون في القواعد الرئيسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة باستقلال ذاتي ويطبقون شرائعهم القوطية القديمة على يد قضاتهم وتحت مسؤولية قواميسهم (71) ، الذين كانوا يتمتعون باحترام كبير ، وكانوا من مستشاري الخلفاء في قضاياهم الخاصة ، وفي قضايا النصارى وأحوالهم . ويذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن بن معاوية هو الذي نصب أول

---

67 - المعيار ، ج 8 ، ص 63

68 - Lévi-Provençal 2, T. 1. p. 74

69 - انظر التفصيل في : Lévi-Provençal 2, T.1, pp. 234-239

70 - نفسه 229

71 - الإحاطة ، ج 1 ، ص 106 (هامش 2)

قومس في الأندلس (72) . ويبدو أن القومس كان يرأس جهازا إداريا كاملا مركزه قرطبة وفروعه في الكور. وهكذا فقد كان أهل الذمة في مختلف مدن البلاد وكورها يسيرون أمورهم برئاسة شيوخ من أهل دينهم ذوي حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية . وعليه فإن قضايا الطائفة خلال القرن العاشر كانت تدبر بواسطة موظفين تختارهم الطائفة باتفاق مع السلطة الإسلامية العليا . وكان رأس هذه الإدارة شخص يسمى باللاتينية Defensor أو Protector ، وهو الذي عرف في أدبيات التاريخ الأندلسي بالقومس (Conde Comes) . وكان Exceptor هو الذي يحصل الجباية والضرائب . ويقضي في قضاياهم الشرعية الخاصة بهم ، قاض يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم ، ويسمى باللاتينية Censor . وكان مرجعهم التشريعي قوطي . أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين ، فإنها تعرض على القضاء الإسلامي . ومن قضاة النصارى بقرطبة ، أصبغ بن نبيل ووليد بن خيزران وحفص بن البر (73) . وجاء في المقتبس أن الخليفة الحكم استقبل سنة 360 رسل حلويرة (Elvira) بنت الملك رودمير «فوصل مع العجم من كبار نصارى قرطبة قاضيهم أصبغ بن نبيل وأسقفهم عيسى بن المنصور وقومسهم معاوية بن لب ومطران إشبيلية عبد الله بن قاسم ، يترجمون عنهم» (74).

واستقر كبار أساقفة النصارى بجل مدن الأندلس ، إذ في سنة 329 هـ كلف الناصر لدين الله عباس بن المندر جاتليق إشبيلية ، ويعقوب بن مهران أسقف بجاية ، وعبد الملك بن حسان أسقف البيرة بمهمة فداء محمد بن هشام (75) . وكان القوامس يظهرون الطاعة للسلطة الحاكمة في كثير من المناسبات إذ عندما وصل

---

72 - عامة قرطبة ، ص 149

73 - ابن حيان القرطبي ، المقتبس [تحقيق عبد الرحمن حجي] دار الثقافة ، بيروت ، 1956 ، ص 63-64 . والعامة ، ص 28

74 - المقتبس (بيروت)، ص 21-22

75 - المقتبس ، (مدريد) ص 467

المنصور إلى مدينة عليسة وافاه «عدد عظيم من القوامس المتمثلين بالطاعة في رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا في ملك المسلمين» . وقد أظهر المنصور هذا احتراما لهم وأجزل لهم العطاء «فأجاز هناك القوامس بجملتهم على اقتدارهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم» (76).

وتتجلى حرية التعبد في كثرة الكنائس التي كانت منتشرة في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى . ومن أشهر هذه الكنائس أيام الخلافة ، الكنيسة العظمى بقرطبة Saint-Aciscle ، ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط (Guadimellato (77) . وكان الأمير أحيانا يحضر الصلاة في الكنيسة ، كما فعل أبو عامر بن شهيد (78) ، بل كان قرع النواقيس يبهج سمع أهل قرطبة على الرغم من تشدد الفقهاء في هذا الأمر ببلاد الإسلام (79) . ويذكر الإدريسي أنه كان بالأندلس كنيسة من الكنائس تستقبل الناس وتستضيفهم عادة متبعة ورثها الخلف عن السلف ، وكانت دائما عامرة بالقسس والرهبان ، وبها أموال مذخرة وأحوال واسعة ، وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلاده ، وينفق منها على الكنيسة وخدامها» (80).

ونظرا لهذه الأهمية التي كانت تحظى بها الكنيسة فإنها لم تكن ملجأ النصارى وحدهم ، بل كانت أيضا ملجأ المسلمين وكل الغرباء ، وتعددت فيها الفتاوي التي وردت في كثير من المصادر كالمعيار للونشريسي ، وأحكام قضايا أهل الذمة (81) ، وهي فتاوي غطت جل الحكم الإسلامي بالأندلس ، مما يبين أهمية

---

76 - نفسه

77 - Lévi-Provençal 1, pp. 72-74

78 - النفح ، ج 1 ، ص 345

79 - العامة ، ص 151

80 - نفسه ، ص 152

81 - المعيار ، ج 7 ، ص 73-74 . ج 8 ، ص 59 ، وأبو الأصبغ بن سهل ، الفتوى رقم 8

الكنيسة ودورها الكبير . ونضرب مثالا لذلك بالفتوى التي وجهت الى القاضي أبي الفضل عياض ، عن أحباس حبسها نصارى معاهدة ، على كنيسة لهم ، حيث قال : «وكان القسيسون يستغلونها وينفقونها [أموال التحبيس] في مصالح كنيستهم وما فضل منها يأخذونه لأنفسهم» (82) ، والفتوى الثامنة من فتاوي ابن أصبغ حيث تقول : «وعلى غرار ما يكون الحكم فيما يتعلق بالأحباس التي تحبس على الكنائس والأديرة ، قربى إلى الله تعالى ، فلا يجوز للأسقف إخراجها عما حبست عليه من أجل بيعها ... إذ يبطل كل تصرف من هذا القبيل ... كما هو الحال بالنسبة لأحباس المسلمين على حد سواء» (83).

وإذا تحدثت الأخبار عن هدم الكنائس في الأندلس ، فإن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى وقائع خاصة ، أو عندما تصبح الكنيسة معقلا للثورة على السلطة ، كما جاء ذلك واضحا في كثير من كتب التاريخ مثل الإحاطة والبيان ومذكرات ابن بلقين ، وقد ربطت هذه بين هذم بعض الكنائس وثورة ابن حفصون (84) . وكثيرا ما كانت تنتهي تلك النورات بصلح فلا تمس الكنيسة ويحافظ على حرمتها كما حدث في فتح ماردة (85) . ولو كان هدم الكنائس أمرا متبعا ، ما وجدنا فتاوي تفتي بمنع قرع النواقيس أو التخفيف منه (86) ، ولما أشار الونشريسي في معياره إلى التسامح في بناء الكنائس والحظ على عدم تهديمها (87) . وظل الحفاظ على الكنائس سنة كما سنها عبد الرحمن بن معاوية ، الذي وجد المسلمين يقاسمون نصارى قرطبة في كنيستهم العظمى ، فأوسع لهم البذل في شطرهم ، وفاء بعهد

82 - المعيار ، ج 7 ، ص 73
83 - أبو الأصبع بن سهل ، ص 69
84 - انظر مثلا الإحاطة ، ج 3 ، ص 279
85 - البيان ، ج 2 ، ص 15
86 - ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب [تحقيق ليفي بروفنسال] مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ... القاهرة ، 1955 ، ص 77-80
87 - المعيار ، ج 2 ، ص 214

المصالحـة ، وأباح لهم بـناء كنائسـهم التي كـانت قد هدمت إبـان الفتح وكـذا بناء كنيستهم العظمى خارج قرطبة (88) . وكانت الأناجيل أيضا شائعة الرواج يطالعها النصراني وغير النـصراني . وقد أفاد منها ابن حزم كثيرا في كـتابه الفصل، وكان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم (89).

ظلت سـلطة اليهـود ومقاليـد أمورهم الدينـية الخاصة بهـم بين أيديهـم ، فقد جرت الـعادة عـلى أن تـعين السـلطـة رأس الجالـوت أو الناسـي أو شيـخ اليـهود ، للقضاء في أمـرهم وبتشريعهم ، ويكون هـذا الشيخ نفسه هو الواسطـة بينهم وبين السلطة المدنية (90) ، فقد جاء في فتوى وجهت الـى أبي العتاب ، أن يهوديا ادعى أن عمه حبس عليه جنة ، وقام نزاع حول هذه الجـنة فأفتى ابن العتاب أن لليهودي الحق إذا أراد رفع دعواه على عميه ومحاكمتهما إلى حكم أهل دينهم (91) . وقد تمتع اليهود ، في ظل هذه الحريـة ، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم فـي أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكـان المسلمين (92) . والدليل علـى الزيادة في بناء المعابـد والبيع هو كـثـرة الـفتـاوي المـتـعـلقة بـهـا وقـد جـاءت هـذه فـي نوازل ابـن سـهـل (93) والونشـريسي (94) وغيـرها . كـما كثـرت الفتـاوي أيضـا حول التـوراة والكـتب اليـهودية وقد حـذرت إحدى الفـتاوي شراء الـكتب من الـيهود بـاستثـناء كتبـهم الدينية (95). ومنع ابن عـبد الرؤوف رواج الأخبار الكـاذبة إلا أخبار بني إسـرائيل

---

88 - البيان ، ج 2 ، ص 229 ، وأبو الأصبغ بن سهل ، ص 77-80

89 - انظر مثلا الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ج 2 ، ص 20

90 - مذكرات ، ص 131

91 - المعيار ، ج 7 ، ص 439

92 - أبو الأصبغ بن سهل ، الفتوى رقم 7

93 - نفسه ، ص 247

94 - المعيار ، ج 8 ، ص 58-59

95 - ثلاث رسائل ، ص 57

فلا حرج عليها (96) . وقد أفاد ابن حزم كثيرا من هذه الكتب في مؤلفه الفصل وأخبر أن كثيرا من فرقهم كانت معروفة في الأندلس . ففي حديثه عن فرق اليهود تحدث عن الفرقة العنانية ، وقال : «وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام، وهم بالأندلس بطليطلة وطلبيرة» (97) . كما قال عن مذهب العيساوية : «ولقد لقيت من ينحو هذا المذهب من خواص اليهود كثيرا» (98).

هذه نظرة موجزة في الأندلس ، أهلا ونشاطا وحريات عقائدية وقانونية ، أردنا أن تكون مدخلا لما سنقدم عليه من دراسة في التراث التاريخي العربي والعبري في الغرب الإسلامي ، والله الموفق للصواب.

---

96 - نفسه ، ص 13

97 - الفصل ج 1 ص 78

98 - نفسه ، ص 89



إنسية الإسلام

أصدر صديقنا الأستاذ الكبير مارسيل بوازار Marçel Boisard الأمين العام «لجمعية الإسلام والغرب» التي كنتب أحد مؤسسيها في (جنيف) أوائل الستينات كتابه «إنسية الإسلام» (Humanisme de l'Islam) حيث تحدث بإسهاب وإعجاب عن تطور مسار الحضارة الإسلامية في العالم وكان الأستاذ الفاضل قد وجه إلي كتابه وهو في ملزمته لأخذ رأيي في الموضوع فألفيته حافلا بالوثائق الشيقة عن الفكر الإسلامي وتأثيره في العالم المتحضر وقد تحدث في هذا النطاق عن العالم الثالث فندد بالحس اللاشعوري الذي يخامر الأروبيين إزاء هذا القسم من العالم مهابة واستهوانا فالغرب يخشى هذا الجزء من الكرة الأرضية لأنه لم يدرك أحقية مطالبه ولأنه يجزع من انفلات موارده الثرية من بين يديه وهي مواده الأولية الضخمة وموارده الطاقية وانصب تنديد الأستاذ المحترم على تشبث الغرب ثقافيا بوضعه الحالي ورضاه عن منجزاته المادية الغامرة واستناده إلى قوته العسكرية لفرض وجوده فلذلك يحدوه غروره إلى غض البصر عن الحقيقة وإلى منافرة الإستقامة الفكرية الضرورية لإدراك مدى الحماس الإديولوجي الذي يغامر هذا الفريق الحي من الإنسانية ، فقليل هم أولئك الكتاب المعاصرون الذين يدعون إلى تفتح القانون الدولي الإسلامي لما انبثق عنه الفكر الحديث من تأثيرات إيجابية حول حقوق الإنسان.

إن تجاهل حقائق الثقافات النابعة من التقاليد الإغريقية قد دفع الكثير من رجالات الفكر إلى استنتاجات مرتجلة تتلخص في أن احترام الشخصية الإنسانية نابع من الفكر الغربي في حين أن الموضوعية

التاريخية بل العدالة البسيطة تقتضي التذكير بأن الحضارة التي احتضنت الثقافة في البحر الأبيض المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى هي حضارة الإسلام وقد أصبح معظم الكتاب اليوم يعترفون بهذه الحقيقة ومع ذلك فإن أغلبية من يتحدث عن نشأة القانون الدولي في مداه الإنساني وكذلك الخلق الأممي لا يشيرون إلا لماما لمساهمة الفكر الإسلامي في بلورة هذا العطاء الغامر. أليس الإسلام - مع ذلك - هو الذي تبنى وترجم وشرح معطيات القدامى مع تطعيمها ببصمات عبقريته الخاصة قبل نقلها إلى الغرب المسيحي ؟ ألم يكن ابن رشد وابن سينا - من بين الكثيرين من أمثالهم - هما اللذان تبوءا المكانة العليا في تلقين بدائع الفكر للأجيال الأوربية ؟ إن الفلسفة الإسلامية قد خلصت حتى العبريين من ثقل النظرية التلمودية وذلك عن طريق (موسى ابن ميمون) الفيلسوف اليهودي الذي عاش خلال القرن الثاني عشر الميلادي في أحضان البلاد الإسلامية والذي كان لفكره المقتبس من الثقافة الإسلامية أكبر الأثر في المشاعر الإسرائيلية وا لأوربية معا كل ذلك يؤكد ببداهة أن الحضارة العربية الإسلامية قد ساهمت بوفرة محسوسة في ضمان احترام الشخصية الإنسانية وتركيز العلاقات المثلى بين الأمم والشعوب.

(مقتطفات من كتاب :

«الإسلام والخلق العالمي "L'Islam et la morale universelle"

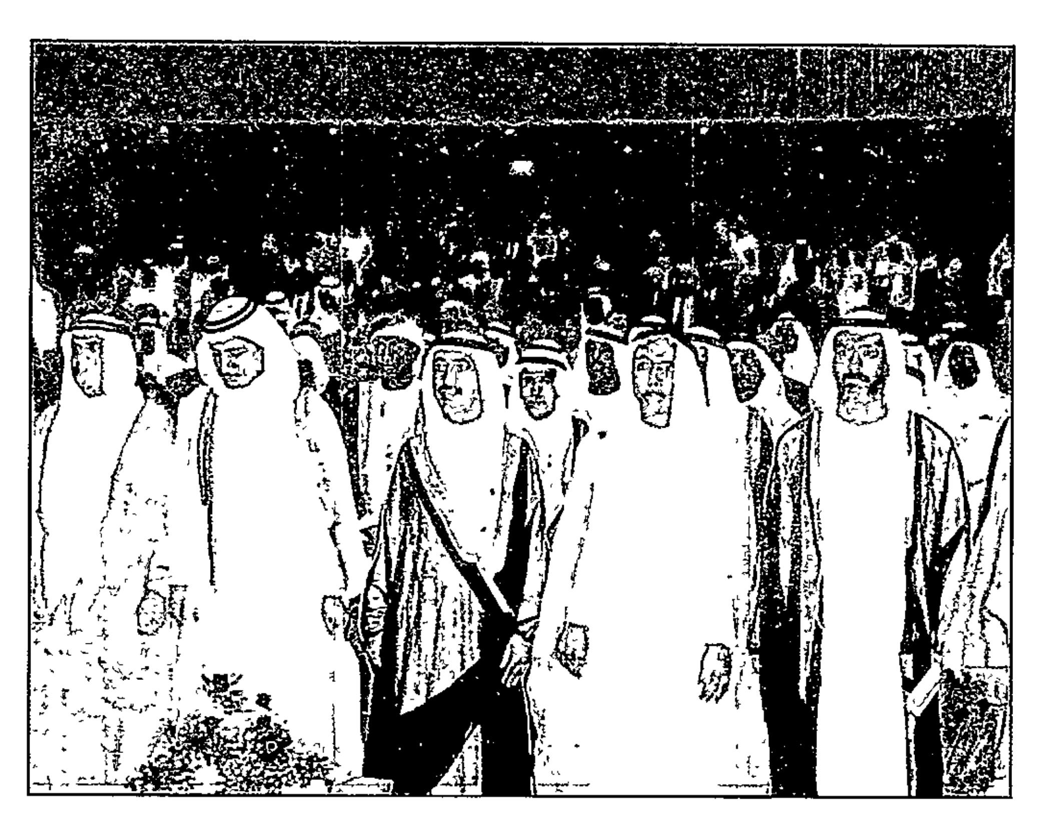
للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

ندوة العدد:

كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور

في الفترة (20 - 22 ذو القعدة 1416) (8 - 10 أبريل 1996

تحت رعاية صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ، رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي ، أقام مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة و المجمع الثقافي ندوة (كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور)



من الأهداف العامة للندوة :

1 - إلقاء الضوء على الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ عصور الإسلامية الأولى حتى عام 1960 من خلال كتبهم وتقاريرهم ومشاهداتهم ووثائقهم .

2 - معاينة واقع المنطقة الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي

3 - الوقوف على القيمة العلمية لهذه الكتابات والتقارير والوثائق بوصفها مصدرا تاريخيا للمنطقة .

4 - تقديم رؤية نقدية شاملة لهذه الكتابات وبيان أثرها لدى القارئ العربي والأوروبي ونتائجها السلبية والإيجابية.

المحاور والبحوث

ناقشت الندوة خمسة محاور يمثل كل محور منها مرحلة تميزت بها هذه الرحلات :

مرحلة العصور الإسلامية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي :

الكتابات الجغرافية للرحالة المسلمين في العصر الوسيط عن خليج : الملاحة التقليدية في الخليج .

مشاهدات بنيامين التطيلي في منطقة الخليج العربي .

مرحلة السيطرة البرتغالية (1500 - 1650)

كتابات الرهبان الأوغسطينيين عن المنطقة من الأرشيف البرتغالي .

حالة البرتغاليون الذين زاروا المنطقة : أعمالهم وأغراضهم ، ومشاهداتهم للواقع السياسي والديني فيها خلال تلك الفترة .

- الآثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي في - الخليج

مقاربة أولية .

جـ - مرحلة التنافس الأوروبي (1650 - 1800 م) :

- تعريف بالرحالة والمبعوثين الأوروبيين وبأعمالهم وأغراضهم وبما تكشف في كتبهم عن المنطقة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .

- خريطة المنطقة السياسية في هذه المرحلة ، من خلال كتابات الرحالة والمبعوثين الهولنديين ونظرتهم الى القوى العربية الفاعلة آنذاك .

د - مرحلة الانفراد البريطاني (1800 - 1918 م)

- التعريف بالرحالة والمبعوثين الأوروبيين والبعثات التبشيرية (الأعمال والأغرض) .

- التحديات الحقيقية والمتصورة للوجود البريطاني في الخليج من خلال كتابات الرحالة والمبعوثين الألمان .

هـ - مرحلة البحث عن النفط (1918 - 1960 م) :

- الامارات العربية في كتابات المبشرين الأمريكيين : دراسة تاريخية وتحليلية .

- المصالح النفطية كما وردت في أعمال الرحالة والمبعوثين الغربيين : دراسة تحليلية .

و - (تقويم كتابات الرحالة والمبعوثين واستخلاص نتائجها) :

- القيمة العلمية لكتابات الرحالة والمبعوثين بوصفها مصدرا لدراسة تاريخ المنطقة .

- الكتابات الحديثة للرحالة الغربيين عن الخليج : تقديم وتقويم

- الرؤية الحالية للمنطقة (واقع وتصورات) .

المحور الأول : «مرحلة العصور الاسلامية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي »

البحث الأول :

« مداخلة شاملة لأعمال الرحالة العرب المسلمين وأسفار الجغرافيين التي قامت بتصوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة»

المحاضر :
(ديونيسيوس البرتوس إيكيوس D.A. Agius)
دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها (جامعة تورنتو)
رئيس تحرير مجلة المساق (دولية للدراسات الإسلامية والعربية في حوض البحر المتوسط)
كندي من مواليد 1945

ملخص البحث :

إن المرحلة الواقعة بين القرنين الثالث والتاسع تتميز بظهور الجغرافية العلمية بين العرب وغير العرب الذين كانوا يحصلون على المعلومات والمعارف من كتب قديمة كتبت بالسنسكريتية أو الفارسية أو الاغريقية . كانت اللغة الإغريقية أكثر عمقا في تقديم الفكر والأساطير . فعند بطليموس (القرن الثاني بعد الميلاد) مثلا يبدو أن الجغرافيا ترجمت عدة مرات وراجعها ثلاثة رواد من الجغرافيين المسلمين : ابن خرداذبة (280 / 893 - 4) والمسعودي 956-345-7 وابن حوقل 977-367-8) وكان الأخيران المسعودي وابن حوقل رحالتين أيضا بالإضافة الى اليعقوبي

(277/891-2) فأخذ هؤلاء يطوفون مناطق ديار المسلمين كلها . وتعد أعمالهم بالغة الأهمية بصرف النظر عن طريقتهم المنهجية في تقديم المعلومات والمعارف الجغرافية . إنهم يقدمون تفاصيل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للشعوب الذي التقى بهم المؤلفون وبذلك أنشأوا نوعا من الكتابة يسمى بأدب شهود العيان . إن شروحات شهود العيان ربما لا تكون بالضرورة تقارير موثقة . وكان هناك دائما خطر من اختلاط الأسطورة مع الحقيقة ، ونسج معلومات للناس الذين كانت تجذبهم القصص الخرافية . إن غنى المحتوى الثقافي لكتاب رحلات ابن بطوطة (779 / 1377-8) مثال جيد على ذلك ولكن كما هو الحال في كتب الرحلات الأخرى يعد مصدرا ثانويا للمعلومات المهمة .

إن الغاية المتوخاة من ورقة العمل هذه هي بمثابة تحقيق في أهم أعمال الجغرافيين والرحالة الذين كانت دوافع رحلاتهم وشروعهم بالكشوفات سببا في خلق فجوة واسعة في المعلومات من حيث الخلط بين التاريخ والجغرافيا مخلفة بذلك قاعدة يمكن على أساسها تحليل الوضع الاقتصادي والاجتماعي في الخليج .

البحث الثاني :

«مشاهدات بنيامين التطيلي في منطقة الخليج العربي»

المحاضر :

حمد محمد جمعة بن صراي

دكتوراه في التاريخ (جامعة مانشستر 1993)

المستشار الثقافي لسمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي ولي عهد حاكم رأس الخيمة ونائبه

إماراتي من مواليد رأس الخيمة 1963

ملخص البحث

ولد بنيامين في مدينة تطيلة بالأندلس ولكن لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد ، وبدأ رحلته عام 1159 أو ربما عام 1167 ، وعاد الى الأندلس في عام 1173/1172 . هدف رحلته غير معروف بالتحديد ، ولكنه من المحتمل أن يكون تاجر سلع نفيسة كالجواهر والأحجار الكريمة والمرجان ، إذ كان في كثير من الأحيان يبدي اهتماما كبيرا بها ، مع تركيزه على الجوانب الاقتصادية في المناطق التي يمر بها مما يوحي أنه كان تاجرا ، وأغلب المعلومات الواردة في رحلة بنيامين تعتمد على مشاهداته وتجاربه الشخصية خلال رحلته الطويلة .

أعطى اهتماما خاصا ووصفا دقيقا للجانب التعليمي والعلمي والعلماء وتنظيم المعابد وأداء الطقوس الدينية عند اليهود في المناطق التي زارها مثل بغداد وفلسطين ومصر وقبرص . كما اهتم بالجوانب الاقتصادية والجغرافية للأماكن والجاليات اليهودية التي مر بها ، وعرف يهود أوربا أو على الأقل يهود اسبانيا بأوضاع إخوانهم في المناطق التي زارها وبالذات بلاد الشرق .

وفي أثناء زيارته لمنطقة الخليج أشار الى اقليم خوزستان ، وتحدث عن مدينة البصرة ويهودها، ووصف الغوص في إقليم القطيف ، كما أشار الى أعداد يهود القطيف . ومر بنيامين بجزيرة فوصفها ووصف نشاطاتها الاقتصادية والتجارية ، وذكر يهود الجزيرة وأعدادهم .

المحور الثاني : «مرحلة السيطرة البرتغالية 1500 -1650 م »

البحث الأول :

« الأسفار كما شرحها اتباع القديس أوغسطين»

المحاضرة :

ماريا دو كارمو دياس فارينا Maria Do Carmo Farinha
ماجستير في التاريخ (جامعة لشبونة)
مديرة خدمات المحفوظات في تور دو تومبو (مركز المحفوظات الوطني) - البرتغال

ملخص البحث

إن الأرشيف الوطني في تور دو تومبو يحتفظ ببعض المجموعات التي نجد فيها وصفا نادرا للرحلات في منطقة الخليج . بعض هذه الشروحات كتبها الرهبان عند مرورهم ببعض المدن والقرى ، وكتب بعضها الآخر التجار الذين كانوا ينتقلون من مكان لآخر بقصد التجارة في مثل هذه الشروحات يمكننا العثور على تعليقات ممتعة حول السكان وعاداتهم ، وعن الأرض وخصوصياتها ، وعن الحكام وتحالفاتهم المرحلية .

يمكن أن نجد وصفا للرحلات كتبها اتباع القديس أوغسطين يضمها كتاب «ذكريات الرهبان» . وكتب أحد هذه الوصوف الراهب سيباستيو دو ساو بدرو الذي أبحر عام 1592 من جاوة الى هرمز ، بعد عبوره جزيرة مصيرة رسى مركبه على الشاطئ بسبب عاصفة هوجاء ، مكث بعض الوقت في مدينة صور مع رفاقه يحاولون الحصول على زورق ينقلهم الى هرمز . عندما أخفقوا في الحصول على الزورق المطلوب توجهوا برا الى طيف . وهناك أعطاهم شيخ صور مركبه (وكان زورقا صغيرا) الذي

استخدموه للوصول الى مطرح ، في طريق رحلتهم هبت عليهم عاصفة أخرى رفعتهم الى شاطئ سويقة ومن هناك تابعوا رحلتهم برا الى صحار ، ومنها ذهبوا الى ليما القريبة من رأس مسندم ومن هناك توجهوا الى هرمز.

إن وصف الرحلة البرية يتضمن معلومات غريبة عن المنطقة وسكانها . تتناول ورقة العمل هذه تحليلا لهذه المعلومات .

البحث الثاني :

« االرحالة البرتغاليون في الخليج في القرنين السادس عشر والسابع عشر

المحاضر :

أنطونيو دياس فارينا Antonio Dias Farinha
دكتوراه في التاريخ (جامعة لشبونة)
برتغالي من مواليد 1940

ملخص البحث

في عام 1489 قام بيرو دو كوفيلا بزيارة منطقة هرمز ضمن مهمة أرسله بها الملك البرتغالي جون الثاني الذي كان مهتما بجمع معلومات أكبر عن تجارة التوابل في الشرق لمعرفة كيفية الوصول الى هناك وإقامة تحالفات واعتماد مندوبين هناك .

بعد رحلة ڤاسكودي جاما الى كالكوتا (1497-1499) بقي البرتغاليون في منطقة الهند عدة قرون . وبقيادة أفونسو البوكيرك أخضعوا هرمز ومسقط وصحار ومدنا أخرى ، وبقوا يحكمون مملكة هرمز حتى عام 1622 ، واستمروا في مسقط حتى عام 1650 ، وأقاموا في الكونج بصفة

تجار حتى بداية القرن الثامن عشر.

خلال هذه الفترة اكتشف البرتغاليون المنطقة، وتنقلوا في جميع الاتجاهات، وجمعوا معلومات، وحكموا عدة شعوب، وبالتالي كانوا يكتبون عن رحلاتهم ويدونون شروحاتهم ووصفهم عن المنطقة والسكان والحكاموالتجار والحياة العامة. يمكن أن نعد هذه الوثائق أقدم وثائق في تاريخ المنطقة بمثل هذه التفاصيل.

نحن ندرس توم بيريز وديوارت باربوزا وانطونيو تيزيرو وجاسبار كوريا وجاو دو بارس وبراس البوكرك وانطونيو جودنيو ونيقولا أورتا ريبليو وآخرين ندرس التقارير والوثائق كما كتباها أفونسو البوكرك وبيرو البوكرك (وهو أول قائد برتغالي في هرمز) وكتابا أخرين.

البحث الثالث:

«الآثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي بالخليج العربي "مقاربة أولية"»

المحاضر:

محمد زروق
دكتوراه في التاريخ
مغربي من مواليد 1950

ملخص البحث

لكي يتسنى لنا فهم طبيعة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي بالمنطقة لا بد من النظر إليها نظرة شمولية، لأن هذا الوجود يدخل ضمن نطاق الاستراتيجية العامة للسياسة الخارجية البرتغالية،

وبالـتالي فإنـه يمثل فـي الحقيـقة حلقـة من حلـقات تكـوين الامبراطـورية البرتغالية التـي ابتدأت من المغرب وانطلقت الى افريقيـا ، فالخليج العربي ، فآسيا ، ناهيك عن العالم الجديد (البرازيل) .

المحور الثالث :
«مرحلة التنافس الأوربي 1650 - 1800 م»

البحث الأول
«مراجعة لأعمال الرحالة والمبعوثين الأوربيين ووصفهم للبيئة الاقتصادية والاجتماعية في الخليج العربي ما بين 1650 - 1800 »

المحاضر :
كالفن هـ ألن ج ر Calvin Allen
دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط (جامعة واشنطن 1978)
أستاذ مساعد في جامعة ميمفيز

ملخص البحث

مع انتهاء الهيمـنة البرتغالية على المحيط الهنـدي ودول الخليج العربي في مـنتصف الـقرن السـابع عشر ، سـرعان ما أصبـح الخليـج مثار اهتـمام الهـولنديـين والفرنسـيين والبـريطانـيين وتنـافسهم مـن أجل الوصـول الى الأسواق الـفارسية والـعربيـة والسيطـرة عليهـا . ظهرت هـذه المنافسة من خلال الـصبغـة الدولـية للـرحالة والمـبعـوتين الذيـن زاروا المنطـقة وتـركوا

شروحا للحالة الاقتصادية والاجتماعية التي واجهتهم ، بينما كانت التجارة الدولية هي نقطة الارتكاز في شروحات الرحالة الفرنسيين مثل تاڤيرنيه ، وتشاردان ، ومارتن في فترة 1660 . وفي «التقرير التجاري في الجزيرة العربية وبلاد فارس» الذي أعده كل من مانيستي وجونز عام 1790 ، قام الأوربيون أيضا بتقديم بيانات قيمة عن النشاطات الاقتصادية المحلية مثل صيد اللؤلؤ والمكانة الاقتصادية المتنامية لشط العرب في منطقة الخليج ، ولاقت الأوضاع الاجتماعية اهتمام أولئك الرحالة ، بالإضافة الى اهتمام رحالة آخرين مثل كاري ونيبور وهاملتون ، كما أعير اهتمام خاص للتجمعات المسيحية واليهودية والهندوسية التي كانت قد أصبحت جزءا مكملا للجنسيات العالمية المقيمة في الخليج ، بالإضافة الى تنوع الجماعت الإسلامية المقيمة هناك .

البحث الثاني : «فترة التنافس الأوربي»

المحاضر :

ب . ج. سلوت Ben J. Slot
دكتوراه فلسفة (جامعة ليدن)
رئيس قسم المكتبات والمخطوطات في الإدارة العامة لمكتبات الدولة في هيج
من مواليد 1941

ملخص البحث

ما بين عامي 1600 و 1800 يتوفر كم كبير من العلومات عن أحداث الخليج . إن وجود البرتغاليين حتى عام 1728 ، ووجود البريطانيين

والهولـنديين بالإضافـة الى المحاولات الفرنـسية المتـكررة للمشـاركة ، كل ذلك يطرح وجهات نظرات متعددة ومتباينة .

هنـاك وصف الرحـلات ، وسلسـلة التـقاريـر الحاليـة من المؤسـسات الزوربيـة في الخليج ، والـعديد من الوثـائق ذات الصلـة والمتوفرة بكـميات كبـيرة ، مـنهـا عدة آلاف مـن الصفـحات تـتضـمن الوثـائق الـبريـطانـية ، وعـشرات الآلاف مـن الصـفحـات تتـضمـن الوثـائق الـهولـنديـة ، وآلاف معدودة من الصفحات عن الوثائق الفرنسية والبرتغالية .

تركـز الوثائـق الـبريطانـية والهـولنـدية بشـكل خاص عـلى الجـانب التـجاري لـهذه الـدول مع جـانب لابأس بـه من المـعلومات عـن الأنشـطة السياسـية التي كانت تمـارس لحماية تجارتهـم . فالبيانات الـبرتغالية تـتسم بشكل رئيسـي بالطابع العسكري وكيفيـة الاحتفاظ بالبقية الباقـية للنفوذ البرتغالي والتركـيز على الصراع مع عمان . بينما تغطي الـوثائق الفرنسية الى درجـة كبـيرة المحـاولات التـي تمت لـطرد الـبريـطانـيين أو الـهولـنديـين بمساعدة القوى المحلية .

إن النـصوص القلـيلة التـي كتبهـا المراقبون مـن جنسيـات أخرى لا تقـدم وجهة نظـر مختـلفة . فهـي عادة ترتبـط بآراء الأوربيـين المقيمـين في الخليج : إن بالـبي الفينيسي يعرض وجـهة النظر البرتغالـية ، وأولياريوس الألماني متحمس لمجمـوعة المعرضة الهـولندية ، ونيـبور الدانماركي يـعكس رأي الموظفين الهولنديين والبريطانيين في الخليج .

والتـصورات الـرئيـسيـة هي أن الـشهـود الأوربيـين كانـوا جزءا مـن مجتمع بدأت فيه المعلومات تنتشر بحرية وسرعة كبيرتين . ومعظم المصادر الأوربية هي ببساطـة معلومات مستقاة من أوساط حركـة حركة العمل بين

المكتب الرئيسي في أوربة أو مكان ما في آسيا والمكاتب الفرعية في الخليج . في حين أن نوعية هذه المعلومات لها محدوديتها وتنطوي على انحياز ضمني فيجب أن يفترض المرء بأن الهدف من توثيقها هو تقويم معلومات نزيهة . لا يوجد أي إشارة للتشويه والتحريف من أجل أغراض الدعاية عندما ننظر من معطيات عام 1900 ، ولكن يوجد الكثير من التحريف (لايوجد ما يؤكد أو ينفي صحتها) يعود عادة الى الصراع على المصالح الاقتصادية .

إن البيانات الاقتصادية التي أوردتها المصادر الأوربية ذات قيمة محدودة في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت معظم التجارة الدولية في الخليج تحدث خارج حدود المنظور الأوربي . وبقدر ما قدم الأوربيون وجهات نظر عامة عن الموقف الاقتصادي فيجب أن ينظر إليها بتحفظ .

ما يجدر ملاحظته هو أن هدف المعلومات في ذلك الحين لم يكن تشويها موجها ضد العرب بشكل خاص . يوجد بعض التنسيق في السياسة الأوربية التي وجدت نفسها تجابه موقفا ضعيفا جدا : بقيت الادعاءات الإيرانية بالسيادة غير واقعية ، ومحاولات العثمانيين للاحتفاظ بموضع قدم في البصرة بقيت راهنة ، وظهور العديد من القبائل والدول العربية التي ارتبطت أو تجزأت بفعل تحالفات مستمرة التغيير .

إن المعلومات الحقيقية والثابتة عن الوجود الغربي في الخليج في هذه الفترة هي نادرة تماما، على الرغم أن المرء يجب أن يحاول جمع المراجع القليلة والمتوارية في ملفات المراسلات التجارية وشروح الرحالة بشكل رئيسي . إن الصورة التي تظهر من مثل هذه المضاربة تشير الى التطور التدريجي لوضع القبائل العربية .

إن قيمة المعلومات الأوربية هي في كونها تقدم إطارا زمنيا لتحديد الأهداف الفردية . يمكن في هذا الإطار أن يرى المرء تنامي الفعاليات السياسية العربية التي ازدهرت في عصور تالية وارتفاع وهبوط البناء الاقتصادي العربي الذي لم يتمكن من الازدهار بسبب المتغيرات الاقتصادية في آسيا في نهاية القرن الثامن عشر .

المحور الرابع :
«مرحلة الانفراد البريطاني 1800 - 1918 م»
البحث الأول
مقتطفات أعمال الرحالة والمبشرين (1800 - 1919)

المحاضر

فؤاد شعبان
دكتوراه في اللغة الانكليزية (جامعة ديوك ، دورهام 1965)
مساعد وكيل الجامعة لشؤون الأبحاث (جامعة الإمارات)

سوري من مواليد 1935 م

ملخص البحث

شهد القرن التاسع عشر تزايدا مهما في عدد الأوربيين وخاصة البريطانيين والأمريكيين الذين توافدوا على العالم العربي . وتدل كثير من المؤشرات على هذه الحقيقة ، ومن بين هذه المؤشرات كتب الأسفار (أو الرحلات) التي دونت وطبعت في القرن التاسع عشر .

إن النـظرة التـحليـلية لـهذه الأعمـال تكشـف عن أكثـر من الاهتـمام السياحي الـشكلي بالمنطقة . عـلى الرغم أن الكثير من الـرحالة جاءوا الى المنطقة بـقصد السياحة ... بشكـل عام كانوا يعدون سفرهـم رحلة حج من نوع مـا ، يدفـعهـم الى ذلـك إما عـوامل ديـنيـة ، وسيـاسيـة ، واقتـصاديـة واجتماعية أو جملة من هذه الدوافع .

كانت المنطقة بالنسبة للمبشـرين ، تمثل لهم دائما قيمة دينية خاصة ، بوصفها مهد المعتقدات اليهودية والمـسيحية . وكانت في الوقت نفسه تمثل التحدي الكبير لـتحويل معتقدات معتنقي الدين الآخـر الرئيسي والوحيد في العالم .

كان الشرق وشـبه الجزيرة العربية مـن وجهة نظر السياسـة الدولية ، مركزا اسـتراتيجـيا للمـنافسة الحـادة بين القوى الـعاليمـة . وأظهر الرحـالة اهتـماما حمـاسيا في هـذا التنافـس . وقد وضعـوا في أعمالـهم مخطـطات تفصيلـية رسموا فيها الصـورة المستقبلية للـمنطقة ومصير شعوبها . وفي معظـم هذه المخططات كـان المؤلفون يكشـفون عن علم مـسبق ونوايا سـيئة نحو العرب والمسلمين .

ما هـي النزعات والأفـكار الموروثة الـتي سيطـرت على آراء الرحـالة الغربيين بعدما طافوا في أنحاء الوطن العربي وشاهدوا شعوبه ؟

هذه الورقة ستكشف النقاب عن هذه الآراء عن طريق تحليل الأعمال التي كتبها بعض الرحالة الذين جاءوا الى المنطقة في القرن التاسع عشر .

البحث الثاني

«تحديات حقيقية وملموسة للمكانة البريطانية في الخليج»

المحاضر :

فراوكة هيردبي Frauke Heard-Bey

دكتوراه في التاريخ (جامعة برلين 1967

مركز الوثائق والبحوث في أبو ظبي

ألمانية

ملخص البحث

خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وعلى مر السنين التي انتهت بنشوب الحرب العالمية الأولى ازداد اهتمام بريطانيا بألمانيا بالإضافة الى اهتمامها بالتهديد الاقتصادي والسياسي الذي تشكله كل من فرنسا وروسيا لمكانتها في الخليج .

إن تحركات الرحالة الألمان بالإضافة الى رجال الأعمال والدبلوماسيين كانت ترصد بحذر شديد . لذلك فإن رحلات الكونت ماكس ڤون أوبنهايم التي شرع بها بدور الاعداد لحملات منظمة ومبرمجة الى افريقيا والتي ساقته الى الخليج عام 1893 اعتبرت فعليا بأنها الخطوة الأولى من الجهود الرامية لتقويض السيادة البريطانية في المنطقة . التحق أوبنهايم بمكتب الخارجية الألماني عام 1896 ليعمل ملحقا في القاهرة وحالما أصبح السلطة الرئيسية الأولى في بلدان الشرق الأوسط وشمال افريقيا .

لكنـه استقال مـن الخدمة عام 1910 لأنه أراد أن يـنصرف الى اهـتمامـاته بالآثـار وعلومـها . فـي أثناء الحـرب استدعـي للعـودة الى الـقاهرة لإنـشاء مكتب للمعلومات والدعاية فأثار غـضب السلطات البريطانية . بعد الحرب بمدة طويـلة حين انصـرف أوبنهايم كـليا الى اهتـمامه الخاص بـالتنقـيب عن الآثار في سـوريا وبمتحفه فـي برلين استمـر البريطانـيون بملاحقته عـلى أنه جاسـوس متنـكر . مع هذا فـقد كرس أيـام عمره الأخـيرة للعـمل الفـكري والكتابة عن قبائل البدو لـذلك كان يتردد اسمـه دائما بصفته المـستشرق وليس دبلوماسيا أو رجل سياسة .

إذا كانت رحلات أوبنهايم في المنطقة أثارت حـفيظة البريطانيين فـإن حضـور وليـم ڤاسموس أثار غيظهـم وسخطهم . على مدار أكـثر من ثلاث سـنوات حـاول هذا الـدبلـوماسـي الألمانـي بنـجاح تـام أن يتـصدى لـلمد العسـكري والدبلومـاسي للبريـطانيين فـي جنوب إيران خلال الحـرب التي امتدت بين عامي 1914 و 1918 وبعد نجاته من الأسر سيطر ڤاسموس على الطـريق الوحـيد الواصـل بين الساحـل وشيراز واسـتنكـر حرية تحـركات القوافل العسكرية البريطانية بمساعدة سكان طانجستان والقبائل الأخرى في المنطقة .

بعد ذلك بمـدة طويلة القي القبـض عليه أخيرا وأخذ أسـير حرب الى ألمانيا المحتلة . وبقيت أسطورة «لورنس إيران الألمان» يتداولها الناس .

إن أوبنهايم وڤاسموس شخصيتان جذابـتان اكتسبتا وبشكل متوافق مكانة في سجلات تاريخ الحرب العالمية الأولى .

في هذه الـورقة أعير اهـتمام خاص للـمقارنة بـين المصادر الإنجلـيزية والألمانية .

المحور الخامس :
«مرحلة البحث عن النفط 1918 - 1960 م»

البحث الأول
«الإمارات العربية في كتابات المبشرين»

المحاضر
فاطمة حسن الصايغ
دكتوراه في التاريخ (جامعة إسكز 1989)
أستاذة في كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية (جامعة الإمارات)
إماراتية

ملخص البحث

شهدت الإمارات منذ نهاية القرن التاسع عشر توافد أعداد كبيرة من المبشرين الأمريكيين الذين توافدوا على منطقة الإمارات ضمن نشاطهم التبشيري والمتمحور في منطقة عمان والبحرين . وكان هدفهم جعل الإمارات نقطة ارتكاز تبشيري لمنطقة وسط شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج الأخرى . واستخدم المبشرون في وصفهم للإمارات لفظ «ساحل القراصنة» ، وهو اللفظ السائد في الوثائق الإنجليزية القديمة ، أو ساحل عمان ، وعدوا منطقة الإمارات جزءا من عمان الساحل . وامتد نشاط المبشرين من محطاتهم في البحرين وعمان الى مدن الإمارات جميعها . فزاروا مدن الإمارات وقراها بدءا من الشارقة ودبي وأبو ظبي ومرورا

بالحمرية وعجمان وانتهاءا بالبريمي .

وقد ركزت تقاريرهم على وصف للحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك ، وهو الوصف الذي كان شبه غائب عن التقارير البريطانية، لذلك تعد التقارير الأمريكية ضربا من ضروب الأدب ومصدرا من مصادر المعرفة لحياة الإمارات القديمة من جميع جوانبها .

كانت أهداف المبشرين واضحة ؛ الا وهي نشر الدين المسيحي بين الأهالي . لكن اختلفت طرقهم ، فلجؤوا الى سبل عديدة لإقناع السكان بدعوتهم، بدءا من استخدام التطبيب كوسيلة للتبشير ، وانتهاء بنشر التعليم الذي يعد وسيلة مهمة لتوصيل «رسالة المسيح» للمعتنقين الجدد . وعلى الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها المبشرون على مدى سبعين سنة إلا أن فشلهم في تحقيق أهدافهم الدينية كان واضحا ... فلم ترد في تقاريدهم أي إشارة لمعتنقين جدد . أما نشاطاتهم الأخرى فقد لاقت الترحيب من قبل الأهالي نظرا لغياب الخدمات العامة كالصحة والتعليم . ونجحت هذه الإرساليات في توجيه نظر الحكومة الأمريكية ومن ثمة الشركات البترولية الأمريكية فيما بعد إلى أهمية هذه البلاد كمنطقة حيوية للاقتصاد الأمريكي .

البحث الثاني
«الأطماع النفطية وأعمال الرحالة الغربيين "دراسة تحليلية موجزة"»

المحاضر

حسام م. مهدي

دكتوراه فلسفة في الفكر المقارن (جامعة غلاسكو 1992)

مصري يحمل الجنسية البريطانية من مواليد 1960 م

ملخص البحث

اختلفت الأسباب التي دفعت الرحالة الغربيين بالتوجه الى منطقة الخليج العربي . كان بعضهم يبحث عن المغامرة بينما ذهب آخرون لأغراض البحث والدراسة ، وبعض الرحالة كانوا يتوجهون بدوافع عسكرية أو تجارية أو سياسية . ازدادت أعمال هؤلاء الرحالة وتراكمت لتشكل مجموعة من الكتابات والتصورات ساهمت في زيادة معرفة الأوروبيين بالمنطقة . استثمرت هذه المعرفة في فترات مختلفة لضمان الأطماع الغربية في الخليج العربي وحمايتها في نهاية الحرب العالمية الأولى كانت أطماع الغرب الرئيسية منصبة على البترول . نتج عن هذه المطامع جيل جديد من الرحالة الغربيين الى الخليج العربي وهم رجال النفط .

فمن جهة كان رجال النفط من الرحالة الغربيين ذهبوا الى الخليج العربي وعملوا هناك عدة سنوات ، ومن جهة أخرى كانوا جزءا لا يتجزأ من صناعة النفط الدولية في القرن العشرين ، وكان تأثير إقامتهم وعملهم

في المنطقة بسيطا على السكان المحليين وعلى ثقافتهم .

إن الفترة الممتدة من عام 1918 الى عام 1960 شهدت زيادة مثيرة في أهمية نفط الخليج العربي . كما شهدت الفترة ذاتها عدة أحداث رئيسية وحاسمة في الوضع السياسي والاقتصادي في المنطقة والعالم ، منها سقوط الأمبراطورية العثمانية ، والحرب العالمية الثانية ونهاية عصر الاستعمار الأوروبي . لعبت هذه الأحداث دورا هاما في تحريك الأطماع البترولية في المنطقة ، وبالتالي ارتبطت كتابات رجال النفط عن الخليج العربي ارتباطا وثيقا بالأحداث التاريخية التي جرت في هذه الفترة المضطربة .

إن الهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على خصائص سجلات رجال النفط وقيمتها إذا ما قورنت بسجلات الرحالة التقليديين عن منطقة الخليج العربي . وأعد البحث الرئيسي لورقة العمل هذه من سجلات شركة البترول البريطانية في جامعة وارويك

تقويم كتابات الرحالة والمبعوثين واستخلاص نتائجها

البحث الأول :

«مؤلفات الرحالة الغربيين ...

هل هي مستندات تاريخية موثوقة ؟ »

المحاضر :

ديل ف. ايكلمان Dale F. Eikelman
أستاذ العلوم الانسانية والعلاقات البشرية في جامعة دارموث

ملخص البحث

إن الكتابة عن الرحلات شكل من أشكال الكشوفات وترتيب العالم، وتجعل المجتمعات والشعوب خارج حدود الوطن منفتحة في التصنيفات الاعتيادية . حتى عندما يكتب الرحالة والباحثون عن اللامعقول ، فهم وقراؤهم ينظرون من خلال التصنيفات الاعتيادية . لذلك قام السفير المغربي محمد الصفار بصياغة تقريره الذي أرسله للملك عن العادات الاجتماعية والسياسية في باريس عام 1840 معتمدا على الرحلات التقليدية ، متأثرا بالإطار الذي كتب به سلفه ابن خلدون والكاتب المصري المعاصر الطهطاوي . تعتمد الروايات الغربية بالطريقة نفسها على المعرفة الضمنية أو الإدراك الحسي . لذلك يفترض أن الذين يكتبون من خلال انطباعاتهم نادرا ما يكونوا مدركين تماما لصياغة مشاهداتهم وتحديدها وملاحظة دلالاتها بدقة ، خصوصا وأن كتب الرحلات عن الخليج العربي مثل تقارير البعثات والممثلين السياسيين لشركة النفط في القرن العشرين وتقارير قوات المعاهدة الأوربية غالبا ما كانت هذه الكتابات من حيث المبدأ تفتقر الى الإحساس بالبعد الثقافي والتاريخي للصورة النظرية الحقيقية . وعدت هذه الكتابات مجرد سرد روائي أو مجرد تقارير فعلية ومباشرة وأن مضامين هذه التصنيفات وصياغة هذه الروايات تكشف الكثير من المفاهيم المتباينة في الوصف والتداخل والهيمنة والانتداب واستنباط صور للجانب الآخر .

تقوم هذه المقالة بتحليل الروايات النموذجية للرحالة الأوربيين والبعثات العسكرية وخبراء العلاقات المحلية لشركة النفط وكيف انتقل أصحاب هذه الروايات بالشكل والمضمون والقارئ على حد سواء من القرن السادس عشر الى عام 1960 . وتناقش المقالة انتقال أولئك الذين يسافرون حول

مجتمع الخليج وتحدث عن الفجوة السياسية والاجتماعية بين العواصم الأوربية (وتشمل البرتغال وبريطانيا وفرنسا) وبين الخليج العربي ... فالأسلوب البياني الحديث لـ «التاريخ الطبيعي» في معجم لوريميه الجغرافي على سبيل المثال يوازي نظرة المساح الطبوغرافي : سلب عرب الخليج وحكامهم من القدرة على التطلع الى الإمام أو التأثير أو التغيير. هذا يتناقض مع فترة سابقة كان فيها الاستعمار الأوربي أقل أمنا وفترة لاحقة ازدادت فيها مناهضة هذا الاستعمار ... وعلى وجه الخصوص يحدد هذا الوصف أهمية النقلات السريعة من عام 1948 مرورا بعام 1960 في شكل تقارير شركة النفط والتقارير السياسية ومضمونها ، باعتبار أن عرب الخليج وحكامهم أصبحوا أكثر إدراكا وفهما لفعالية التقارير الاقتصادية والسياسية السرية وتأثيرها ، وأخذوا يبحثون عن صيغة توظيفها لمنفعتهم الخاصة .

البحث الثاني :

«تغيير صورة المجتمع العرفي في الخليج في أدب أسفار الغرب»

المحاضر :

حسين محمد فهيم

دكتوراه في الأنثربولوجيه الثقافية (جامعة كاليفورنيا - بيركلي 1968)

أستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية (جامعة الإمارات) .

ملخص البحث

شهد أدب الرحلات مؤخرا اهتماما جديدا ونشاطا حيويا من قبل قطاع عريض من الاختصاصيين أكثر من قبل . هذه الثروة العظيمة من

نصوص الأسفار ووثائق الرحلات أثبتت أنها مصدر مفيد للمعرفة . وأصبح علماء الاعراق مدركين الآن أكثر لثراء المعلومات في كتب الرحالة. واتضح أنه بسبب انتشارها بين القراء تتجه كتب الرحلات لتكون أكثر تأثيرا من الأعمال الاثنوغرافية للمستشرقين في رسم إطار لتفاهم الناس بعضهم مع بعض وتثبيت صور دائمة للشعوب والثقافات الأجنبية .

وإذا نظرنا الى المسألة من وجهة نظر عالمية ، فإن العالم الآن على عتبات دخول الألف الثالثة من تاريخ الحضارة الإنسانية .

إن نظرة جديدة لصورة كل مجتمع في عيون الآخرين هي ضرورة كجزء من الطقوس المطلوبة للتحول الهادئ في عالمنا والانتقال الى حقبة جديدة من التحدي . تواصل بعض المتغيرات الرئيسية في النظام العالمي تقدمها . وازداد تأثير الأعراق والدين والانتماء القومي أكثر مما كانت عليه من قبل . في هذا الوقت الذي تزايد فيه تطور قنوات الاتصال فإنه يجب إعادة النظر في الصور الأثنوغرافية للشعوب وثقافاتها .

لذلك فإن أبحاث التصور والدراسة تلقي اهتماما خاصا من قبل العديد من الخبراء على اختلاف اتجاهاتهم .

من خلال هذا الفهم الفكري ، تصف ورقة العمل هذه كيف ولماذا تتبدل التصورات الغربية للمجتمع الغربي في الخليج كما يعكسها أدب الأسفار منذ بداية هذا القرن حتى الآن .

البحث الثالث :

«البحث عن النفط 1918 - 1960 م
رؤية شمولية جديدة لحقائق المنطقة»

المحاضر :

جوليان مورثي ووكر Julian Walker
دبلوماسي متقاعد
انكليزي من مواليد لندن 1929 م

ملخص البحث

ما بين عامي 1918 و 1960 كانت البيئة الاجتماعية لمنطقة الخليج قد توقفت عن كونها منطقة قبلية ، وأصبحت واحدة من دول النفط الإقليمية. كانت خطوط التغيير الأساسية هي التي تسود المنطقة كلها ، ما عدا بعض الفروق التي سببتها عوامل محلية . كانت التغيرات التي طرأت على الساحل المهادن أكثر تعقيدا ومتأخرة عن شمال الخليج .

في عام 1918 تم تقسيم سكان الساحل الى ثلاث مجموعات : سكان المدن ، القرويون ، البدو . كانت تجارة اللؤلؤ تتحكم بالحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكانت الصحراء القاحلة قليلة العطاء . لكن رجال القبائل الذين سكنوها كانوا يتمتعون بأهمية كبرى ، واعتمدت قوة الشيخ على عدد الرجال الذين يلتفون حوله لمؤازرته وقت المحن ، وغالبا ما كان الحكام في المدن أكثر فقرا من التجار ، كانت سلطتهم معرضة للانقلابات المستمرة .

وأدى انهيار تجارة اللؤلؤ في نهاية العشرينات الى الشدائد والفقر ، ولكن معاناة الحكام الذين يتنعمون بعائداتهم من الجمارك ومعاهدات الامتياز ، كانت أقل من معاناة التجار . انخفض الأمن في الداخل ، وتفككت الروابط القبلية ، وتكاثرت الهجمات على التجمعات السكنية الساحلية لتزيد من وثيرة المعاناة ، وانتشرت تجارة التهريب والرقيق .

أطالت الحرب العالمية الثانية من نفوذ البدو ، كما شهدت نفوذا بريطانيا متزايدا . وبعد الحرب بدأت هجرة العمال الى حقول النفط في شمال الخليج ، وتوغلت شركات النفط الى الداخل ، ودعمت مواقع الحكام، وضعف نفوذ القبائل ، وحازت المناطق الصحراوية على مكانة واعدة . بعد أن بسطت قوات عمان المهادن الأمن تمت تسوية النزاعات الإقليمية بين الحكام بشكل تدريجي. مع اكتشاف البترول على الساحل ازدهرت الدول الغربية . وتوجهت أنظار السكان بما فيهم رجال القبائل الى المدن متطلعين الى العمل والعيش الرغيد . واليوم ، ومع التعليم بدأ رجال القبائل السابقة يتضايقون من الأجانب الذين أخذوا يتوافدون لشغل وظائف إدارة الدول الجديدة . انتعش التجار ، ولكن بقيت سيطرة الحكام .

إن المنظور الجديد للمنطقة هو أكثر استقرارا ومدنية وازدهارا من المنظور القديم ، ولكن ربما تكتنفه بعض المساوئ .

أخبار علمية وثقافية

* صدر حديثا (1996) ، ضمن منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة ، كتاب بعنوان "ابن بطوطة" يتضمن أعمال الندوة التي نظمتها مدرسة الملك فهد أيام 29.28.27 أكتوبر 1993 .

وقد كان الهدف من تنظيم هذا الملتقى العلمي حول الرحالة والعلامة المغربي مزدوجا :

- أولا تكريم هذه الشخصية النادرة التي جابت أطراف العالم الإسلامي وجزءا مهما من مناطق العالم المعروف وقتئذ ، وسجلت صورا مختلفة عن ثقافات وعادات المجتمعات التي زارتها في مؤلف يمكن عده من الموسوعات الكبرى التي تحتوي على معارف ومعلومات فريدة في قيمتها ، فاقت في السرد والحكي والمضمون مختلف مثيلاتها المعاصرة من مصنفات أدب الرحلات .

- ثانيا : توفير المناسبة لتبادل الآراء بين المهتمين وتنسيق الجهود بين الباحثين في تاريخ كل المناطق التي شملتها رحلات ابن بطوطة في القرن 8 هـ / 14 م.

ومما ميز ندوة ابن بطوطة هذه ، المشاركة المكثفة لباحثين مرموقين من مختلف الجامعات ومراكز البحث المغربية والأجنبية الذين انصب اهتمامهم على المحاور التالية :

- التعريف بابن بطوطة ورحلته "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

- طنجة بين زمان ابن بطوطة واليوم .

* صدر منذ شهر ، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، كتاب : "الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى" الذي يقدم أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الكلية أيام 2 و 3 و 4 نونبر 1994 .

وقد سعى الباحثون المنتمون لمختلف الجامعات المتوسطية لرصد تطور علاقات المسلمين مع المسيحيين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في شتى الميادين خلال العصر الوسيط الذي تخللته فترات مد وجزر نتج عنها احتكاك الطرفين ، مما أدى الى تفاعل حضاري متميز كان من سماته التواصل عبر الروافد البشرية والمادية التي كانت تغدي الضفتين الجنوبية والشمالية لنفس الحوض .

وتتمحور الدراسات التي يضمها الكتاب حول المواضيع التالية :

- مسألة المصادر الإسطوغرافيا .

- المظاهر السياسية لعلاقات الغربيين الإسلامي والمسيحي : القضايا المرتبطة بأوجه التقارب أو بأوجه الصراع .

- الجانب الاقتصادي لهذه العلاقات : طبيعة التبادل التجاري ونوعية السلع المتبادلة ، دور بعض المراكز الحضرية الشاطئية ، وأهمية النقد الإسلامي عموما والنقد المغربي خصوصا في التجارة الدولية آنذاك .

- العلاقات الثقافية : ومن الموضوعات التي طرقت في هذا الباب : الصورة والتصور اللذان كانا لدى المسيحيين عن المسلمين ، والتأثير الذي كان للإسلام على الحياة الدينية المسيحية بصفة عامة وعلى حركة الرهبان الفرنسيسكان بصفة خاصة خلال القرن الثالث عشر الميلاي ، وتأتير المسلمين في الميادين الأخرى خاصة الميدان العلمي .

* صدر في شهر شتنبر 1996 ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، كتاب "دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب : 1961 - 1994"

ولا يخفى على جمهور الأساتذة الباحثين والطلبة ما لهذا الإنجاز من أهمية بالغة.

فقد أصبحت الحاجة الى هذا الدليل ملحة، نتيجة تزايد أفواج الباحثين المنتمين الى مختلف التخصصات في الآداب والعلوم الإنسانية؛ ونظرا لاتساع آفاق هذه العلوم وتعدد لغاتها، حصل تراكم في الأطروحات والرسائل الجامعية وظهرت مشكلة تتلخص في كون الكثير منها يتكرر تسجيله شكلا ومضمونا في أكثر من كلية دون أن تملك إدارة هذه الكليات ولا أساتذتها المشرفون ولا الطلبة الباحثون أداة لمعرفة ما إذا كانت المواضيع التي يقترحونها للتسجيل بإحدى الكليات غير مسبوق إليها في كليات أخرى. فجاء هذا الدليل يشكل هذه الأداة.

غير أن لهذا الدليل مزية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها خصوصا بالنسبة للباحثين في الفكر والثقافة المغربيين أو المهتمين بالتأريخ لهما. فالكتاب يقدم ثلث قرن من إنتاج الفكر المغربي ويعطي صورة واضحة المعالم عن اهتمامات المفكرين المغاربة طيلة هذه المدة وذلك في مجالات اللغة العربية وآدابها، والدراسات الإسلامية، والتاريخ، والجغرافية، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وكذا في مجال اللغات الأجنبية وآدابها.

وتجدر الإشارة الى أن كلية الآداب بالرباط ستصدر ملحقا سنويا يستوعب ما استجد من الأطروحات والرسائل. كما أنها قررت إحداث

مركز لتخزين ومعالجة قوائم الرسائل الجامعية بالحاسوب قصد وضعها رهن إشارة من يهمه الأمر ابتداء من مستهل سنة 1997.

* صدر في ربيع 1996 ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط مؤلف يضم أعمال ندوة "الاجتهاد الفقهي ، أي دور وأي جديد ؟"

كانت هذه الندوة المنعقدة في 9 - 10 فبراير 1996 وقفة جدية فاحصة عند الحركة الفقهية الاجتهادية الحديثة من أجل الإجابة عن التساؤلات الآتية : إلى أي حد استطاعت هذه الحركة أن تستوعب التطورات الحياتية وأن تجيب عن تساؤلاتها ؟ وأي دور يمكن أن تضطلع به في تدعيم الهوية الثقافية والحضارية للأمة الإسلامية وفي صياغة الحياة الاجتماعية في إطار المنظومة التشريعية الإسلامية ؟

وقد تركزت مداخلات الباحثين حول المحاور الثلاثة التالية :

- الاجتهاد الفقهي الحديث : منطلقاته واجتهاداته .

- الاجتهاد الفقهي الحديث : مناهجة وأساليبه ووسائله .

- نماذج تطبيقية في الأحوال الشخصية والمعاملات المالية والسياسة الشرعية .

من الرّبـاط إلى أبوظبي

« تهنئة بالعيد الفضي لاتحاد دولة الإمارات العربية »

للشاعر محمد البوعناني

عَيْنايَ ما فاتَتْهُما عَيْنـانِ　　　لِكَشْفِ ما يَخْفَى عَنِ العِيَانِ
فَطافَتا بَيْنَ المَجَرّاتِ وَعَا　　　دَتَا إلى مَبَاسِمِ الحِسَـانِ
لِتَنْقُشَا بالنُّورِ وَجْدَنا على الْـــ　　　بَآبِئِ الخَضْرَاءِ والأُجْفَانِ
وَتَغْرِسَا الأرضَ بأطيافِ المُنَى　　　تَـطُوفُ بالزَّمَـانِ والمَكَانِ

عَيْنٌ عَلَى المَشْرِقِ تُذْكِي عَجَبِي　　　وَأُخْتُها في المَغْرِبِ الرَّيَّانِ
يَلْتَحِمُ المُحيطُ والخَليجُ في　　　رُؤْيَايَ كالخَفْقَةِ في الوِجْدانِ
فأطْلَقَ "الرِّبـاطُ" زَوْرَقي إلى　　　شَطِّ "أبوظبي" مَعَ التهاني
وَمَا "رِباطُ الفَتْحِ" إلاّ غُرْفَـةٌ　　　مِنْ كُلِّ نَبْعٍ فـاتِنِ الألْوَانِ
يَلُفُّ المَوْجَ بِهالاتٍ مِنَ الْــــأَقمارِ كاليَاقوتِ في التِّيجانِ،
كُلُّ إمَارَاتِيّ ، وكُلُّ مَغْـرِبِيّ　　　في نَجْمِهَا الدُّرِّيِّ يَسْبَحَانِ
والحَسَنُ الثّاني يُعَانِقُ بِحُـــبِّ اللهِ زايِدَ المَقَامِ الدَّاني.

حينَ رأيتُ الشمسَ مِنْ مَغْرِبِها　　　تُشْرِقُ .. والنجومَ في الأغْصانِ
والأُمَّهاتِ يَتزاحَمْنَ عَـلَى　　　زَغْرَدَةٍ لِلأُسْرَةِ النَّهْـيَانِ
أيْقَنْتُ أنَّ اليومَ عِـيدُ أُمّـةٍ　　　تَـصَدَّرَتْ وَاجِهَةَ الزّمـانِ!

مغرِبُنا الأقْصَى لَهُ سَابِقَةُ الْــــتَّهْنِيءِ لِلإخْوَةِ والخِـلاّنِ
والقَلْبُ يَسْتَثْنِي المُحِبِّينَ إذا　　　أفشَى الهَوَى تَنهُّدَ الرُّكْبانِ
هَدْهَدَةُ الحُداةِ تَسْتَحِثُّهُ　　　لِيُصْبِحَ الأوَّلَ في المَيْدانِ
يَشْدُو بالاتِّحادِ يومَ عيدِهِ الْــــفِضِّي ، وفي حِسَابِهِ عِيدانِ

يَشْدُو وكلُّ محفلٍ يَصْغَى إلى ... روائعِ الأنغامِ والألحانِ
حتَّى القوافي انتثرتْ زنابقًا ... على الرَّوابي السُّمرِ والغُدرانِ
كأنَّما الدُّنيا على أرجوحةٍ ... تَضُمُّها السَّماءُ بالأحضانِ
تمتزجُ النجومُ بالأقواسِ والـ ... أمواجُ بالأقداحِ والعيدانِ

الاتِّحاد بالإمارات أرى الـ ... دُّنيا دليلاً ماله من ثانِ
قوامُه البيعةُ والعهدُ الذي ... يَحرُسُه الرَّحمانُ بالقرآنِ
يبقَى على دهرِ الدهارِ يرذرًى ... تشامخت بالحُسنِ والإحسانِ

يا زايدَ السَّناءِ يا تمامَ الإبْـ ... ـتهاجِ للعائدِ والفرحانِ
تُسْدي مع الحَسَنِ في مَشْوَرَةٍ ... نُصْحًا لِسائرِ بني الإنسانِ
أغدقتُما على السَّلامِ مِنَّةً ... بِلا تَذَلُّلٍ ولا قُرْبانِ
فاقتنعَ الخُصومُ رغْمَ حِقدِهمْ ... بحقِّنا في الأمْنِ والأمانِ
وهكذا تُبارِكُ الأمَّةُ مُلْـ ... ـتقاكُما في كفَّةِ الرُّجحانِ
حين تُناديانِها تَصْغَى إلى ... نِداكُما بالعقلِ والآذانِ
هاتِفةً: لبَّيْكُما لِوحْدةٍ ... تَلْبيَةَ المُسلمِ لِلأَذانِ

وصَلْتُما القُرْبَى لِتَوثيقِ العُرَى ... وصَحْوَةِ الأجيالِ والأوطانِ
بالصُّلحِ والتنافُسِ الخلَّاقِ والـ ... ـتَّضامُنِ السَّبَّاقِ والعِرفانِ
لِتنقِذا الشَّبابَ من تَصَحُّرٍ ... مُعَشِّشٍ في الرُّوحِ والأذهانِ
وسُفُنُ العُرْبِ إذا ما أُهمِلَتْ ... تبحثُ تحتَ الليلِ عن شُطآنِ
فإنَّ في المُحيطِ والخليجِ أمْـ ... ـهَرَ الرَّبابنةِ والفُرسانِ
فهل سَنَنْتَظِرُ حتَّى تختفي ... غارِقةً في الذُّلِّ والهَوانِ...
ونتركُ "الجُزُرَ" مقتطعةً ... مِن أُمِّها تَنوءُ بالأشجانِ؟
كلَّا وفي المشرقِ والمغربِ دا ... فَعَ المُزارِعُ مع الرُّبَّانِ
عن حُرْمةِ الترابِ والمَكاسِبِ الْـ ... ـمُثلى مع الوحدةِ كلَّ آنِ!

كُنَّا عَناوِينَ النُّبوغِ - حَرْفُنا ... عَلَى فَمِ البِحَارِ والبُلْدانِ
واليومَ نخشَى أن نَرَى سُطُورَنا ... بِلاَ مَضامِينَ ولاَ عُنوانِ
وَزايدُ البيانِ بَيَّنَ لنَا ... كيفَ نُحِقُّ الحَقَّ بالبَيانِ
ونعكِسُ السَّهمَ نَرُدُّه، إذا ... صَوَّبَهُ الخادِعُ لِلشُّجْعانِ
وحَوَّلَ المشرُوعَ عن ساحَتِه ... مُسلَّحاً بالزُّورِ والبُهتانِ
وَمَسَخَ الرأيَ السّليمَ ناقِماً ... باللَّمْزِ، والأقلامِ واللِّسانِ
وَكُلُّ مَا فِي الغربِ من نضارةٍ ... ترتَقُ مِن ربيعِنا الفَيْنانِ!

مَن كان يَدْرِي أن يَرَى فَسِيلَةً ... تُفْرِزُ مَلْيوناً مِنَ الفُسْلانِ
فغاصَتِ الرِّمالُ في زَرْبِيةٍ ... مِنَ الزُّمُرُّدِ عَلَى أفْنانِ
وذابتِ اللِّحاظُ في مَباسِمِ الْـ ... ـواحاتِ والشلاّلِ والبُستانِ
بَحْرُ عَراجينٍ تَتِيهُ فوقَهُ ... مراكِبُ السَّوْسَنِ والقحْوانِ
مِن أصْفرٍ كالشّمسِ في مَغيبِها ... وأحْمرٍ قانٍ، وأرْجُوانِي

في كلِّ نَخْلَةٍ نَما مُسْتَقْبلُ ... مُفَرْدَسُ السَّاعاتِ والثّواني
تقصِّرُ الليلُ بأُغنِياتِهِ الْـ ... ـخفيفةِ الأبياتِ والأوزانِ
أدركَها الصَّباحُ والألطافُ تَحْـ ... ـمِي زايِدَ الألطافِ بالوِلْدانِ
تَوَقَّتَتْ ذاكرةُ الأفلاكِ فِي ... أبْراجِها عيداً على الأزمانِ
مَراصِدُ التاريخ تكتنِزُه ... غنيمَةَ الشيوخِ والفِتْيانِ
فَمِنْ عذابِ الغَوْصِ عن لُؤلُؤَةٍ ... وَحَوْمَةِ القِرشِ عَلَى المَرْجانِ
لِفُجْرَةِ البِيدِ بِإذْنِ رَبِّها ... نُعْمَى لأهلِ البيتِ والجِيرانِ
رَايَةُ أرقَى الإنتصاراتِ على الْـ ... ـعَدَمِ، والجَفافِ والحِرْمانِ
فالحُلْمُ والمُحالُ قَدْ تَضَوَّعا ... حَقِيقَةً تلمَسُها اليدانِ
تُنَعِّمُ الأجيالَ في تَبَجُّحٍ ... بدونِ نِسْيانٍ لأخٍ جَوْعانِ
وَتَسْكُبُ الآمالَ مِنْ مَعْدِنِها ... سَبائكاً مِن خالِصِ العِقيانِ

وعيدُ الاتّحادِ نيشانٌ علَى الْـــجباهِ والأرْواحِ والأبْدانِ

أسّسَهُ زايدُ بالعَــدْل وبا   لشُّورى، وحُبّه الفسيحِ الباني

ونحنُ في العَرَبِ نُردّد بـه: (زايدُ والحسَنُ توْأمَـانِ)

منارتانِ في مَرَاسِي يومِنَـا   وفي مُحيّا غَدِنا عيْنـانِ

فاحْفظْهما ربّي لأنجالِهِمَا   والشّعبِ والإسلامِ والعُربانِ

وَارْفعْ سَناهُما ورايتَهُما   بسورةِ الأنفالِ والرّحمنِ

المحتويات

تم طبع هذا الكتاب
بعون الله تعالى
بمطابع الأطلس - الرباط - المغرب
رقم الإيداع القانوني : 1996/172